

أهال الذمة في مصر

في العصر الفاطمي الأول

تأليف

د. سلام شافعى محمود

تاریخ المصریین

[٧٥]



رئيس مجلس الادارة
د . سامي عاصي سرحان

رئيس التحرير
د - عبد العظيم رمضان

الإخراج الفني : مراد نسيم

أهـل الـزـمـن فـي مـصـر

فـي العـصـر الفـاطـمـي الـأـوـل

تألـيف

دـ. سـلام شـافـعـي مـحـمـود



الـبـيـانـةـ الـعـرـبـيـةـ الـعـامـةـ لـلكـتبـ

١٩٩٥

تقديم

احتل تاريخ مصر الاجتماعي في الفترة الأخيرة مركز الاهتمام الأول بين المؤرخين وطلبة الدراسات العليا في التاريخ ، ولم يقتصر ذلك على عصر دون عصر ، بل شمل جميع العصور . وقد ظهر في هذه السلسلة وحلها عدد كبير من الدراسات الاجتماعية على امتداد تاريخ مصر ، مثل : الأقباط في مصر في العصر العثماني ، والمجتمع الريفي في عصر محمد على ، ومصر الإسلامية وأهل الذمة ، والمرأة في العصر الفاطمي ، وأهل الذمة في الإسلام .

وها هو بين يدي القارئ كتاب جديد عن أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول . ألفه أستاذ جامعي متخصص هو الدكتور سلام شافعى محمود ، يتناول تاريخ النصارى واليهود في مصر في عصر لعبوا فيه دورا هاما في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وهو العصر الفاطمي الأول الذى امتد نحو قرن من الزمان (٣٥٨ - ٤٤٧ هـ / ٩٦٩ - ١٠٥٥ م) .

فبسبب انتساب الفاطميين إلى المذهب الشيعي وانتساب أهل مصر إلى المذهب السنى ، وبعد الخلاف الفاطميون الأوائل أنفسهم في محيط عدائى دفهم إلى الاستعانة بالنصارى واليهود في الوظائف المالية والإدارية ، فكان منهم الوزراء ، والكتاب ، ورؤساء الدواوين ، بل ارتبطوا مع بعض عائلاتهم برابطة المصاهرة . فعاش أهل الذمة – لذلك – في مصر في هذا العصر كطبقة متميزة تتمتع بمكانة اجتماعية عالية ذات ثراء .

وقد تتبع هذا الكتاب الهام دور هذه الطبقة من أهل الذمة

في الوظائف العامة والحياة العامة ، فتناولوا أدائهم الوظيفي ، واحتفالاتهم ، وكنائسهم وأدبياتهم ومعابدهم ، ودورهم في النشاط الزراعي والصناعي ، وحياتهم في القرى والمدن المصرية ، ولغتهم القبطية ولهجاتها ، وأسلوبه تنصر المفرج لمدين الله الفاطمي . كما تناول علاقات الدولة الفاطمية بالدول المسيحية وأثرها على أهل الذمة . والسفارات التي يتولى رئاستها كبار رجال الدولة من أهل الذمة . وأفرد فصلاً لعلاقات الدولة الفاطمية ببلاد النوبة ، والصلة بين الكنيسة القبطية في مصر والكنيسة النوبية ، واختتم الكتاب بفصل عن العلاقة بين مصر وبلاد الجبعة ، وبين الكنيسة القبطية وكنيسة الجبعة . ومدى تأثيرها بموقف الحلفاء الفاطميين من الأقباط إيجاباً وسلباً .

وقد استند الدكتور سلام شافعى محمود إلى عدد كبير من أوئل المصادر التى أضاء بها ذلك العصر المتميز فى تاريخ مصر الإسلامية ، وهو العصر الفاطمى الأول .

(مقدمة البحث)

عاش أهل الذمة من اليهود والنصارى منذ الفتح العربي لمصر سنة ٢١ هـ / ٦٤٢ م مع المسلمين في ظل سياسة التسامح الدينى . وعلى الرغم من انتشار الاسلام بين أهل البلاد ، وتعريب الدواوين ، ونزوح بعض القبائل العربية الى مصر ، وسكنهم بالمدن والريف واختلاطهم بالمصريين على مدى ثلاثة قرون الأولى من الهجرة ، الا أن نصارى مصر – في العصر الفاطمى الأول ٣٥٨ – ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م كانوا ما يزالون يشكلون أقلية نشيطة . كبيرة العدد تقدر بحوالى ثلث سكان مصر . كما أن يهودى مصر – في هذه الفترة – كانوا يقدرون ببضعةآلاف .

ولذلك كان اختيارنا لموضوع « أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمى الأول » انما يرجع الى أهمية الدور الذى لعبوه في تاريخ مصر في هذه الفترة في كافة المسارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية . فقد أسند الخلفاء الفاطميين إلى أهل الذمة كثيراً من الوظائف العامة في الدولة ، فكان منهم الوزراء ، والوسطاء ، ورؤساء الدواوين ، والكتاب ، كما عملوا في الوظائف المالية والإدارية في الدواوين ، اذ استعان بهم الخلفاء الفاطميين الأوائل لمهاراتهم وخبرتهم في تلك الوظائف ، ولأنهم وجدوا أنفسهم في

محيط عدائى من أهل السنة - غالبية سكان مصر - بل لم يقتصر الأمر على الاستعانة بهم فى دواوين الدولة وإنما ارتبطوا ببعض عائلاتهم عن طريق المصاورة .

ولقد شارك الوزراء والوسطاء من أهل النمة فى تنفيذ السياسة الداخلية والخارجية لمصر فى العصر الفاطمى الأول ، بل وأسهموا فى رسم هذه السياسات كما أدى استفحال نفوذ بعض الوزراء والوسطاء منهم وانحيازهم إلى بنى ملتهم إلى سيطرة موظفى الدولة من أهل النمة على الدواوين الحكومية ، وبالتالي إلى تذمر الرعايا المسلمين ، وتدخل الخلفاء لاعادة الأمور إلى نصابها ، مجازاة للرأى العام الإسلامي .

وتحت مظلة التسامح الدينى قام أهل النمة بدور هام فى الحياة الاقتصادية فى مصر ، وأسهموا بتنصيب كبير فى النشاط الزراعى ، إذ كانوا يمتلكون الأراضى الزراعية والضياع الواسعة ، كما شاركوا فى النهضة الصناعية الكبرى التى شهدتها مصر فى ذلك العصر ، إذ كان أهل النمة وبخاصة الأقباط هم عماد الصناعة ، وعلى أيديهم ازدهر النشاط الصناعى ، كما ظهر أثر الفن القبطى فى كثير من الصناعات والفنون التى برعوا فيها بدرجة تدعى إلى الاعجاب والتقدير . أما فى مجال التجارة الداخلية فقد قاموا بدور له أهميته ، كما أسهموا بدور تشجيع فى مجال التجارة الخارجية التى انتعشت كثيراً فى العصر الفاطمى الأول .

وكان أهل النمة فى مصر فى ذلك العصر بمثابة طبقة اجتماعية متميزة عاشت فى قرى ومدن مصر ، بل قد وجدت بعض القرى والمدن المصرية التى غالب على سكانها أهل النمة وبخاصة الأقباط ، الذين انتشرت بينهم اللغة العربية وبخاصة بعد تعریف الدواوين ، وحرصهم على تعلمها . كما كان كبار رجال الدولة من أهل النمة فى العصر الفاطمى الأول يتمتعون بمكانة اجتماعية ممتازة ، إذ

امتلكوا الثروات الطائلة والقصور الفخمة ، واشتهروا بالثراء ونشأت بين كثير منهم وقصور الخلافة علاقات طيبة وصلات وثيقة ، فمتحمهم الخلفاء الفاطميون الألقاب وخلعوا عليهم الهدايا ، الا أن ترفهم واستعمالهم على المسلمين قد أدى إلى استنكار المسلمين لهذه الأوضاع .

ولما كانت الدولة الفاطمية هي أول دولة مستقلة استقلالا تماما في مصر فان الأمر تطلب البحث وتقسي الحقائق عن مدى التزام الفاطميين بالعهود التي سبق أن أعطاهما الخلفاء المسلمين لأهل النمة ، وبخاصة ما يسمى بالشروط العمرية ذلك أن خلفاء العصر الفاطمي الأول هبأوا لأهل النمة فترة من التسامح الديني فاقت كل ما سبقها من عهود ، فتساهلوا في تطبيق هذه الشروط . وان كان الحاكم بأمر الله - في فترة من عهده - تشدد في تطبيقها ، وفرض عدة قيود اجتماعية جديدة للدرجة أنها أدت إلى هجرة الكثيرين منهم إلى بلاد الروم والتوبة والمحبشه وان كان قد عاد في أواخر أيامه إلى التخفيف من غلواء سياسته وعاد إلى تسامحه معهم .

وكان الاحتفالات بأعياد أهل النمة من أهم مظاهر الحياة الاجتماعية في العصر الفاطمي الأول ، فقد شارك الخلفاء الفاطميون وعامة المسلمين في الاحتفال في كثير من هذه الأعياد ، وان كان بعض خلفاء النصر الفاطمي الأول فرضوا قيودا على بعض هذه الأعياد لأسباب اجتماعية .

وإذا كان أهل النمة قد استفادوا من قيام الدولة الفاطمية في مصر ، فإن ذلك يرجع إلى سياسة التسامح الديني التي سار عليها الخلفاء الفاطميون - باستثناء فترة من عهد الحاكم بأمر الله - ، إذ كانت الصلات الطيبة هي سمة العلاقات بين الخلفاء الفاطميين ورؤساء الطوائف الدينية لأهل النمة ، كما سمع الخلفاء الفاطميون

للنصارى بناء و تعمير و اصلاح الكنائس والأديرة ، بل أطلقوا الأموال للصرف على عمارتها و اعادة بنائها .

و اذا كانت كثير من دور العبادة لليهود والنصارى قد تعرضت للهدم والسلب والتخريب فى بعض الأحيان ، فلم تكن هذه سمة السياسة الدينية للخلفاء الفاطميين الأوائل ، بل كانت بمثابة قرارات استثنائية سرعان ما تعود بعدها السلطات الحاكمة الى التصریح باصلاح الكنائس و تعمیرها بل و التصریح ببنائهما من جديد ، و ان كان ذلك يتنافى مع ما نصت عليه الشروط العمرية في هذا الصدد .

كما تأثرت علاقات الدولة الفاطمية بالدول المسيحية بسياسة الفاطميين ازاء أهل الذمة ، كما أن أهل الذمة في مصر بدورهم قد تأثروا بتدحرج أو ازدهار هذه العلاقات مع هذه الدول ذلك أن العروبة التي نشبت بين الفاطميين والبيزنطيين أثرت على أحوال نصارى مصر وبخاصة طائفه الروم الملاكانية ، لذا تعرضت بعض المعاهدات والاتفاقات التي تمت بين الدولتين لأوضاع نصارى مصر وبخاصة فيما يتعلق بدور العبادة من كنائس وأديرة ، كما تولى بعض كبار الدولة من أهل الذمة رئاسة بعض السفارات الى بيزنطة .

و كان أيضا للعلاقات بين الدولة الفاطمية وبلاد النوبة والجيشة أثراً على أهل الذمة في مصر ، وبخاصة الأقباط ، نظراً للصلات الوثيقة والروابط القوية بين الكنيسة المصرية وبين كل من كنيستى النوبة والجيشة . فكتيراً ما كان يستخدم ملوك هاتين الدولتين نفوذهم في قصر الخلافة لصالح بطاركة الكنيسة القبطية وأقباط مصر ، بل اننا نجد الحاكم بأمر الله يخفف من غلواء سياسته ازاء أهل الذمة وبخاصة الأقباط خوفاً من أن يقوم ملكاً النوبة والجيشة بالاسباء الى المسلمين في بلديهما ، كما نجد الخلفاء الفاطميين

يطلبون من بطاركة الكنيسة المصرية استخدام نفوذهم وارسال خطاب توصية كل عام لملكي التوبة والحبشة لصالح المسلمين هناك .

ومجمل القول أن هذا العصر شهد ازدهاراً لدور أهل النمة ونشاطهم في المجتمع المصري ، بحيث يمكن أن يعتبر العصر الفاطمي الأول بحق العصر الذهبي لأهل النمة في مصر .

وحتى تتضح أبعاد هذه الدراسة ، فقد قسمت هذا الكتاب إلى أربعة أبواب على النحو التالي :

الباب الأول : وفيه تحدثت عن « أهل النمة والوظائف العامة » . والأسباب التي دفعت خلفاء العصر الفاطمي الأول إلى تعيينهم في مناصب الدولة العليا واستخدامهم في الدواوين . و موقف الخلفاء منهم عندما كان يستفحلاً أمرهم ويتعاطم نفوذهم ، ثم انتقلت إلى الحديث عن الوزراء والوسطاء من اليهود والنصارى ، ودورهم في السياسة الداخلية والخارجية لمصر في ذلك العصر ، وعلاقتهم بقصور الخلافة ، وكيف أدى انجازهم إلى بنى ملتهم إلى التنكيل بهم .

كما يتضمن هذا الباب اشراف أهل النمة على الدواوين وسيطرونهم على الأداة الحكومية مع الاشارة إلى الأطباء من أهل النمة وعلاقتهم بالخلفاء وكبار رجال الدولة وأثر تلك العلاقة على ذويهم ، ونختتم هذا الباب بتناول موقف المسلمين من سياسة المظفين الذين ، ومظاهر الاحتجاج على تلك السياسة ونتائجها .

اما الباب الثاني : فيعني بدراسة « أهل النمة والحياة الاقتصادية » ومنه نبدأ الحديث عن النشاط الزراعي لأهل النمة ، وعهد جوهر إلى المصريين و موقف الدولة من امتلاك أهل النمة للأراضي الزراعية ، مع الاشارة إلى الأرضي الموقوفة على الكنائس والأديرة وتعرضها للمصادرات . كما نتناول بالحديث أهم

الحاصلات الزراعية ، وتأثير الانتاج الزراعي لبعض المحاصيل بالظروف الاجتماعية والاقتصادية لمصر في ذلك العصر ، وإذا كانت مصر قد شهدت نهضة صناعية كبرى في العصر الفاطمي الأول فان الأقباط كانوا هم عماد الصناعة ولذلك يتناول هذا الباب دراسة عوامل ازدهار الصناعة وتقديمها ، وأهم الصناعات التي برعوا فيها ، وتأثير بعض هذه الصناعات والفنون بالسياسة الاقتصادية والاجتماعية والدينية لمصر في عصر الخلفاء الفاطميين الأوائل . كما يتضمن هذا الباب دور أهل الذمة في مجال التجارة الداخلية ، مع الاشارة الى الدور الشيطي لأهل الذمة في مجال التجارة الخارجية ، وبخاصة دور يهود مصر الذين اشتغلوا في تجارة الشرق .

اما الباب الثالث : فيتناول « الحياة الاجتماعية والدينية لأهل الذمة » وحياتهم في القرى والمدن المصرية وتطور اللغة القبطية ولهجاتها ، ثم أسباب اندثارها أمام اللغة العربية . كما يتضمن هذا الباب الحديث عن المكانة الاجتماعية لكتبار رجال الدولة من أهل الذمة وامتيازاتهم و موقف الرعايا المسلمين من هذه الطبقة – ثم تتناول بشيء من التفصيل القيود الاجتماعية التي فرضت على أهل الذمة ، وأسباب تشدد الحكم بأمر الله في تطبيق ما يسمى بالشروط المهرية وزيادته عليهما . كما ت تعرض الى الحديث عن الحياة الدينية لأهل الذمة فتتحدث عن أعياد كل من النصارى واليهود ، مع التركيز بصفة خاصة على الأعياد التي شارك فيها الخلفاء الفاطميون والمسلمون ، والقيود التي فرضت على بعض هذه الأعياد وأسباب ذلك . كما يتضمن هذا الباب موقف الفاطميين من رجال الكنيسة والطوائف الدينية وسياستهم ازاء الكنائس والأديرة والكنائس اليهودية . مع الاشارة الى أسطورة تنصر الخليفة المعز ، وتعاطف الحكم بأمر الله مع الرهبان . واستمرار سياسة اعادة بناء الكنائس في عهد الخليفة الظاهر واحتياز تلك السياسة

في فترة الاضطرابات التي عمت البلاد في نهاية العصر الفاطمي الأول .

وفي الباب الرابع : تحدثت عن « علاقات الدولة الفاطمية بالدول المسيحية وأثر ذلك على أهل الذمة » وعلى رأس هذه العلاقات تأتي العلاقات الفاطمية البيزنطية . وقد أوضحت أثرها على أهل الذمة في مصر ، وأشارت إلى السفارات التي تولى رئاستها كبار رجال الدولة من أهل الذمة ، ونتائج هذه السفارات وكذلك إلى المعاهدات التي عقدت بين الدولتين وما تضمنته من نصوص تتصل بحماية أهل الذمة وكثائهم وأديرتهم ومقدساتهم في مصر والشام .

كما يتضمن هذا الباب العلاقات بين الدولة الفاطمية وببلاد النوبة ، فتحدثت عن سفارة عبد الله بن سليم الأسواني إلى النوبة ، واقرار معاهدة البقط والصلات الطيبة بين مصر والنوبة في عهد العزيز بالله ، وعن موقف ملك النوبة من ثورة أبي ركوة في خلافة الحاكم بأمر الله ، ومن سياساته المتشددة إزاء الأقباط في مصر . ثم ما كان من عودة العلاقات الطيبة بين البلدين في عهد الظاهر والعدول عنها في عهد المستنصر بالله أثناء زيارة اليازوري . كما أوضحت الصلة بين الكنيسة القبطية في مصر والكنيسة النوبية . وأخيرا ختمت هذا الباب بالحديث عن العلاقة بين مصر وبلاد الحبشة ، وبين الكنيسة القبطية وكنيسة الحبشة في العصر الفاطمي الأول .

د. سلام شافعى محمود

عرض لأهم المصادر

اعتمدت في هذا الكتاب على عدد من مصادر التاريخ الإسلامي المخطوطة والمطبوعة . كما اعتمدت أيضاً على عدد كبير من المراجع الحديثة . وتميز المصادر التي اعتمدت عليها بأن بعضها قد ألفه رجال عاصروا الفاطميين ، ومن ثم فقد أهدتنا يكثير من الحقائق عن العصر الذي عاشوا فيه . وسائلناول في هذا العرض الموجز أهم المصادر والمراجع التي تتصل اتصالاً مباشراً بموضوع الكتاب والتي برزت أهميتها من خلال هذه الدراسة ، ويأتي في مقدمتها المصادر الخطية وفيما يلي عرض لكل منها :

١ - كتاب « سير البيعة المقدسة » وهو ذيل لكتاب « سير الآباء البطاركة » لساويرس بن المقفع أسقف الأشمونيين الذي عاش في أيام المز لدين الله ، وعمل موظفاً بالدواعين الفاطمية . والذي تناول في مؤلفه تاريخ بطاركة الاسكندرية ووقف في كتابته حتى أوائل الخلافة الفاطمية في مصر . ولكن هذا الكتاب استكملت كتابته باسم « سير البيعة المقدسة » أو باسم « ذيل سير الآباء البطاركة » واشترك في كتابته مؤلفون قبط من الأخبار المتعاقبين . ومنهم قيس معاصر يدعي الأنبا ميخائيل كان شمامساً ثم قسيساً ثم أسقفاً على تينيس ، فكتب سيرة الآباء البطاركة في خلافة كل من

العزيز بالله ، والحاكم بأمر الله ، والظاهر لاعزاز دين الله . وبعد ذلك تولى موهوب بن منصور بن مفرج الاسكندراني كتابة سير البطاركة في عهد المستنصر بالله الفاطمي ، ويعتبر هذا المخطوط واحدا من أهم المصادر التي اعتمدت عليها ، اذ يلقى الضوء ساطعا على كثير من الأمور التي تتعلق بأهل الذمة كطبقة اجتماعية عاشت في المجتمع المصري في العصر الفاطمي الأول ، ودورهم في الحياة الاقتصادية والاجتماعية وسياسة الخلفاء الفاطميين الدينية ازاء الكنيسة ورجالها ، والراسيم التي أصدرها الحاكم بأمر الله والتي ضيقـتـ الخناقـ عليهم . كما تناول المصدر علاقات الفاطميين ببلاد النوبة والحبشة وأثر ذلك على المسيحيين .

٢ - كتاب « عيون العسـارـفـ وـفنـونـ أـخـبـارـ الـخـلـافـ » للقضـاعـيـ . وهو القاضـيـ أبو عبد اللهـ محمدـ بنـ سـلامـةـ الشـافـعـيـ المـذـهـبـ ، الذيـ ولـدـ فـيـ مـصـرـ فـيـ أـوـاـخـرـ الـقـرـنـ الـرـابـعـ الـهـجـرـيـ ، وـالـذـيـ تـوـفـىـ بـهـ أـيـضـاـ سـنـةـ ٤٥٤ـ هـ /ـ ١٠٦٢ـ مـ . وـالـكـتـابـ مـوجـزـ فـيـ ذـكـرـ الـأـنـبـيـاءـ وـتـارـيـخـ الـخـلـفـاءـ إـلـىـ سـنـةـ ٤٢٢ـ هـ /ـ ١٠٣٢ـ مـ ، وـلـعـلـهـ مـخـتـصـرـ مـؤـلـفـ أـكـبـرـ ، لـمـ يـصـلـنـاـ بـعـدـ . وـلـقـدـ كـانـ الـقـضـاعـيـ مـنـ فـحـولـ الـفـقـهـ وـالـحـدـيـثـ وـالـتـارـيـخـ وـتـوـلـيـ الـقـضـاءـ وـغـيـرـهـ مـنـ مـهـامـ الـدـوـلـةـ فـيـ أـيـامـ الـمـسـتـنـصـرـ بـالـلـهـ الـفـاطـمـيـ . وـقـدـ أـرـسـلـهـ هـذـاـ الـخـلـيفـةـ فـيـ سـنـةـ ٤٤٧ـ هـ /ـ ١٠٥٥ـ مـ سـفـيرـاـ لـيـحـاـوـلـ عـقـدـ صـلـحـ بـيـنـ تـيـوـدـوـرـاـ اـمـبـراـطـورـ الـرـوـمـ وـبـيـنـ مـصـرـ . وـمـنـ هـنـاـ تـأـتـيـ أـهـمـيـةـ الـمـصـدـرـ ، اـذـ أـنـ مـؤـلـفـهـ كـانـ مـعاـصـراـ لـلـفـاطـمـيـنـ ، وـمـنـ كـبـارـ رـجـالـ دـوـلـتـهـ ، وـبـالـتـالـيـ فـاـنـ الـمـصـدـرـ يـزـخرـ بـكـثـيرـ مـنـ حـقـائقـ عـصـرـهـ وـبـخـاصـةـ الـأـحـادـاثـ التـارـيـخـيـةـ فـيـ خـلـافـةـ الـعـزـيزـ بـالـلـهـ وـالـحـاـكـمـ بـأـمـرـ اللـهـ . كـماـ يـحـتـويـ مـضـمـونـ سـجـلـاتـ الـحـاـكـمـ بـأـمـرـ اللـهـ الـتـيـ أـصـدـرـهـ لـأـهـلـ الذـمـةـ . مـاـ يـوـضـعـ لـنـاـ جـانـبـاـ كـبـيراـ مـنـ دـورـ أـهـلـ الذـمـةـ فـيـ الـحـيـاةـ السـيـاسـيـةـ وـالـاـقـتـصـادـيـةـ وـالـاجـتمـاعـيـةـ ، وـمـوـقـفـ الـخـلـفـاءـ مـنـ مـوـظـفـيـمـ الـذـمـيـنـ .

٣ - كتاب « هرآة الزمان فی تاريخ الأعیان » لمؤلفه سبیط ابن الجوزی المتوفی سنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٧ م . ویھمنا فی هذا المخطوط الجزءین الحادی عشر والثانی عشر . اذ تناول المؤلف، فیھما کثیراً من التفاصیل عن کبار موظفوی الدولة من أهل الذمة ، ودورهم فی السياسة الداخلية والخارجية ، وموقف الخلفاء الفاطمیین منهم . كما أمدنا بکثیر من جوانب الحياة الاجتماعیة والاقتصادیة لأهل الذمة . علاوة على تناوله لموضوع العلاقات الفاطمیة البيزنطیة بشیء من التفصیل .

٤ - كتاب « فیلدة الفکرة فی تاريخ الهجرة » لمؤلفه بیبرس الدوادار المتوفی سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م ، ویتناول المؤلف فی الجزء السادس من هذا المصدر ازدیاد نفوذ أهل الذمة فی مصر فی العصر الفاطمی الأول ، ومراسیم الحاکم بامر الله لأهل الذمة وأثرها على النشاط الزراعی والصناعی والتجاری ، كما أمدنا بالکثیر من المعلومات عن سیاستة الفاطمیین الدينیة ازاء أهل الذمة وكذلك عن اثر العلاقات بین الدولة الفاطمیة وبیزنطة علی نصاری مصر .

٥ - كتاب « نهاية الأدب فی فنون الأدب » للنویری المتوفی سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م ، ویھمنا من هذا المصدر ، الذى يعتبر من أعلم المصادر الاسلامیة التي تناولت العصر الفاطمی - الجزء السادس والعشرين . اذ ألقى الكاتب فی هذا الجزء الضوء علی هؤلاء الموظفين من أهل الذمة الذين تولوا أرقى مناصب الدولة ، وعلى موقف الخلفاء الفاطمیین منهم ، ونظرة عامة المسلمين اليهم . بل انه انفرد ببعض الحقائق عن سیاستة موظفوی الدولة من أهل الذمة وسیاستة الفاطمیین ازاء الکنائس والأدیرة . كما تناول کثیراً من التفاصیل عن القیود التي فرضت علی أهل الذمة ، وكذلك العلاقات بین الفاطمیین وبالاد الروم .

٦ - كتاب « عقد الجuman في تاريخ أهل الزمان » للعيني المتوفى سنة ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م ، وقد تناول الجزء التاسع عشر من هذا المصدر الهام . ذكر كثير من موظفي الدولة من أهل النمة . والقيود التي فرضت عليهم ، وسياسة الفاطميين ازاء الكنائس والأديرة . كما تناول المؤلف العلاقات الفاطمية البيزنطية وأثرها على أهل النمة في دولة الفاطميين .

وأما المصادر المطبوعة فيأتي على رأسها بالنسبة لموضوع البحث :

أولاً : كتب الرحلات :

١ - كتاب « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » للمقدسى المتوفى سنة ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م . الذي زار مصر في أوائل العصر الفاطمى . ويتميز المصدر بدقة المعلومات التي أمننا بها ، اذ كان مؤلفه يتبحرى الدقة فيما يكتب . لذا فإن حديثه عن النشاط الزراعى والصناعى والتجارى جاء فى غاية الأهمية ، وبالذات تلك الشذرات التى تناولت دور أهل النمة فى تلك الأنشطة المختلفة . كما أن المصدر يحتوى على ذكر المراكز الصناعية فى مصر كتنيس ودمياط وشطا ودبىق وغيرها من المدن الصناعية الكبرى . حيث يغلب عليها السكان من القبط . مع اشارته الى المراكز التجارية وطرق جباية الضرائب والمكوس ، واعجابة باستقرار الأمن والهدوء فى أرجاء الدولة .

٢ - كتاب « صورة الأرض » لابن حوقل ، وهو الرحالة الذى عاش فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى / النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى وقد أمننا ابن حوقل فى مؤلفه هذا بمعلومات وفيرة عن الشعوب التى زارها ومنها مصر . فذكر كثيراً من القرى والمدن المصرية وسكانها ، كما الذى بعض الضوء على النشاط الزراعى والصناعى وبخاصة فى تنيس ودمياط ، والضرائب الباهظة التى فرضها ابن كلسى على صناع هاتين المدينتين . كما ذكر المدن التجارية

بمصر كالاسكندرية والفسطاط . وكذلك الطرق التجارية ، اذ كان المؤلف واحدا من هؤلاء التجار الرحالة المثقفين .

- كتاب « سفر نامة » لناصرى خسرو . ذلك الرحالة الفارس الذى زار كثيرا من بلاد العالم الاسلامى ومنها مصر : وكانت زيارته لها فيما بين سنة ٤٤١-٤٣٩ هـ / ١٠٤٧ - ١٠٥٠ م في خلافة المستنصر بالله ، وقد أتاحت له مدة اقامته بمصر التعرف على الاحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى مصر فى عهد هذا الخليفة . كما أعجب برحائها ، واستقرار الأمن فيها ، واعتقد ان ذلك إنما يرجع الى الدولة الفاطمية والى مذهبها الاسماعيلى ، ولذلك أصبح من أشد دعاة الاسماعيلية المت指控ين للخلفاء الفاطميين . واعتني ناصرى خسرو بدراسة الأعياد والصلوات والصنائع والفنون والأسواق ، والمراكن الصناعية والمدن التجارية ، وعوامل ازدهارها فى مصر فى هذا العصر ، كما ألقى بعض الضوء على نشاط أهل النوبة فى ميدانى الصناعة والتجارة ، وأذدىاد فنوزهم فى عهد المستنصر بالله ، بالإضافة إلى ثراء كثير منهم كطبقة اجتماعية لها أهميتها فى المجتمع المصرى ، كما أشار إلى علاقة الفاطميين بالروم ، وتسامح الفاطميين مع أهل النوبة ..

- كتاب « وحلة بنىامين » للرحالة بنىامين بن يونه التطبيلى الببارى الاندلسى الذى طاف بكثير من بلاد العالم الاسلامى ومنها مصر ، واستغرقت رحلته المدة من سنة ٥٦١ إلى ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ - ١١٧٥ م . وعلى الرغم من أن زيارته لمصر كانت فى بداية عهد صلاح الدين الايوبي ، الا أنها أمدتنا بمعلومات هامة عن التعداد التقريري ليهود مصر فى ذلك الوقت . وأوقفتنا على بعض أحوالهم الاجتماعية والدينية . كما ألقى الضوء على النشاط التجارى فى المدن التجارية الواقعة على البحرين المتوسط والأحمر ، حيث كانت توجد فى كثير

منها جاليات يهودية . اشتغل أفرادها في تجارة الشرق ، وأسهموا في النشاط التجاري بين أوربا والشرق .

- كتاب « رحلة ابن جبير » الذي رحل من الأندلس إلى مصر ثلاث مرات . وتوفى في الإسكندرية سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م أثناء رحلته الأخيرة . وقدم لنا ابن جبير قبساً من المعلومات عن المدن التجارية في مصر ، وطرق التجارة بها ، وكذلك عن بعض المدن الصناعية التي يكثر فيها السكان من أهل الذمة . كما ألقى الضوء على كثير من نواحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية في مصر في ذلك العصر .

ثانياً : المصادر التاريخية :

ويأتي في مقدمتها المصادر النصرانية ومنها :

١ - كتاب « تاريخ » أو « صلة تاريخ أوتيخا » المؤلفه النصراني يحيى بن سعيد الأنطاكى المتوفى سنة ٤٥٨ هـ / ١٠٦٦ م . ويعتبر هذا المصدر من أهم المصادر التي اعتمدت عليها في هذا البحث . إذ أن مؤلفه المعاصر للخلفاء الفاطميين الأوائل ، تناول تاريخ الأقباط وكنيستهم باستفاضة ، ووقف عند سنة ٤٤٥ هـ / ١٠٣٣ م . وأمدنا بمادة تاريخية غزيرة خاصة فيما يتعلق بأحوال النصارى في دولة الفاطميين أيام الخليفة المعز لدين الله وابنه العزيز بالله ، والقى الضوء على كبار موظفى الدولة من اليهود والنصارى ، وسياسة التسامح التي سار عليها كل من الخليفتين تجاه أهل الذمة بوجه عام ، هذا إلى جانب المراسيم والسبيلات والمنشورات التي منحها الحاكم بأمر الله عند عودته إلى سياسة التسامح الدينى إزاء أهل الذمة ، ومنها نص سجله لرهبان دير القصدير ، ومنشوره لنقول بطريرك بيت المقدس ، ومرسوم العفو الشامل الذى منحه لنصارى مصر ، وكلها صدرت قبيل اختفاء الحاكم بأمر الله فى شهر شوال سنة ٤١١ هـ . كما ألقى المصدر الضوء ساطعاً على كثير

من جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية لأهل الذمة . وعلاقة الفاطميين بالروم ، وأثر ذلك على المسيحيين .

٢ - كتاب « كنائس وأديرة مصر » المعروف « بتاريخ الشیخ أبو صالح الأرمنی » المتوفى سنة ٦٥٠ هـ / ١٢٠٨ م . وعندما زار أبو صالح الأرمني مصر بعد سقوط الدولة الفاطمية وشاهد أديرتها وكنائسها ، كتب سجلاً لهذه الكنائس والأديرة . وألقى الضوء على سياسة الخلفاء الفاطميين الدينية إزاء أهل الذمة ، و موقفهم من بناء و تعمير الكنائس والأديرة ، كما أمدنا ببعض المعلومات عن النشاط الزراعي والصناعي والتجماري لأهل الذمة وبخاصة رهبان الأديرة . علامة على أنه تناول علاقة مصر الفاطمية ببلاد النوبة المسيحية .

٣ - كتاب « تاريخ ابن الراهب » لأبي شاكر بطرس بن أبي الكرم بن المهدى المعروف بابن الراهب . الذى رسم شمامسا فى دير المقلقة بقسطنطينية مصر سنة ٦٦٩ هـ . وقد تناول المؤلف باسهاب سياسة العزى ل الدين الله إزاء النصارى ، و موقفه من رجال الكنيسة ، ورؤساء اليهود ، وأمدنا بمعلومات وفيرة عن سياسة التسامح الدينى فى عهد العزيز بالله ، كما تناول بالحديث بعض موظفى الدولة من أهل الذمة ، و موقف الخليفة الحاكم بأمر الله من نصارى مصر بوجه عام ، والقيود التى فرضها عليهم .

٤ - كتاب « تاريخ مختصر الدول » للأب غريغوريوس أبي الفرج المعروف بابن العبرى (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م) الذى يتعرض فيه لأحوال الدول ، بما فيها الدولة الفاطمية ، وقد استمد الباحث منه كثيراً من الحقائق حول علاقة الخلفاء الفاطميين الأوائل بكتاب موظفى دولتهم من أهل الذمة ، ووقف على أبعاد نفوذهم ومكانتهم فى قصر الخليفة . كما تناول سياسة التسامح الدينى إزاء أهل الذمة فى عهد العزيز بالله الفاطمى .

أما المصادر الإسلامية المطبوعة التى اعتمدت عليها فى هذا البحث فيأتى على رأسها :

١ - كتاب « ذيل تاريخ دمشق » لأبى يعلى حمزة بن القلانسى المتوفى فى سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م . وفيه قدم المؤلف عرضًا شائقاً وهاماً لسياسة الخلفاء الفاطميين فى بلاد الشام وعلاقتهم بالروم وأثر هذه السياسة على أهل الذمة فى مصر ، كما أنه تناول دور كبار موظفى الدولة من أهل الذمة فى تنفيذ سياسة الدولة داخلياً وخارجياً و موقف الخلفاء من هؤلاء الموظفين ، علاوة على تناوله لسياسة الخلفاء الفاطميين الدينية ازاء أهل الذمة .

٢ - كتاب « أخبار مصر » لابن ميسير المتوفى سنة ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م . ويعتبر واحداً من أغنى المصادر الإسلامية التي تناولت تاريخ الفاطميين فى مصر ، ويحتوى على كثير من أخبار الوزراء والوسطاء وكبار موظفى دولتهم من أهل الذمة . ونظرة المسلمين إلى هؤلاء الموظفين الذين سيطروا على دواوين الحكومة . كما تناول المصدر علاقات مصر ببيزنطة ، وأثر تلك العلاقات على أهل الذمة في الدولة الفاطمية .

٣ - وعندها ناتي إلى مؤلفات المقريزى (٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م) ، فان الباحث يقف على مادة غزيرة عن مصر فى عصر الفاطميين ، ربما لا يرد ذكرها فى كثير من المصادر . ففى مؤلفه « اتعاظ الحنفأ بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء » أخبار نادرة عن أهل الذمة فى مصر . ودورهم فى الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، والسياسة الدينية للفاطميين ازاءهم . كما يتعرض الكتاب لكثير من التفاصيل عن علاقة كبار رجال الدولة الذميين بقصور الخلافة ، والقيود التى فرضت عليهم من الناحيتين الاجتماعية والدينية ، وأمدنا أيضًا بمعلومات وفيرة عن العلاقات بين الفاطميين وببلاد الروم والتوبة والحبشة ، وأثر هذه العلاقات على المسيحيين فى مصر .

أما مؤلفه « الموعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والأنوار » فهو سجل شامل لجغرافية مصر وأحوالها الزراعية والصناعية والمالية

والإدارية ، ومنها استقى الباحث دور أهل الذمة ونشاطهم في كل مجالات الحياة في المجتمع المصري . كما تناول المقريزى في هذا الكتاب ذكر طوائف أهل الذمة من اليهود والنصارى ، وأعيادهم ومواسيمهم ، ومظاهر الاحتفال بها ، علاوة على التفاصيل الكثيرة عن كنائس وأديرة النصارى ، وكنائس اليهود ، وأحيائهم .

٤ - أما كتاب « صبح الأعشى في صناعة الأنسا » للقلقشندى المتوفى سنة ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م ، وكتاب « المختصر في أخبار البشر » لأبي الفدا المتوفى سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م ، وكتاب « تنتمة المختصر في أخبار البشر » لابن الوردى المتوفى سنة ٧٥٠ هـ / ١٣٥٨ م . فقد أفادتنا في دراستنا لطوائف أهل الذمة وأعيادهم ومواسيمهم .

وبالإضافة إلى هذه المصادر الأصلية ، الخطية منها والمطبوعة ، والمسيحية منها والاسلامية ، فقد اعتمدت على كثير من المراجع الحديثة التي تناولت تاريخ مصر في العصر الفاطمي ، ويجد القارئ ثباتا بهذه المراجع في نهاية هذا البحث .

الباب الأول

أهل الذمة والوظائف العامة

سياسة الخلفاء الفاطميين

ازاء الموظفين من أهل الذمة

استخدم الفاطميون منذ مجئهم الى مصر أهل الذمة في ادارة شئون البلاد ، واكتنلت دواوين الحكومة في العصر الفاطمي الأول بالموظفين من اليهود والنصارى الذين شغلوا وظائف الدولة العليا ، فكان منهم الوزراء والوسطاء ورؤساء الدواوين ، والكتاب ، وتغلغل الموظفون من أهل الذمة – وبخاصة الأقباط في كافة الدواوين المالية والادارية . وقد حرص الخلفاء الفاطميين على الاستعانت بهم لمهاراتهم في تلك الوظائف ، اذ كانوا أكثر معرفة وخبرة بجهازية الخارج والجزية والضرائب وكل ما يتعلق بالأموال ، كما كان معظم أطباء قصور الخلافة من أهل الذمة لبراعتهم في علوم الطب وتركيب الدواء لقد كان انتقال الخلافة في مصر الى الفاطميين في صالح أهل الذمة ، اذ أنعم الفاطميون على الموظفين من أهل الذمة وأغدقوا عليهم للحاجة الى خبرتهم في ادارة الدواوين الحكومية كما هي الخلفاء الفاطميون لأهل الذمة فترة من التسامح الدينى فاقت كل ما سبقها من عهود ، وكان تسامح الفاطميين مع أهل الذمة من أهم العوامل التى ساعدتهم على تبوء أرقى وظائف الدولة والسيطرة على الدواوين فى العصر الفاطمى الأول .

ولا يرجع هذا الموقف من جانب الخلفاء الفاطميين ازاء أهل الذمة الى سياسة التسامح الديني ، أو الى صلة المصاهرة معهم فيحسب - كما في حالة العزيز بالله الفاطمي - ، أو الى حاجة الدولة الى خبرة أهل الذمة وعلمهم ، وانما يرجع ذلك في المقام الأول الى أن الفاطميين وجدوا أنفسهم في محيط عدائٍ من أهل السنة وهم الأغلبية الكبرى من المصريين ، ولذلك لم يكن هناك مناص من أن يعتمدوا على أهل الذمة الذين كانوا يشكلون أقلية نشيطة تقدر بحوالى ثلث الشعب المصري . الا أنهم بوصفهم خلفاء للمسلمين كان عليهم أن يجاروا الرأي العام الإسلامي وأن يعملوا – كما فعل الحاكم بأمر الله – على كسب جماح أهل الذمة كلما استفحلا أمرهم وكلما أصبحوا يشكلون خطراً على مصالح الرعايا المسلمين ، هذا ومن جهة أخرى فقد تفاني البعض من أهل الذمة في خدمة الخلفاء الفاطميين بصورة تدعو إلى الاعجاب والتقدير .

وقد أصدر الخليفة المعز لدين الله الفاطمي بمجرد وصوله إلى القاهرة في رمضان سنة ٣٦٢ هـ / يونية سنة ٩٧٣ م واتخاذها مقراً لخلافته ، عفوا شاملاً عن الذين كان قد اعتقلهم جوهر وخلي سبيلهم (١) . ويروى مؤلف « سير الآباء البطاركة » كثيراً من الواقع الحميد التي تدل على تسامح المعز مع النصارى ، وحسن علاقته باليهود ، وصداقته للكبار رجال الدولة من أهل الذمة الذين كانوا يشكلون غالبية موظفي الدواوين (٢) ، فقد عهد المعز إلى رجل الدولة البارز يعقوب بن كلس اليهودي الأصل ، وعسليوج بن الحسن في رابع عشر المحرم سنة ٣٦٣ هـ بادارة كافة شئون مصر

(١) الانطاكي : تاريخ ، أو صلة كتاب أوثيقا ، المسماى : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، تحقيق شيخو ، بيروت ١٩٠٩ م ، ص ١٣٩ .

(٢) الآبا ميخائيل : ذيل سير الآباء البطاركة ، الجزء الثالث ، مخطوط بدار الكتب برقم ٦٤٢٤ ح ، ورقة ٤١ .

المالية (٣) ، وهم المذان وضعا النظام المالي الجديد الذى يتفق
وسياسة الفاطميين المذهبية (٤) ، كما اختص ابن كلس بديوان
ال الخليفة المعز (٥) ، فأصبح وهو الرجل الحديث العهد بالاسلام
أكثر المقربين الى قصر الخلافة .

كما اتخد المعز منهم أطباء الخاص وقربهم اليه ، فقد كان
موسى بن العازار الاسرائيلي الطبيب ، وابنه اسحق بن موسى ،
 وأنجوه اسماعيل بن موسى والابن يعقوب بن اسحق من أطباء الخاص
بقصر المعز ، وعندما ألقهم المعز بخدمته لم يشترط عليهم اعتناق
الاسلام ، ويدرك ابن أبي أصبيعة أن المعز قد حزن حزنا شديدا
لوفاة اسحق بن موسى الطبيب في صفر سنة ٣٦٣ هـ لمنزلته وحسن
كتاباته (٦) .

وهكذا كان الموظفون من أهل الذمة في خلافة المعز يلقون
التقدير والتكرير كما شملتهم برعايته وعطّفه وتسامحه .

فإذا ما انتقلنا إلى خلافة العزيز بالله ٣٦٥ هـ - ٣٨٦ هـ /
٩٧٥ - ٩٩٦ م نرى مبالغة العزيز في اظهار عطفه على أهل الذمة
وتسامحه معهم وبخاصة النصارى وفي استخدامهم في وظائف الدولة
العليا . فكان يعقوب بن كلس ، اليهودي الأصل ، أول وزراء الدولة
الفاطمية في مصر وأعظمهم شأنا . تفاني في خدمة الفاطميين ، وقام
بعدة اصلاحات ادارية ومالية هامة وأسهم بدور كبير في نشر

(٢) المقريزى : الموعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ، طبعة بولاق ١٢٧٠ ج ٢ ، ص ٢٦٨

(٤) حسن ابراهيم : المعز ل الدين الله الفاطمي ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ١٧٣ .

(٥) المقريزى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤ .

(٦) ابن أبي أصبيعة : عيون الانباء في طبقات الاطباء ، تحقيق د . نزار رضا بيروت ١٩٦٥ ، ص ٥٤٥ .

المذهب الشيعي وتنشيط الحركة العلمية .^(٧) ، وكان له دوره البارز في رسم السياسة الخارجية للدولة الفاطمية إبان فترة وزارته ، فحظى عند العزيز بالمنزلة السامية والدرجة الرفيعة . وليس أدل على حسن علاقته بال الخليفة العزيز بالله من هذا المشهد الرائع ، عندما مرض ابن كلس مرضه الأخير ، وزاره العزيز وقال له : « يا يعقوب . وددت لو تباع فأبتاباك بملكى ، أو تفتدى فأفتديك ، فهل من حاجة توصى بها ؟ » . فيكتى الوزير وقبل يد الخليفة ووضعها على عينيه وقال له : « أما فيما يخصنى فلا ، فإنك أرعي لحقى من أن أسترجعك ، وأرأف بمخلفى من أن أوصيك ولكنني أقول لك فيما يتعلق بدولتك : سالم الروم ما سالموك ، واقنع من الحمدانية بالدعوة والسكنة ، ولا تبقي على المفرج بن دغفل ابن العجاج متى أمكنت فيه الفرصة »^(٨) .

وكان ابن كلس مخلصا لصاحبه على حد تعبير أبي شجاع « ولم يشغله ما كان فيه من فراق دنياه عن نصح صاحبه »^(٩) .

ومع أن العزيز بالله شمل أهل الذمة بالرعاية الكاملة فإنه اضطر في بعض الأحيان أن يفرض نوعا من الرقابة على كبار موظفي الدولة منهم ، وبخاصة في الفترة التي تولى فيها الوساطة عيسى ابن نسطورس النصراني ، الذي انحاز إلى بنى ملته من نصارى مصر ، والتي تولى فيها منشا بن إبراهيم اليهودي في الشام ، إذ سلك مسلك عيسى بن نسطورس في ظلم المسلمين والبالغة في فرض الضرائب عليهم .

(٧) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٥٠

(٨) أبو شجاع : ذيل تجارب الأمم ، طبعة مصر ١٩١٦ م ، ص ١٨٦ .

(٩) أبو شجاع : نفس المصدر ونفس الصفحة .

وتحت تأثير الرأي العام الإسلامي ، والسيطرة الذى عم المسلمين واحتاجهم على سياسة الموظفين من أهل النمة ، وعلى ظاهرة تنصير الدواوين فى مصر وتهويتها فى الشام ، تدخل العزيز بالله لاعادة الأمور الى نصابها حفاظا على سلطان الخليفة وهيبتها أمام الجماهير ، فاصدر الأمر بعزلهما ، ومصادرة أموالهما وممتلكاتهما . ولما أعاد العزيز بالله عيسى بن نسطورس الى منصب الوساطة بناء على تدخل أخيه سنت الملك ، اشترط عليه أن يعين المسلمين فى دواوين الحكومة .^(١٠)

وبلغ كثیر من الأطباء الذميين منزلة كبيرة عند الخليفة العزيز بالله . وفي رسالته الى منصور بن مقشر طبيب قصر الخليفة ما يلقى الضوء على مكانة هؤلاء الأطباء الذميين عند الخلفاء . ففي سنة ٣٨٥ هـ / ٩٩٥ م مرض ابن مقشر ، وتأخر العزيز بالله عن زيارته لمرض أصابه ، فلما تمثل للشفاء كتب بخطه الى طبيبه هذه الرسالة « بسم الله الرحمن الرحيم . طببينا : سلم الله . سلم الله الطبيب ، وأتم النعمة عليه ، وصلت اليها البشرة بما وهبنا الله من عافية الطبيب وبرءه ، والله العظيم لقد عدل عندنا ما رزقناه من الصحة في جسمنا ، قسم الله عليك النعمة ، وكمل لنا صحتك وجعل بها ، ولا أشمت بنا فيك عدوا ولا حاسدا ، ورد كيد من يريده الكيد في نحره ، وابتلاه بما لا طاقة له بعد الكفاية فيك ، واقالتك من العترة ، ورجوعك إلى أفضل ما عودتك من صحة الجسم وطيبة النفس ، وخفض العيش بحوله وقوته ، والسلام عليك وصل الله على خيرته من خلقه محمد النبي وآلله وسلم تسليما^(١١) .

(١٠) ابن الفلاسي : ذيل تاريخ دمشق ، طبعة بيروت ١٩٠٨ ، ص ٣٣ .

(-) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان في تاريخ الاعيان ، مخطوط بدار الكتب الجزء الحادى عشر ، برقم ٥٥١ تاريخ ١٥٤ .

(١١) القنطري : تاريخ الحكام ، طبعة ليزج ١٩٠٣ م ، ص ٣٣٤ ، ٣٣٥ .

والحقيقة أن نفوذ النصارى واليهود بلغ الذروة في مصر في خلافة العزيز بالله . فقد استولى الوزراء والوسطاء ، ورؤساء الدواوين ، والكتاب الديميين على معظم وظائف الدولة وأعمالها ، واستأثروا بمعظم السلطة والنفوذ نتيجة لهذا التسامح المدقق (١٢) .

وهنا علينا أن نتساءل ، لماذا كان هذا التسامح المدقق ازاء أهل الذمة ؟

لقد اشتهر العزيز بالله بأنه كان جميلاً السيرة ، حسن السياسة ، شديد الاهتمام بمصالح الرعية (١٣) . وبشهاده مؤرخ نصراني « كان العزيز يحب العفو ويستعمله » (١٤) . كما عرف بعطشه الشديد على أهل الذمة (١٥) .

وفضلاً عن ذلك ، فقد كان للنصارى بوجه خاص لدى الخليفة العزيز بالله نصير كبير وسند قوى ، كان يسارع إلى نجدهم عندما تطالب الرعية بمحاسبتهم على مظالمهم ، أو عندما يتصدى الخليفة للحد من نفوذهم .

هذا النصير الكبير وهذا السند القوى كان يتمثل في زوجة العزيز بالله النصرانية وابنته سنت الملك ، ذلك أن العزيز بالله تزوج من جارية رومية نصرانية – على المذهب الملاكمي – وقد صار لهذه الزوجة من السلطان والنفوذ بقصر الخلافة ما مكنتها من الوقوف دائمًا إلى جانب النصارى (١٦) ، واستطاعت هذه الزوجة أن تؤثر

(١٢) عنان : الحاكم بأمر الله ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٨١ .

(١٣) ابن القلانى : المصادر السابق ، ص ٤٤ .

(١٤) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، بيروت ١٨٩٠ م . ص ٣١٠ .

(١٥) بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، بيروت ١٩٥٤ م ، ج ٢ ، ص ١٠٤ .

(١٦) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٣ ، ورقة ٥١ .

– ابن العميد : تاريخ المسلمين ، ليدن ١٦٢٥ م ، ص ٢٤٧ .

فى سياسة الخليفة العزيز بالله نحوهم ، وأن ترفع أخويها وقربهما من الخليفة . ففى شهر رمضان سنة ٣٧٥ هـ / ٩٨٥ م أصدر العزيز بالله قرارا بتعيين أخيها أريستس بطريركا على بيت المقدس ، وقد ظل فى منصبه هذا عشرين عاما وشارك فى المفاوضات الدبلوماسية بين الروم والفواطم ، بينما أمر بتعيين أخيه أرسانيوس (أرسانيوس) مطرانا على القاهرة ، ثم ما لبث أن أصبح بطريركا على الإسكندرية فى سنة ٣٩٠ هـ / ١٠٠٠ م (١٧) .

وكان لهذه المصاهرة تأثيرها الكبير فى سياسة العزيز بالله نحو النصارى ، ومبادرته فى التسامح معهم والاعطف عليهم ، وبالتالي فى فتح باب الوظائف العليا فى الدولة أمام أهل الذمة .

وواصلت هذا الدور ابنته سُتّ الملك (ت ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م) . وكان العزيز يحبها حباً شديداً ، « ولا يرد لها قولًا » (١٨) ، فكان لها دورها البارز فى التأثير على سياسة أبيها نحو النصارى ، كما كان لها دورها الخطير فى الأحداث الهامة ومجريات الأمور فى البلاد . فقد وقفت إلى جانب عيسى بن نسطورس تسانده وتدافع عنه بعد أن عزله العزيز بالله من منصبه وصادره ، وقبل العزيز بالله وساطتها وعفّى عنه ، وأعاده إلى الوساطة بعد أن تعهد عيسى بتنفيذ السياسة التى رسمها له (١٩) .

وكيفما كان الأمر فقد كان للسياسة السمححة والرشيدة التى

(١٧) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٦٤ ، من ١٩٧ .

- الآتيا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٥١ .

(١٨) ابن القلائى : المصدر السابق ، ص ٢٣ .

(١٩) أبو شجاع : المصدر السابق ، ص ١٨٧ .

- ابن القلائى : المصدر السابق ، ص ٣٣ .

انتيجها العزيز بالله الفاطمي ، أثرها الطيب في اكتساب محبة المصريين بوجه عام على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم (٢٠) .

أما في خلافة الحاكم بأمر الله ٣٨٦ - ٩٩٦ هـ - ١٠٢٠ م فان المصادر التاريخية تجمع على أن غالبية رجال الدواوين وموظفي الحكومة ، كانوا من أهل الذمة . فبشهاده الانطاكي « كان سائر كتابه وأصحاب خدمته وأطباء مملكته نصارى إلا نفريسي » (٢١) . كما اتسمت سياسة الحاكم بأمر الله مع جميع موظفي الدولة بروح العدالة ، مع الصراامة في توقيع عقوبات بالغة القسوة على المخالفين ، ويعطينا الانطاكي صورة واضحة للعلاقة بين الحاكم بأمر الله ورجال دولته بقوله أن الحاكم « أظهر من العدل ما لم يسمع بمثله ، ولعمري أن أهل مملكته لم يزالوا في أيامه آمنين على أموالهم . غير مطمئنين على نفوسهم ولم تتمد يده قط إلى أخذ مال أحد ، بل كان له جود عظيم وعطايا جزيلة ، وصلات واسعة ، ولقد قتل من رؤسائه دولته وأهل مملكته ومن لهم الأموال العظيمة ، ما لا يقع عليه احساء لكثرته ، فلم يتعرض لأخذ مال أحد منهم لنفسه » (٢٢) .

ومن الأمثلة على ذلك أن الحاكم بأمر الله أعطى ثقته لفهم ابن ابراهيم النصراني ، وقدمه على سائر الكتاب ، وأمرهم بطاعته ، وأكد لهم أثناء اجتماعه بهم أن فهد موضع ثقته وتقديره ، غير أنه ما لبث أن قتله بسبب ميله إلى النصارى ، واستناده مناصب الدولة إليهم ، وازيد ياد نفوذهم ، وسيطرتهم على دواوين الحكومة ، وتعسفهم

(٢٠) حسن ابراهيم : المجمل في التاريخ المصري ، الطبعة الأولى ١٩٤٢ م ، من ١٦٢ .

(٢١) الانطاكي : المصدر السابق ، من ٢٠٣ .

(٢٢) الانطاكي : نفس المصدر ، من ٢٠٦ .

وظلمهم لل المسلمين ، علاوة على سيرته السيئة ، واحتلاسه لأموال الدولة ، واقتطاعه لنفسه ، فكان صنيداً سهلاً أمام منافسيه ابن العداس ، وابن محمد النحوي ، اللذين دسا له عند الحاكم موضعين الأخطاء التي ارتكبها فهد ، مما دعى الحاكم بأمر الله إلى عزله وقتلته في ثامن من جمادى الآخرة سنة ٣٩٣ هـ (٢٢) .

أما ابن عبدون الذي قلل الحاكم منصب الوساطة ثم صرفه عنها في رابع المحرم سنة ٤٠١ هـ وقتلته بعد مدة قصيرة ، فقد تعرض لنفس الظروف التي تعرض لها فهد بن إبراهيم ، وارتكب نفس الأخطاء ، فضلاً عن الخلافات التي وقعت بينه وبين الحسين ابن جوهر الذي حرض الحاكم بأمر الله عليه (٢٤) .

وإذا كان الحاكم بأمر الله قد أخذ عليه اضطهاده للنصارى وقوسوته على أهل الذمة بوجه عام ، وبصورة لم يسبق لها مثيل (٢٥) ، فإن النظرة الفاحصة لوقفه من موظفيه تسمح لنا باعادة النظر في هذا الرأي .

ذلك أن الحاكم بأمر الله قد تفاني في خدمة الدولة والرعاية ، وأحskم رقابته على وسطائه وكبار رجال الدواوين ، كما حاسب – وهو رجل الدولة القوى – رجال دولته من مسلمين وذميين حساباً عسيراً .

من ذلك أنه في سنة ٣٩٨ هـ / ١٠٠٧ م طالب منصور ابن عبدون النصراوي وكان يتولى ديوان الشام ، ومعه جماعة من كتاب الدواوين في مصر من مسلمين وذميين على حد سواء ، بتقديمه

(٢٢) ابن القلansى : المصدر السابق ، ص ٥٩

- المقرىنى : خطط ، ج ٢ ، هـ ٣٠ .

(٢٤) ابن القلansى : المصدر السابق ، ص ٦٢

(٢٥) عنان : المصدر السابق ، هـ ٨٩ .

حساب ما كانوا يتولونه من أعمال ، ثم صادر أموال بعضهم وأودعهم السجنون . غير أن ابن عبادون ما لبث أن نجح في اقناعه بالافراج عن بعضهم . ولكن في سنة ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م عادت الشنائع السيئة وكثرت حول الموظفين الذين ، فأصابهم الحاكم بأمر الله يلتمسون الأمان ، ويسألونه العفو والصفح ، فاستقبلهم رسول الحاكم بأمر الله ، ورد عليهم « ردًا جميلاً » ، أعاد الثقة والأطمئنان إلى نفوسهم (٢٦) .

وهناك من الأدلة ما يؤكد أن الحاكم بأمر الله كان حازما في سياساته الإدارية ، ابتناء تحقيق العدالة ، وحرصا على انتظام العمل بالدواوين ، وليس بداعم التعصب . فالحاكم لم يقتل فهد ابن ابراهيم لكونه نصريانيا ، ولكن قتله بسبب الأخطاء التي ارتكبها . كما أمر بقتل أبي غالب - آخر فهد - متولى ديوان النفقات لظلمه وسوء تصرفه ، ومع ذلك فإن الحاكم بأمر الله أرسل في طلب أولاد فهد وخلع عليهم ، وكتب لهم سجل أمان بحمايتهم وعدم التعرض لقصورهم وأموالهم (٢٧) .

واذا كان الحاكم بأمر الله قد قبض على كتاب الدواوين من النصارى واعتقلهم عقب مقتل فهد - فان أبا الفتح منصور بن مبشر الطبيب - وهو من المقربين إلى الحاكم - قد توسيط للإفراج عنهم ، فاطلق سراحهم بعد أسبوع من القبض عليهم ، وعاد كل واحد منهم إلى وظيفته (٢٨) .

(٢٦) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٩٤ ، ص ١٩٦ .

(٢٧) ابن القلانى : المصدر السابق ، ص ٥٩ .

(٢٨) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٨٥ ، ص ١٨٦ .

- ابن ظافر : أخبار الدول المنقطعة . مخطوط بدار الكتب بالقاهرة رقم ٨٩٠ تاريخ ، ورقة ٦٦ .

وهذا الحادث يدل على أن ما فعله الحاكم بأمر الله لا ي Undo أن يكون اجراء وقائيا ، كثيرا ما كان يتخد أثناء الأزمات من هذا القبيل ، خشية وقوع اضطرابات لا يحمد عقباها وحفظا على أموال الدولة من الضياع أو التهرب . ولقد اتخد الحاكم بأمر الله مثل هذا الاجراء بعد مقتل أبي عبد الله الحسين بن طاهر ابن الوزان (ت جمادى الآخرى سنة ٤٥٠ هـ) ، اذ أحضر الكتاب ورؤسائه الدواعيين ، وسألهم عما يتولاه كل منهم ، تم أمرهم بالعودة الى وظائفهم والتفاني في عملهم (٢٩) .

ويعلق ستانلى لين بول على تعرض بعض كبار موظفى الدولة من أهل الذمة للرقابة الصارمة ، وقصوة الحاكم بأمر الله فى توقيع العقوبات عليهم بقوله : « ان المسلمين فى الوقت نفسه لم يكن حالهم بأحسن من حال هؤلاء ، فقد كان الوزراء سواء منهم المسلمون والمسيحيون يقتلون ويعدمون بلا تفرقة أو تمييز » (٣٠) .

وذكر ابن القلansى أن أحد النصارى العاملين بخدمة ست الملك - وهو من المقربين إليها - كتب رسالة يستصرخها ، ويشكرو لها ما نزل بالناس من ظلم ، وما شمل الشام وأهله من تعسف ابن النحوى متولى ديوان الشام . فما ان وصلتها الرسالة ، حتى دخلت على أخيها الحاكم بأمر الله ، وأخبرته بفحوى الرسالة ، وما أصاب رعاياه بالشام ، فما كان منه الا أن أصدر أمره بقتل ابن النحوى (٣١) .

واذا كان الحاكم بأمر الله قد اتبع سياسة التسامح مع أهل الذمة فى بداية عهده متبعا سياسة أبيه - بسبب تأثير اخته ست

(٢٩) المقرينى : خطط ، ج ٢ ، ص ٤١٠ .

(٣٠) لين بول : سيرة القاهرة ، ترجمة د. حسن ابراهيم ، طبع بالقاهرة ، ١٩٥٠ ، ص ١٣٥ .

(٣١) ابن القلansى : المصدر السابق ، ص ٦٠ .

الملك التي كان يأخذ برأيها في بداية حكمه - ، فان كبار موظفي الدولة من أهل النعمة انتهزوا هذه السياسة السمحنة ، وجدوا في تعيين بنى ملتهم في الدوائر الحكومية ، لدرجة أن أصبح معظم موظفي الدولة من أهل النعمة ، وبذلك سيطروا على معظم الدوافعين ، مما لفت نظر الحاكم بأمر الله ودعاه إلى تسجيل أسماء سائرين المسلمين المتعطلين من المتصارفين والكتاب الذين يصلحون للخدمة في دوافع الحكومة ليعينهم في وظائف الدولة ومرافقها ، وذلك حتى لا يستأثر الموظفون النذميون بوظائف الدولة (٣٢) .

ومع ما عرف عن الحاكم بأمر الله من ميله إلى قتل المنحرفين من كبار موظفيه فإنه لم ينسى ملن تقانى في عمله أو خدم الدولة بخلاص وأمانة . فالشافعى زرعة بن عيسى بن نسطور النصراني كان واحداً من القلائل الذين افلتوا من غضبه لأنه « كان حسن السيرة ، محمود الطريقة ، محبوباً من سلطانه وسائر جنده وكتابه » (٣٣) . أما أبوه عيسى بن نسطور الذي قُبض عليه في المحرم سنة ٣٨٧ هـ ثم قُتل فقد كان ضحية ابن عمار (٣٤) .

كما كانت علاقة الحاكم بأمر الله بأطبائه من أهل النعمة علاقة ود وتقدير ، وتنطوى على التسامح ولا تعرف التعصب ، فكان لهم المنزلة السامية ، والمكانة الرفيعة ، ومنحهم العطايا وخلع عليهم ، وقربهم إليه ، وأدناهم من مجلسه كما زار البعض منهم أثناء مرضه ، وشحمل أولادهم برعايته ، وأطلق لهم الأموال وأجزل لهم العطايا (٣٥) .

(٣٢) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٠٣ .

(٣٣) الانطاكي : نفس المصدر ، ص ٢٠٢ .

(٣٤) ماجد : الحاكم بأمر الله ، الخليفة المقترى عليه ، القاهرة ١٩٥٩ م

ص ٥٦ .

(٣٥) القبطي : المصدر السابق ، ص ١٧٨ ، ٤٣٠ ، ٤٣٨ .

- ابن أبي أصبيحة : المصدر السابق ، ص ٥٤٤ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠ .

وإذ كان البعض يقول ان الحكم بأمر الله قبل اختفائه قد قضى على نفوذ النصارى فى مصر ، وأنهم أصبحوا فى ذلك الوقت متهملين فى الدولة (٣٦) ، فإنه يتضح من الأمثلة السابقة أنه كان يتصرف من مبدأ واحد ومنطق واحد هو : أن يرى رعایاهم وقد شملهم العدل ، وحرصه على أن يكون حكامه وموظفيه أكفاء يخلصون فى خدمة رعایاهم فلم يعزل هذا أو يقتل ذاك ، أو يعتقل أو يصادر أو يعاقب أحداً تعصباً إلى جنس أو دين . وهذا ما يؤكده مجموعة المراسيم والسجلات التي أصدرها قبيل اختفائه ، وكلها تفوح بروح التسامح والعطف على أهل الديمة وبخاصة نصارى مصر (٣٧) .

.. وما أن اختفى الحكم بأمر الله سنة ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م حتى بويع ولده الظاهر لاعزاز دين الله بالخلافة ، وكان صبياً في السابعة عشر من عمره ، ولذلك أخذ نفوذ عمه ست الملك سند النصارى القوى في مصر يظهر من جديد ويتجاوز ب بصورة واضحة ، إذ كانت هي المدبرة لشئون الدولة وسياستها في تلك الفترة (٣٨) .

وأستطيع الظاهر لاعزاز دين الله أن يكتسب عطف أهل الديمة ومحبتهم له ، فالقديس أصدر مرسوماً يوضح حسن رأيه ورضاه وتفته في جميع موظفي الدولة ويطمئنهم على بقاء كل واحد منهم في وظيفته ، غير أنه في نفس الوقت ناشد رجال الدواوين وموظفي الدولة توخي العدل والمسهر على خدمة الرعية ، والقضاء على الفساد ؛ غير أنه جد في اصلاح الجهاز الاداري للدولة ، فأجرى عملية تطهير في كل فروع الادارة الحكومية ، وأقصى العناصر الانتهازية وأصحاب

(٣٦) جاك تاجر : أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى سنة ١٩٢٢ م القاهرة سنة ١٩٥١ م ، ص ١٣٥ .

(٣٧) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٢٨-٢٣٢ .

(٣٨) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٣ ، ورقة ٦١ .

المصالح الشخصية ، وأبعد كل من شك في اخلاصه وولائه
للخلافة (٣٩) .

كما كان كبار موظفي الدولة ووزرائه وبخاصة المسلمين منهم على علاقة حسنة بأهل الذمة . فقد كان الوزير علي بن أحمد محباً للنصارى ، متسامحاً معهم ، وحسن العلاقة بأهل الذمة بوجه عام . ومحاجز القول فان خلافة الظاهر لاعزار دين الله اتسمت بالهدوء بسبب سياسة التسامح مع أهل الذمة ، وهذا ما عبر عنه مؤلف سير البيعة المقدسة بقوله : « وكان في أيامه هدوء وسلامة عظيمة ... وكان دين النصارى مستقيماً وأهله مكرمين » (٤٠) .

وفي خلافة ابنه المستنصر بالله ازداد نفوذ أهل الذمة . فقد سيطر النصارى على دواوين الدولة ، وقد عبر عن ذلك المؤلف السابق ذكره بقوله ان « جميع مقدمي المملكة والناظرین فى دواوينها وتدیر أمرها كلهم نصارى ، وهم الملأ النافذ أمرهم » (٤١) . كما ازداد نفوذ اليهود في قصر الخلافة ، وقد تمثل ذلك في أبي سعيد التستري - متولى ديوان أم الخليفة المستنصر وفي الدور الخطير الذي قام به في عزل الوزير الأنباري وتعيين الوزير الفلاحي . كما استبدل التستري بأمور الدولة وسياستها في وزارة الفلاحي ، مما دعا الفلاحي إلى تدبير مؤامرة لاغتياله سنة ٤٣٩ هـ / ١٠٤٧ م ، ولم ينج الفلاحي من غضب أم المستنصر ، فأُوعزت إلى ابنها بعله ، ثم بقتله بعد مدة قصيرة سنة

(٣٩) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٣٦-٢٣٥ .

- ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٨٣ .

(٤٠) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٣ .

(٤١) الأنبا ميخائيل : نفس المصدر ، ورقة ٧٥ .

٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م . كما كان لأبي نصر هارون التستري - أخ أبي سعيد - نفوذ كبير داخل قصر الخلافة ، فقد تدخل بصورة سافرة في شؤون الدولة ، الأمر الذي أدى إلى اتهامه بالانحياز إلى جانب أعداء الدولة من المرداسيين ، وإلى مصادرة أمواله ومعاقبته ، ثم بموته سنة ٤٤١ هـ / ١٠٤٩ م (٤٢) .

ولم يكن هذا آخر عهد أهل الذمة بالوزارة وتولي المناصب الكبرى ، فقد تولى أبو سعد ابراهيم بن سهل التستري الوزارة سنة ٤٥٦ هـ / ١٠٦٣ م ، ولكن ما لبث أن صرفة المستنصر عنها في السنة التالية (٤٣) .

ولقد تعاطف بعض ولاة الأقاليم في خلافة المستنصر مع أهل الذمة ، فوال القاهرة سنان بن كابر كان يحب النصارى ويعطف عليهم ، كما كان الأمير المؤيد حصن الدولة إلى الاسكندرية صديقاً لآقباط مصر ، محباً لهم ومهتماً بأمورهم (٤٤) .

ومجمل القول أن أهل الذمة تتمتعوا بنفوذ كبير في خلافة المستنصر ، وإذا كان قد أصابهم مكره أو تعرضوا لأذى ، فقد كان ذلك في فترة الاضطرابات التي عمت البلاد في النصف الثاني من عهده (٤٥) .

(٤٢) ابن ميسير : أخبار مصر ، تحقيق هنري ماسيه - القاهرة ١٩١٩ م ، الجزء الثاني ، ص ٣-١ .

(٤٣) ابن ميسير : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ١٥ .

(٤٤) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٧٧ .

(٤٥) الأنبا ميخائيل : نفس المصدر ، ج ٣ ، ورقة ٧٩ .

- جاك تاجر : المرجع السابق ، ص ١٤٠ .

والسطور التالية تلقى الضوء ساطعا على بعض من تولى من
أهل الدمة المناصب الكبرى في الدولة – وعلى رأسها منصبي الوزارة
والواسطة – كما توضح لنا أثر ذلك على سياسة الدولة ، ونتائجها
بالنسبة للمجتمع المصري بوجه عام خلال تلك الفترة من تاريخ
مصر .

الوزراء والوسطاء من أهل الذمة

يعقوب بن كلس :

يعتبر ابن كلس أبرز الوزراء الذين تقلدوا منصب الوزارة في مصر في العصر الفاطمي الأول . وهو من أهل الذمة الذين أسلمو ، ومن أعظمهم شأنا ، ولذلك اهتم بالحديث عنه والترجمة له كثير من المؤرخين .

فهو يعقوب بن يوسف بن ابراهيم بن هارون بن داود ابن كلس ، الوزير الكامل المكنى « بابي الفرج » ، ولد في بغداد ونشأ بها ، وتعلم الكتابة ومبادئ الحساب ، ثم انتقل مع أبيه من بغداد إلى الشام ليعمل بالتجارة (٤٦) ، ولما نزل الرملة سنة ٣٣١ هـ / ٩٤٢ م عمل وكيلًا للتجارة بها (٤٧) وعندما تراكمت عليه الديون وعجز عن سدادها هرب من الشام ، وسافر إلى مصر سنة ٣٣١ هـ / ٩٤٢ م وفي مصر اتصسل بكافور الأخشيدى ، حيث كان يبيعه

(٤٦) العينى : عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، الجزء ١٩ مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية برقم ١٥٨٤ تاريخ ، ورقة ٤١٨ .
- ابن العماد : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب - طبعة القاهرة سنة ١٢٥٥ ، الجزء الثالث ، من ١٧ .

Mann : The Jews in Egypt and Palestine Under Fatimid (٤٧)
Caliphs, Vol. I. p. 17.

ما يطلبه من البضائع والأمتعة ، ويحال بثمنها على ضياع مصر (٤٨) .

ولكثرة تردد ابن كلس على الريف اكتسب معرفة وخبرة بكل ما يتصل بحياة أهله ، وساعدته على ذلك ما اشتهر به من دهاء وذكاء مفرط ومهارة في معرفة الضياع ، ولذلك اتسعت تجاراته وذاع صيته ، وما لبث أن التحق بخدمة كافور وأصبح من المقربين إليه ، فعينه في ديوان الخاص ، ثم أسنده إليه مهمة الإشراف على النواحي المالية في دواوين الحكومة ومراجعة مستنداتها قبل عرضها عليه . وأظهر ابن كلس مقدرة فائقة في الادارة ، فأعجب به كافور لهارته وحسن سياسته وقال : « لو كان هذا مسلماً لصلح أن يكون وزيراً » (٤٩) .

بلغ ابن كلس ما قاله كافور عنه وتقديره له ، والتصريح بصلاحيته للوزارة لو كان مسلماً ، فاحضر من علمه شرائع الإسلام سراً ، وفي يوم الاثنين الثامن عشر من شعبان سنة ٣٥٦ هـ / ٩٦٦ م أشهر إسلامه ، ولزم الصلاة ، وواصل دراسته للدين الإسلامي والفقه والتشريع (٥٠) .

ويرى بعض المؤرخين أن ابن كلس أعلن إسلامه طمعاً في الوزارة وحباً في المنصب واشتياقاً إلى الولاية (٥١) . وهذا

(٤٨) التويري : نهاية الارب في فنون الادب ، مخطوطه مصورة بدار الكتب بالقاهرة برقم ٥٤٩ معارف عامة ، الجزء ٢٦ ، ورقة ٤٩ .

(٤٩) ابن القلاتسي : المصدر السابق ، ص ٣٢ .

- التويري : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٤٩ .

(٥٠) ابن خلكان : وقيمات الأعيان ، ج ٢٦ ، ج ٦ ، ص ٢٦ .
- المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤ .

(٥١) ابن القلاتسي : المصدر السابق ، ص ٣٢ .

- سبط بن الجوزى : المصدر السابق ، ج ١١ ، ورقة ١٥٢ .

ما نرجحه على الرغم من كثرة أعمال ابن كلس الدالة على حسن اسلامه والتي سوف تلقي الضوء عليها فيما بعد ..

وفي عهد كافور أصبح ابن كلس منافسا خطيرا للوزير أبي الفضل جعفر بن الفرات وزير كافور - المعروف بابن حنزا - ، وما أن توفي كافور سنة ٣٥٧ هـ / ٩٦٨ م حتى أصدر ابن حنزا بة أوامره بعزل ابن كلس ومصادرة أمواله والقبض عليه . غير أن ابن كلس استطاع بالرشوة وبمساعدة أعيانه أن يحصل على أمر بالافراج عنه ، فخرج من مصر قاصدا بلاد المغرب (٥٢) .

وسواء دخل ابن كلس المغرب واتصل بالمعز لدين الله الفاطمي قبل غزو مصر عن طريق بعض اليهود المقربين إليه والذين يخدمون بالباطل الفاطمي ، وعاونه في تدبير فتح مصر ، ثم جاء معه عند قدومه إلى مصر (٥٣) . أم أنه التقى بالقائد جوهر الصقلي أثناء سير الحملة من المغرب لفتح مصر فعاد معه (٥٤) ، فالحقيقة الثابتة أن ابن كلس منذ اتصاله بالمعز لدين الله كان على علاقة حسنة بدار الخلافة ، ويتمتع بشقيقه لكتفاته ولبلوغته في طاعته (٥٥) .

ويرى بعض المؤرخين أن يعقوب بن كلس تقلد الوزارة في عهد المعز لدين الله (٥٦) ، بينما ترى غالبية الكبار منهم أن ابن كلس

(٥١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج ٤ ، من ٥٥ .

- العيني : المصدر السابق ، ج ١٩ ، ورقة ٤١٩ .

(٥٢) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٤١ .

(٥٣) التویری : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٤٩ .

- العینی : المصدر السابق ، ورقة ٤٩ .

(٥٤) ابن ظافر : المصدر السابق ، ورقة ٤٩ .

(٥٥) نفس المصدر والصيغة .

- ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٤ ، من ٥٥ .

- القلقشندی : صبح الأعشی في صناعة الانشأ ، ج ٢ ، من ٣٥٧ .

قد تقلد الوزارة في عهد العزيز بالله (٥٧) ، الا انهم اختلفوا في تاريخ تقلده هذا المنصب وانقسموا الى فريقين :
 فريق يرى انه تقلد الوزارة العزيز بالله سنة ٣٦٥ هـ / ٩٧٥ م (٥٨) ، وفريق آخر يرى انه تقلدها في يوم الجمعة ثامن عشر رمضان سنة ٣٦٨ هـ (٥٩) .
 هذا بينما يحدد المقريزى اليوم الأول من المحرم سنة ٣٦٧ هـ
 تاريخاً لتقلده الوزارة (٦٠) .

والواقع ان ابن كلس منذ اتصاله بال الخليفة المعز قد تفاني في
 في خدمته وطاعته ، وفي رابع عشر المحرم سنة ٣٦٣ هـ « قلد المعز
 الخراج ، ووجوه الاعمال جمعها ، والمحسبة ، والمسواحل ،
 والأعشار والجوالى ، والأحباش ، والمواريث والشرطين ، وجميع
 ما ينضاف الى ذلك ، وما يطرأ في مصر وسائر الاعمال أبا الفرج
 يعقوب بن يوسف الوزير وعسلوج بن الحسن ، وكتب لهما بذلك
سجلًا قرئ يوم الجمعة على منبر جامع أحمد ابن طولون » (٦١) .

(٥٧) ابن القلانتى : (الذيل ، ص ٢٢) ، سبط بن الجوزى (مرآة الزمان ،
 ج ١١ ، ورقة ١٥٢) التبیرى (نهاية الارب ، ج ٢٦ ، ورقة ٤٩) ، المقريزى
 (الخطلط ، ج ٢ ، ص ٥) ، العینى (عقد الجمان ، ج ١٩ ، ورقة ٤١٩) ،
 أبو المحسن (النجوم ، ج ٤ ، ص ١٥٨) ، ابن ابيك (كنز الدرر ، ج ٦ ، ورقة
 ١١٤) ، وابن العماد (شدّرات الذهب ، ج ٣ ، ص ٩٧) .

(٥٨) ابن القلانتى : (الذيل ، ص ٢٢) ، سبط بن الجوزى (مرآة الزمان ،
 ج ١١ ورقة ١٥٢) أبو المحسن (النجوم ، ج ٤ ، ص ١٥٨) ، ابن ابيك كنز
 الدرر ، ج ٦ ، ورقة ١١٤ .

(٥٩) ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢٧ :

- التبیرى : المصدر السابق ج ٢٦ ، ورقة ٤٩ .

- العینى : المصدر السابق ج ١٩ ، ورقة ٤١٩ .

(٦٠) المقريزى : خطلط ، ج ٢ ، ص ٥ .

- المقريزى : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٢٦٨ .

(٦١) المقريزى : اعتقاده الحقائق بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء الجزء الاول ،
 تحقيق جمال الدين الشيال ، ص ١٤٤ ؛ ١٤٥٠ .

ولكن سيطرة ابن كلس على ادارة الدواوين ، وعظم منزلته في قصر الخلافة ، واقبال الناس عليه ، لم يترك مجالا للمؤرخين لا براز الدور الذى قام به عسليوج بن الحسن الذى شارك ابن كلس مسئولية الاشرف على الدواوين مدة خلافة المعز . كما أن استمرار ابن كلس على قمة الجهاز الحكومى فى الدولة بعد وفاة المعز كان من الأسباب التى جعلت بعض المؤرخين يعتقدون أن ابن كلس قد تقلد الوزارة فى عهد المعز .

· ومن هنا يتضح لنا ان ابن كلس لم يتقلد الوزارة فى عهد المعز ، اذ لم يقلد المعز الوزارة لأحد مدة خلافته ، وبذلك يكون ابن كلس أول من وزر للعزيز بالله فى أول المحرم سنة ٣٦٧ هـ / تاسع عشر أغسطس ٩٧٧ م وأول من خوطب بالوزارة فى عهد الفاطميين . ثم منحه العزيز بالله فى رمضان سنة ٣٦٨ هـ لقب « الوزير الأجل » ، وأمر ألا يخاطبه أحد ولا يكتبه الا به (٦٢) .

واشتهر ابن كلس بنجاح سياسته المالية ، اذ كان أول عمل قام به صبيحة تقلده الادارة المالية فى المحرم سنة ٣٦٣ هـ / أكتوبر ١٩٧٣ م ، هو اعلان المزاد عن الضياع والأراضي وسائر وجوه الأعمال التى تريده الحكومة الفاطمية أخذ خراجها عن طريق نظام التضمين أو الالتزام . وقد حررت العقود بالمبالغ المطلوبة على الأراضى التى شملها نظام التضمين وأسماء الضمان أو الملزمين الذين رسا عليهم المزاد (٦٣) .

كما أخذ ابن كلس فى اعتباره عدة أمور فى وضع سياسته المالية ، وهذه الأمور هي :

أولاً : العمل على زيادة ايرادات الدولة عن طريق المزاد لكل

(٦٢) المقريزى . الخطط ، ج ٢ ، من ٥ .

(٦٣) التویری : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٤٩ .

ما تزيد الحكومة تضمينه ، ليتمكن من الحصول على أعلى حصيلة للخروج متبعا نظام القبالت (٦٤) أو الالتزامات . وهو النظام المعول به في أنحاء الدولة (٦٥) .

ثانيا : زيادة عدد الضياع المتروحة للالتزام والقبالت في المزاد العلني (٦٦) .

ثالثا : تحديد وتقدير الضرائب للمتقبلين والملتزمين والضمان ، وكذلك ما يصرف على الأراضي وتطهير وحرق الترع واصلاح الجسور حتى لا يتعرض أحد للتعسف والظلم ، وتأكيداً لذلك كان ينظر فيما يقدم من شكاوى (٦٧) .

رابعا : التشدد في مطالبة المالكين والمتقبلين والعمال لتسوية التزاماتهم وتحصيل ما لديهم من مبالغ متأخرة وهي ما تسمى بالبواقي (٦٨) ونتيجة لهذه السياسة المالية زادت ايرادات الدولة زيادة كبيرة ، وبلغ جملة خراجها في سنة ٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م أربعة ملايين دينار (٦٩) وتحدثنا بعض المصادر أن ما تم تحصيله من أموال الخراج في يوم واحد من تنيس ودمياط والأشمونيين أكثر من مائتي ألف دينار وعشرين ألف دينار ، ورغم أن هذا المبلغ في تقديره ، الا أن المقريزى سيسئنكر هذه السياسة المشددة في

(٦٤) خلاصة هذا النظام أن يتهدى شخص بجباية الضرائب في قرية أعدة قرى أو كور ، ويتم هذا العمل بطريق المزايدة وذلك لمدة أربع سنين ، البراوي حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين ، ٣٢ .

(٦٥) المقريزى : اقطاع الحنف ، ج ١ ، ص ١٤٦ .

(٦٦) المقريزى : نفس المصدر ، وتنس الصفحة ، ص ١٤٧ .

(٦٧) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٨٢-٨١ ، ج ٢ ، ص ٥ .

(٦٨) المقريزى : اقطاع الحنف ، ج ١ ، ص ١٤٥ .

(٦٩) البراوي : حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين ، ص ٢٣٤ .

تحصيل الخراج بقوله « وهذا شىء لم يسمح قط بمثله فى بلد » (٧٠)

على أن أهم اصلاحات ابن كليس المالية هو أنه اتخذ من الدينار المعزى العملة النقدية الجديدة – عملة رسمية بدلاً من الدينار الراضى (٧١) ، وهو العملة التي كانت متداولة قبل مجاهد الفاطميين إلى مصر . إذ امتنع ابن كليس وعسلوج ابن الحسن أن يأخذوا ضريبة الخراج بالدينار الراضى ، وارغما الناس على التعامل بالدينار المعزى ، فانحطت الدينار الراضى ، ونقصت قيمته بمقدار الربع وأكثر (٧٢) .

وهنا لابد أن نلقي الضوء على أبعاد هذا الاصلاح المالى الجديد ومغزى هذا الاصلاح الذى يعد في الوقت نفسه أساساً لسياسة ابن كليس المالية .

ذلك أنه منذ استيلاء جوهر الصقلى على مصر سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م حتى قيام سيده المعز سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م ، ظل الدينار الراضى هو العملة السائدة في مصر رغم أن جوهر سك الدينار الذهبية التي تحمل اسم الخليفة المعز ولقبه (٧٣) ، إذ كان الدينار الراضى آنذاك أكثر وزناً وأشد نقاء من الدينار المعزى (٧٤) . وعندما تولى ابن كليس الاشراف على الادارة المالية امتنع عنأخذ الدينار الراضى ورفض إلا أن تكون جبائية الخراج بالدينار المعزى ، وقدرت قيمة الدينار الراضى بخمسة عشر درهماً ، بينما صرف

(٧٠) المقرىزى : الخطط ، ج ٢ ، من ٥ .

— : اتعاظ الحتفا ، ج ١ ، من ١٤٧ .

(٧١) نسبة إلى الخليفة الراضى العباسى . (ماجد : ظهور دولة الفاطميين وسقوطهم في مصر ، من ٢٩٧) .

(٧٢) المقرىزى : اتعاظ الحتفا ، ج ١ ، من ١٤٦ .

(٧٣) عبد الرحمن فهمى : موسوعة التقويد العربية وعلم النبات ، الجزء الأول (مجرد السكة العربية) ، من ١٩٨ .

(٧٤) البراوى : المصدر السابق ، من ٣٠٣ .

الدينار المعزى بخمسة عشر درهما ونصف ، فاضطر الناس الى بيع الدينار الراضي بأقل من قيمته (٧٥) ، كما دخلت الحكومة الفاطمية نفسها في هذه المضاربة مشترية بالسعر الذي حدته (٧٦) .

وكان هذا الاصلاح المالي يرمي الى زيادة مالية الدولة عن طريق الربح الناتج من فرق الوزن بين الدينارين ، وذلك بسحب الدينار الراضية - الاكثر وزنا والأشد تقاؤة - واجبار الناس على بيعها واستبدالها بالدينار المعزى - الأقل وزنا - فخسر الناس من أموالهم الشيء الكثير (٧٧) .

واذا كان ابن كلس قد اتخذ من الدينار المعزى أساسا للتعامل التقدي ، فإنه أراد بذلك التأكيد على أهم مظاهر من مظاهر سيادة الدولة الفاطمية ، واستقلالها السياسي عن السيادة العباسية . وقد نجح ابن كلس في سحب هذه العملة التي كان لها قيمتها في نفوس الناس واجبارهم على التعامل بعملة جديدة تحمل صفة الدولة الفاطمية الشيعية المذهب (٧٨) .

ولقد هيأ ابن كلس كل فرص النجاح لادارة الدولة ، فبمجرد توليه الوزارة ، احكم سيطرته على الدواوين ، ونقل مقرها من قصر الخليفة ، واتخذ من داره مقرا لها ، ثم أنشأ ديوان « العزيزية » يختص بشئون الخليفة العزيز ، وعين بهذه الدواوين خيرة الكتاب والموظفين والجهابذة لادارتها وألحق بها خزانة للكسوة ، وخزانة للمال ، وخزانة للدفاتر ، وخزانة للأدوية وعين على رأس كل منها

(٧٥) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٥ .

(٧٦) عبد الرحمن فهمي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٠٢ .

(٧٧) المقريزى : اتعاظ الحنفاء ، ج ١ ، ص ١٤٦ .

- البراوى : المرجع السابق ، ص ٣٠٤ .

(٧٨) عبد الرحمن فهمي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٩٨ ، ٢٠٢ .

« ناظر » للاشراف عليها (٧٩) .

ورتب ابن كلس في داره العجائب ، وحضر داره بالحرس الخاص ، وزودها بالكتاب والأطباء والصيادلة ، وأفرد لكل طائفة من العلماء ، والأدباء والشعراء ، والفقهاء ، والمتكلمين ، وأرباب الصنائع والأماكن الخاصة بهم ، وأجرى على كل واحد منهم الأرزاق والمرتبات – كما أنشأ مجلساً للنظر فيما يعرض عليه من شكاوى وظلمات لفصل فيها ، وكان يبت فيها بنفسه ، ويعمل على فض المنازعات بين الخصوم (٨٠) .

وبذلك أصبح قصر ابن كلس مقراً لإدارة أقاليم الدولة في مصر والشام والخرميين وببلاد المغرب (٨١) ، وأناب عنه في تلك الأقاليم عملاً ، وعيوناً له يكتبون إليه بأخبار الولاية (٨٢) ، ليكون على دراية تامة بكل ما يدور في هذه الأقاليم من أحداث ، كما استفاد من صداقته ومصادرته للوزير ابن الفرات (ت ٣٩٠ هـ / ١٠٠٠ م) فعول عليه في محاسبة العمال (٨٣) .

وكان ابن كلس يجلس في داره – حيث دواوين الحكومة – يأمر وينهى ، وتعرض عليه كل أمور الدولة وسياستها للبت فيها (٨٤) ، فازداد نفوذه وعظمت مكانته .

(٧٩) المريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٥ .

(٨٠) _____ : نفس المصدر ، ص ٦ .

(٨١) _____ : نفس المصدر والجزء ، ص ٥ .

(٨٢) ابن القلنسى : المصدر السابق ، ص ٢٩ .

(٨٣) علي ابراهيم : تاريخ جوهر الصقلى ، ص ٧٨ .

(٨٤) المريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٥ .

لذا يرى بعض المؤرخين أن العزيز بالله فوض أمور الدولة إلى ابن كلس (٨٥) ، وأنه كان « متمكنًا من صاحبه » (٨٦) ، وأنه « غالب على العزيز » (٨٧) ، وأنه « لم يبق لأحد معه كلام » (٨٨) .

فما هي حقيقة الأمر ؟ ، هل كانت وزارة ابن كلس وزارة تفويض أم وزارة تنفيذ ؟

قبل الإجابة على هذا السؤال لابد من القاءزيد من الضوء على مكانة ابن كلس في دولة الفاطميين .

لقد تقلد ابن كلس الوزارة - كما سبق الاشارة - في أول المحرم سنة ٣٦٧ هـ ، ولقبه العزيز في رمضان سنة ٣٦٨ هـ / ابريل ٩٧٨ م بلقب « الوزير الأجل » وخلع عليه ، ثم أصدر مرسوماً في المحرم سنة ٣٧٣ هـ / يونيو ٩٨٣ م أن يبدأ في مخاطبته ومكتتبته باسمه على المكاتب النافذة عنه (٨٩) ، فكان يكتب عليها : « من يعقوب بن يوسف وزير أمير المؤمنين إلى فلان » (٩٠) . بل إن العزيز بالله رفع إلى وزيره رفعه سنة ٣٧٧ هـ / ٩٨٧ م يقول في أولها : « سلم الله الوزير وأبقى نعمته عليه » ولم يكن ذلك

(٨٥) أبو شجاع : المصدر السابق ، ص ١٨٥ ، ابن القلansi (الذيل ، ص ٢٢) .

سبط بن الجوزي (مرآة الزمان ، ج ١١ ، ورقة ١٥٢) ، ابن ظافر (أخبار الدول المقطعة ، ورقة ٥٤) ، التويري (نهاية الارب ، ج ٢٦ ، ورقة ٤٩) .

(٨٦) بيبرس الدودار : زيادة الكرة في تاريخ الهجرة ، الجزء السادس ، مخطوطة مصورة بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٤٠٢٧ ، ورقة ٢٧٣ .

(٨٧) سبط بن الجوزي : المصدر السابق ، ج ١١ ، ورقة ١٥٢ .

(٨٨) العيني : المصدر السابق ، ج ١٩ ، ورقة ٤١٩ .

(٨٩) المقريزي : الخطط ، ج ٢ ، من ٥ .

(٩٠) ابن ظافر : المصدر السابق ، ورقة ٥٤ .

الا تقديرًا للرجل ومكانته . وفضلاً عن ذلك فقد أقطعه الاقطاعات والضياع بمصر والشام ، وأذن بكتابته اسمه على الطراز تكريما له (٩١) . كما خطب وده الشعراء والأدباء ومنهم أبو الرقuman (ت ٣٩٩ هـ) صاحب المجنون والنواودر (٩٢) ، كما مدحه كبار رجال الدولة وقوادها ، فهذا جعفر بن فلاح – القائد المغربي – يكتب الى ابن كلس قائلا :

ول صديق ما مسني عدم مد نظرت عينه الى عامى
اعطنى وافقنى فلسم يكلفنى تقبيل كف له ولا قام (٩٣)

ومع تزايد نفوذه وعلو مكانته فقد اتخاذ ابن كلس سنة ٣٧٠ هـ / ٩٨٠ م موقعا عدائيا من الكتاميين – وهم الدعامة التي قامت عليها دولة الفاطميين – وربما كان ذلك بسبب حقدهم عليه لاستئثاره بالسلطة والنفوذ ، كما أنه عزل جوهر القائد من منصبه ، مما أدى الى مواجهة عنيفة بينه وبين الكتاميين الذين حاولوا اغتياله سنة ٣٧٣ هـ / ٩٨٣ م مما اضطره بعد ذلك بثلاث سنوات الى أن يسقط المغاربة ويستخدم الآتراك والأخشيدية (٩٤) .

ومع ما كان يتمتع به ابن كلس من قوة ونفوذ ومكانة سياسية ومهارة ادارية فإن الخليفة العزيز بالله كان يمتلك من القوة والارادة

(٩١) التويرى : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٤٩ .

(٩٢) الشعالي : يتيمة الدهر ، ج ١ ، ص ٢٢٦ ، ٤٢٧ .

– ابن العداد : المصدر السابق ، ج ٣ ، ١٥٥ .

(٩٣) ابو الحasan : الترجم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج ٤ ،
ص ٥٩ .

(٩٤) ببيرس الدوادر : المصدر السابق ، ج ٦ ، ورقة ٤٥٦ .

– التويرى : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٤٩ .

ما يستطيع به في الوقت المناسب وفي اللحظة الحاسمة أن يكتب
جماح وزيره ، ليصحح خطأ ارتكبه وليعيد الأمور إلى نصابها ،
بل ويجرده من جميع مناصبها وسلطاته وألقابه وثروته ويعتقله إذا
لزم الأمر .

وقد ذكر لنا المؤرخون أن العزيز بائله اتخذ موقفا حازما من
ابن كلس وهو في أوج عظمته . ففي سنة ٣٧٣ هـ / ٩٨٣ م توافقى
القائد التركي أفتاكين ، وكان مقررا من الخليفة العزيز باليه ، ومن
أحسن خدمه وحجابه ، مما دفعه إلى الترقي على الوزير ابن كلس
ومقاطعته ، فصارت بينهما العداوة والكراء ، وثارت شكوك
العزيز بالله حول ابن كلس ظنا منه أنه قد دس السم لأفتاكين ،
فاتهمه بذلك وأمر باعتقاله ، وعزله من منصبه في شوال سنة
٣٧٣ هـ (٩٥) ، ونقل الدواوين من دار الوزير إلى قصر الخلافة (٩٦) ،
ورد النظر في أمور الدولة إلى خير بن القاسم (٩٧) . ولم يكتفى
العزيز بكل ذلك ، بل صادر أموال ابن كلس وجرده من ألقابه ومعها
اسمه من الطراز (٩٨) .

ولبث ابن كلس في الاعتقال عدة شهور ، فارتبتكت أمور الدولة ،
وساءت أحوالها ، مما أضطر العزيز بالله إلى اطلاق سراحه سنة
٣٧٤ هـ / ٩٨٤ م . واعادته إلى الوزارة والخلعة عليه ، كما أصدر

(٩٥) ببريس الدوادار : المصدر السابق ، ج ٦ ، ورقة ٢٢٨ .

- النويري : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٤٨ ، ٤٩ .

(٩٦) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٦٤ .

(٩٧) المغريبي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٥ .

(٩٨) المغريبي : لتعظ الجنفا ، ج ١ ، ٢٦٢ .

- النويري : المصدر السابق ، ج ١٩ ، ورقة ٤٨ ، ٤٩ .

رسوماً برد ما أخذ من أمواله وزاد عليها ، وإعادة اسمه إلى الطراز ، وأن يتقدم الوزير موكب من عدة خيول تكريماً له (٩٩) .

ولا يعني هذا الحادث إلا التأكيد على أن الخلفاء الفاطميين الأوائل كانوا يمسكون بالسلطة العليا في أيديهم ، وإن الوزارة، مما كانت منزلتهم كانت لهم المكانة الثانية في الدولة ، كما يؤكّد أيضاً - رغم ما يذكره مؤرخو مصر الإسلامية من تعاظم نفوذ ابن كلس - أن الوزير كان يأمر بأمر الخليفة ، وينفذ سياساته وإن وزارة ابن كلس كانت وزارة تنفيذ ، ولم تكن وزارة تفريض . ولقد حرص ابن كلس على تنفيذ أوامر العزيز بالله وتقديم فروض الطاعة والولاء له ، كما حرص دائماً على أن يثبت له أنه عند حسن الظن به عندما كان يحاول أعداؤه الوشاية به والطعن فيه (١٠٠) .

ويعتبر ابن كلس أبرز رجال الدولة الفاطمية الذين قادوا الحركة العلمية في العصر الفاطمي الأول ، ومن القلائل الذين نافسوا أسرة الشعمن - التي أخذ رجالها على عاتقهم نشر المذهب الشيعي - في تدريس وارسال مبادئ الفقه الشيعي (١٠١) . فقد ألف ابن كلس كانت وزارة تنفيذ ، ولم تكن وزارة تفريض . ولقد حرص ابن صيف « الرسالة الوزيرية » ، وهي كتاب في الفقه الشيعي على المذهب الإسماعيلي ، روى فيه عن الأئمة الفاطميين خاصة ما سمعه من الخليفتين العز والعزيز ، وكان هذا الكتاب من المراجع التي يعتمدها علماء عليها يصدرونه من الفتوى والأحكام كما كان

(٩٩) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٦٤ .

- المقريزى : اعتاظ الحنف ، ج ١ ، ص ٢٦٢ .

(١٠٠) المقريزى : الخلسط ، ج ٢ ، ص ٦ .

(١٠١) ابن حجر العسقلانى : رفع الضر عن قضاة مصر ، القسم الثاني ، تحقيق د. حامد عبد المجيد (القاهرة ١٩٦٦) ، ص ٤٠٩ .

هذا المؤلف من المؤلفات الهمامة التي كان يدرسها الفقهاء (١٠٢) .

ولم يقتصر ابن كلس على مصنفه السابق الذكر ، إذ يذكر المقريزى أن من مؤلفاته كتاب فى القراءات ، وكتاب فى الأديان ، وكتاب فى آداب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكتاب فى علم الأبدان وصلاحها وهو مؤلف يقع فى ألف ورقة (١٠٣) .

كما عقد ابن كلس الندوات الخاصة فى كل يوم ثلاثة ، وكان يحضرها بنفسه مع الفقهاء والعلماء وأهل الرأى ، يتناظرون بين يديه ، وكان اذا جلس يقرأ كتابه فى الفقه الذى سمعه من الخليفتين المعز والعزيز التفت حول مجلسه الخاصة والعامة يستمعون إليه (١٠٤) .

ويذل ابن كلس قصارى جهده لنشر أفكاره ومؤلفاته . فكان يجلس فى يوم الجمعة ، ويقرأ بنفسه مصنفاته على الناس ليعطيها اهتماما خاصا ، وكان يحضر هذه المجالس القضاة والفقهاء والقراء وأصحاب الحديث والنحو والشهود فإذا فرغ من قراءته قام الشعراء يمدحونه (١٠٥) .

وقد شجع العزيز بالله هذه المجالس العلمية ، فأجرى لجماعة الفقهاء الذين يحضرون مجالس الوزير أرزاقا فى كل شهر تكفيهم (١٠٦) .

(١٠٢) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٧٣ .

- المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، من ٦ ، ٥ ، ٦ .

(١٠٣) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، من ٦ .

(١٠٤) ——— : نفس المصدر ، ج ٢ .

(١٠٥) ——— نفس المصدر .

(١٠٦) ——— : نفس المصدر ،

واتخذ ابن كلس من الجامع مراكز لنشر المعرفة الفاطمية ، ولذلك امتدت إليها يد الإصلاح والتنمير ، وتحت اشرافه ادخل كثيرا من التحسينات على جامع عمرو بالفسطاط ، الذي كان لا يزال إلى وقت مجىء الفاطميين من أهم مراكز الدراسة والتعليم والأشعاع الفكري في العالم الإسلامي . وفي هذا الجامع تناول الفقهاء والعلماء مؤلفات ابن كلس في الفقه والقراءات بالدراسة والشرح (١٠٧) . كما اتخذ من جامع المحاكم ، وهو الجامع الذي وضع ابن كلس أساسه سنة ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م مركزا آخر لنشر تعاليم المذهب الاسماعيلي ، واجتمع في ساحته الفقهاء للدراسة على غرار ما كان يجري بالجامع الأزهر (١٠٨) .

وفي العصر الفاطمي الأول اشتهر الجامع الأزهر كأعظم جامعة علمية إسلامية ، ويرجع الفضل في ذلك إلى الوزير العزيز بالله بناء على اقتراح ابن كلس - على تحويل الجامع الأزهر إلى جامعة علمية ومركز للدراسات الفقهية لكل ما يتعلق بالمذهب الاسماعيلي ، وعيّن بالأزهر خمسة وثلاثين من كبار الفقهاء ، وخصص لهم الرواتب الشهرية المجزية ، وأنشأ لهم دارا ملحقة بالجامع الأزهر لسكنهم ، وكانوا يعقدون به ندوتهم العلمية الأسبوعية عقب انتهاء صلاة الجمعة وحتى صلاة العصر . وبالغ العزيز في تكريم هؤلاء العلماء ، فبذل لهم العطايا ، ومنهم الخلع وأمر أن يركبوا البغال تقديرًا لهم ، ومع كل ما ناله هؤلاء العلماء من تكريم لم ينس ابن كلس أن يقسم لهم الصدقات والمنحة كل عام مكافأة وتشجيعا لهم (١٠٩) .

(١٠٧) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٦ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ .

- خطاب عطية : التعليم في العصر الفاطمي الأول (القاهرة ١٩٤٧ م)
ص ١٠١ ، ١٠٠ .

(١٠٨) المقريزى : المصدر السابق ، ص ٢٧٦ .

(١٠٩) ————— : نفس المصدر ، ص ٢٧١ .

وجالس ابن كلس أهل العلم والأدب ، وجمع بداره العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء والمتكلمين والنساخ والمشتغلين بتجليد الكتب والدفاتر ، وخصص لهم الرواتب الشهرية ، واهتم بزيادة إعداد الكتب والمؤلفات ، فعين كتاباً لنسخ الكتب ومراجعها مقابلتها وضبطها خشية التحريف وحفظها على التراث (١١٠) . كما زود ابن كلس هؤلاء العلماء بكل ما يحتاجون إليه ، فأسس مسجداً بداره وعين له القراء والأئمة للصلوة ، وأنشأ عدة مطابخ لخدمتهم ، ودعا إلى مائته أهل العلم ووجوه الكتاب ، وأقام مثل هذه المأدبة في شهر رمضان للفقهاء ووجوه الناس فإذا فرغوا من تناول الطعام كان يطاف عليهم بالطيب (١١١) .

ونافس الوزير ابن كلس قاضي القضاة على بن النعمان القبراني في نشر عقائد الفاطميين وفرض القيود على تصرفات القاضي وأحكامه الفقهية بالدرجة التي جعلت القاضي ابن النعمان يبطل الجلوس بالجامع لمبالغة الوزير في التقليل من شأنه وأهميته (١١٢) . كما وقف ابن كلس بالمرصاد وتصدى للعلماء والمؤلفات التي لا تنحو نحو شيعياً ، وكان نصيبي المؤلفين المعارضين لسياسة الموت أو الاعدام ، ونصيبي مؤلفاتهم الحرق أو الاهمال (١١٣) .

وإذا كان هنا موقفها خاطئنا بالنسبة للحركة العلمية وحرية الرأي والتعبير ، الا أنه من وجهة نظر ابن كلس كان اجراءه وقائياً

(١١٠) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٦٤ .

- القرذني : الخطط ، ج ٢ ، ص ٥ .

(١١١) المقريزى : نفس المصدر والصفحة .

(١١٢) ابن حجر : المصدر السابق ، ص ٤٠٩ .

(١١٣) الققلى : المصدر السابق ، ص ٢٨٥ .

- خطاب عطية : المصدر السابق ، ص ٩٦ .

الهدف منه حماية الفقه الشيعي الاسماعيلي الذى لم يكن قد استقرت قواعده بعد من أعداء الفاطميين .

وفوارة ابن كلس سنة ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م فقسدت الدولة الفاطمية واحداً من أخلص وزرائها البارزين الذين أسهموا بجهد وافر في رسم وتنفيذ سياستها الداخلية والخارجية .

عيسي بن نسطوروس :

لم يستتوذر العزيز بالله الفاطمي أحداً في الوزارة بعد ابن كلس ، وإنما أنشأ منصباً جديداً هو منصب « الوساطة » (١٤) .

ويأتي عيسي بن نسطوروس في مقدمة الذين تولوا منصب الوساطة في مصر في العصر الفاطمي الأول ، وعلى الرغم من أن المصادر التاريخية قد اختلفت في تاريخ تقليله الوساطة (١٥) ، إلا أنه من المرجح أن العزيز بالله قسم أعمال الوزير ابن كلس المتوفى في سنة ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م بين كبار رجال دولته ، وعهد باداراة الشئون المالية للبلاد إلى عيسي بن نسطوروس وهو نصراوی من أقباط مصر (١٦) ، ثم ما لبث أن رفعه إلى منصب الوساطة سنة ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م ، فأشرف على كل دواوين الدولة وأحکم سيطرته عليها ، « وخطب سائر الكتاب عن العزيز ، وخطبه سائر الأولياء وكافة

(١٤) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، من ٤٢٨ .

- أبي السرور البكري : عيون الأخبار وتذكرة الإيمار ، مخطوط بدار الكتب بالقاهرة برقم ٧٢ ، تاريخ بمكتبة مصطفى باشا ، ورقة ١٤٧ .

(١٥) القلقشندي : المصدر السابق ، ج ٢ ، من ٤٩٠ .

- العينى : المصدر السابق ، ج ١٩ ، ورقة ٤٢١ .

(١٦) ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٤ ، من ٥٥ .

الناس في مهماتهم فتوفيقاً لهم (١١٧) . كما عين العزيز بالله منشأبن الفراز اليهودي نائباً له على الشام (١١٨) .

توشتهر عيسى بن نسطورس بسياسته الخازمة ، وكفافته الادارية ، وقدرته على ضبط وتحصيل الخراج (١١٩) . فيرى الانطاكي أن ابن نسطورس « رسم أيام نظره رسوماً جائزة ، وأحدث مكتوباً زائدة على ما جرى الرسم بأخذه » (١٢٠) بينما يقول Mann « وكان عيسى قاسي القلب مرايباً ، خص نفسه بكل الأعمال المربحة ، وزاد كثيراً من الضرائب » (١٢١) .

وقدما زاد ألطين بلة أن عيسى اتبع سياسة ادارية كانت على جانب كبير من الخطورة ، إذ تعصب لبني ملته وغيرهم في الأذارات والدواوين الحكومية ، وعزل الكتاب وجهاً الضرائب من المسلمين (١٢٢) .

وفي الشام كانت فترة الأربع سنوات التي حكم فيها منشأنا دمشق عصراً ذهنياً بالنسبة ليهود الشام (١٢٣) ، إذ فتح أبواب المناصب العليا في دواوين الشام أمام اليهود ، وقدمهم على غيرهم ، وأبعد المسلمين العاملين بالدواوين من الاشتغال بها ، وأغلق باب

(١١٧) المقريزى : اقطاع الحنطة ، ج ١ ، ص ٢٨٣ .

(١١٨) Lane-Poole : A History of Egypt in the Middle Ages , p. 119.

(١١٩) أبو شجاع : المصدر السابق ، ص ١٨٦ .

(١٢٠) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٨٠ .

(١٢١) Mann : Op. cit., Vol. I, p. 19.

(١٢٢) ترثون : أهل السنة في الإسلام ، ترجمة د. حسن جبشي ، الطبعة الثانية - القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٢٣ .

- ابن القلانس : المصدر السابق ، ص ٣٣ .

(١٢٣) Maftin : Op. cit., Vol. I, p. 19.

التوظف والعمل أمامهم (١٢٤) .

ولقد تركت هذه السياسة المتجذرة آثارا سيئة سوف نوضحها فيما بعد .

فهد بن ابراهيم :

ويأتي أبو العلاء فهد بن ابراهيم النصراوي - وهو من أبناء ريف مصر - كواحد من كبار موظفي الدولة الذين علا شأنهم كشخصية سياسية لها وزنها وتأثيرها في سياسة الدولة الفاطمية ابان الفترة التي تولى فيها أبو الفتوح برجوان منصب الوساطة سنة ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م (١٢٥) . اذ عول برجوان على كتابه أبي العلاء فهد بن ابراهيم في النيابة عنه ولقبه بالرئيس ، فقام بتدبير أمور الدولة وأحکم سيطرته عليها (١٢٦) .

وأبدى فهد نشاطا كبيرا في خدمة برجوان ، فكان يجلس في الدليل الأول بقصر الخلافة في عهد الحاكم بأمر الله ينظر في الشكاوى والظلمات للبيت فيها (١٢٧) ، ثم يعرض على برجوان ما يحتاج إلى العرض على الخليفة ، « فيخرج الأمر بما يكون العمل به » (١٢٨) .

(١٢٤) ابن الجوزي : المنظم في تاريخ الملوك والأمم ، الطبعة الأولى .
مطبعة حيدر آباد ١٣٥٨ ، ١٣٥٩ ، ١٣٦٠ ، ج ٧ ، ص ١٩٠ .

- التویدی : المصدر السابق ، ج ٤ ،

(١٢٥) ابن القلائی : المصدر السابق ، من ٥٠ .

(١٢٦) الانطاکی : المصدر السابق ، من ١٨١ .

(١٢٧) ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٤ ، من ٥٩ .

(١٢٨) المقربی : الخطط ، ج ٢ ، من ٣ .

وقد استقامت أمور الدولة بمصر والشام أثناء وساطة برجوان بفضل جهود كاتبه أبي العلاء فهد (١٢٩) . ولما ازداد نفوذ برجوان واستبد بمقاليد الأمور وأصبح خطراً على الخليفة ، قتله الحاكم في السادس والعشرين من ربيع الآخر سنة ٣٩٠ هـ (١٣٠) .

وبعد قتل برجوان استدعي الحاكم بأمر الله أبي العلاء فهد ابن إبراهيم وأمنه ، وقال له : « أنت كاتبى ، وصاحبك عبدى ، وهو كان الواسطة بيئي وبينك ، وجرت منه أشياء أذكرتها عليه ، فجازيته عليها بما استوجبها ، فكن أنت على رسمك في كتابتك ، آمنا على نفسك ومالك (١٣١) . ثم عقد الحاكم بأمر الله اجتماعاً لكتاب رجال دولته وكتابه ومعهم فهد وقال لهم : « إن هذا فهدنا ، كان أمن كاتب برجوان عبدى ، وهو اليوم وزير ، فاسمعوا له وأطيعوا ، ووفوه شروطه في التقدم عليكم ، وتوفروا على مراعاة الأعمال ، وحراسة الأموال » ، فقبل فهد والمحاضرون الأرض بين يدي الحاكم ، وأجابوا بالسمع والطاعة . ثم وجه الحاكم حديثه إلى فهد قائلًا له : « أنا حامد لك ، وراض عنك ، وهو لاء الكتاب خدمي ، فاعرف حقوقهم ، وأجمل معاملتهم ، واحفظ حرمتهم ، وزد في واجب من يستحق الزيادة بكفايتها وأمانتها ، وتقديم بأن يكتب إلى سائر ولاة البلاد والأعمال بالسبب الواجب لقتل برجوان » (١٣٢) .

وعلى الرغم من أن قتل برجوان يعتبر بداية مرحلة جديدة في

(١٢٩) ابن القلansi : المصدر السابق ، ص ٥٤ .

(١٣٠) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٨٥ .

- المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، من ٣ .

(١٣١) المقريزى : اعتاذ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفاء ، الجزء الثاني ، تحقيق

د. محمد حلمى احمد ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ٢٦ .

(١٣٢) ابن القلansi : المصدر السابق ، ص ٥٦ .

خلافة الحاكم بأمر الله ، اذ بعد مقتله انتقلت اليه السلطة الفعلية في الدولة ، الا أن حديثه الذي وجهه الى كبار موظفي الدولة كان أمرا صريحا بالتزام الطاعة لفهد والتعاون معه في تنفيذ سياساته الجديدة ، كما أن خطابه الى فهد يوضح المخطوط العريضه لسياسة العامة التي يجب أن تسير عليها أجهزة الدولة في تلك المرحلة ، وحرصه على استئمالة كبار رجال الدولة اليه ، وتلقيه منه بشرح الأوضاع الداخلية في البلاد والسبب الذي استحق من أجله بروجان عقوبة الاعدام . وكان هذا التكليف بمثابة حملة اعلامية ضد رجل استقامته له الأمور في فترة توليه منصب الوساطة في الدولة ، اذ استعمال المشارقة ، ورد من فصيلهم ابن عمار من الكتاب الى وطائفهم وأبدى اهتماما خاصا بموظفي الدولة من الأقباط ، بما أدى الى استقرار العمل بالمواين . كما لاقت سياساته الخارجية نجاحا كبيرا ، فقد عقد هدنة مع الروم سنة ٣٨٨ هـ / ٩٩٨ م لمدة عشر سنوات ، تبودلت على أثرها الهدايا بين الحاكم بأمر الله والامبراطور البيزنطي .

لكن الحاكم بأمر الله لم ينس أن ينصب مع فهد رجل الدولة البارز الحسين بن جوهر ، ولقبه بقائد القواد ، يتقاسم السلطة والنفوذ مع فهد حتى لا ينفرد بأمور الدولة وسياستها ، أو خشية ازدياد نفوذه فيصبح خطرًا على الخليفة . فكان فهد وابن جوهر يجلسان بقصر الخليفة وينظران في الأمور ، ثم يدخلان وينهيان الحال الى الخليفة . غير أن فهد لقى حتفه في ثامن جمادي الآخر سنة ٣٩٣ هـ عندما أمر الحاكم بأمر الله بقتله (١٣٣) :

وتتضارب الروايات في أسباب مقتل فهد . فيرى مؤلف

(١٣٣) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٨٥ .
- المقريزي : الخطط ج ٢ ، ص ١٤ ، ١٣ ، ٣٠ .

« سير البيعة المقدسة » أن المحاكم بأمر الله ضرب عنق فهد ، وحرق جسده لأنه لم يجيء إلى اعتناق الإسلام بعد أن وعده بالمنزلة السامية والمنصب الرفيع (١٣٤) . وبينما يرى ابن القلانسى أن المحاكم بأمر الله قتل فهد نتيجة مؤامرة أحكم تدبيرها ابن العدادس (والى ديوان الخراج) بالاتفاق مع أبي طاهر التحوى (والى ديوان الحجاز) الذadan وشيا به عند المحاكم، وأشارا إلى الشروة التي جمعها، وما اقطعه لنفسه من اقطاعات عديدة . ووعد الرجالان المحاكم بأمر الله بالعمل بدلًا منه أن تخالص منه ، على أن يقوموا بتوفير مبلغ ستة آلاف دينار كان فيه يأخذها لنفسه (١٣٥) . هذا بينما يذكر المقريزى أن السبب في مقتل فهد هو تعصيه للنصارى ، وتمكينه إياهم من السيطرة على دواوين الدولة وأعمالها ، بالدرجة التي أصبح فيها « آفة على المسلمين وعدة للنصارى » (١٣٦) .

ونرى الأخذ برواية المقريزى ، بجانب رواية ابن القلانسى ، خلافاً لما ذهبنا إليه الرواية الكنسية . وجوبتنا في ذلك أن المحاكم بأمر الله عندما أستند منصب الوساطة إلى فهد كان يعلم أنه على دين التصريانية ، وإن المحاكم بأمر الله لم يدعه إلى الإسلام أو يلزمها باعتناق الدين الإسلامي شريطة تقلده الوساطة ، كثيراً هو واضح في الخطاب الذي وجهه إلى فهد أمام كبار رجال الدولة في الاجتماع الذي سبق الاشارة إليه ، بل طالبه بمحسن السياسة والتدبیر ، وطالب الآخرين بالسمع والطاعة للرجل الذي أولاه ثقته . وإذا كان المحاكم بأمر الله قد تعرض بالسوء لتعاوني فهد والأخوه ، فذلك ليس به سياستهم (١٣٧) ، أما أولاد فهد ، فإنه أمر أن ترد أموال أبيهم إليهم ،

(١٣٤) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٣ ، ورقة ٥٥ .

(١٣٥) ابن القلانسى : المصدر السابق ، من ٥٩ .

(١٣٦) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، من ٣٠ .

(١٣٧) ابن القلانسى : المصدر السابق ، من ٦١ .

وأن تعاد إليهم سروجهم المحلاة وأمروا بالركوب بها (١٣٨) ، ثم أحضرهم إلى قصره وخلع عليهم ، وأعطائهم مرسوم أمان بخطابتهم وصيانته دورهم ويمثلوكا لهم مع عدم التعرض لهم (١٣٩) .

منصور بن عبادون :

هو واحد من كبار رجال أهل النمة الذين تولوا أرقى وظائف الدولة . تولى ديوان الشام قبل توليه منصب الوساطة في مصر ، ووصف بأنه « كان رجلاً نصراوياً خبيثاً جلماً » (١٤٠) . وقد اشتهر بقدرته الإدارية والمالية ، وبلغ نجمه في دواوين الحكومة وأصبح مقرباً من قصر المخلافة (١٤١) . وفي الحادي عشر من صفر سنة ٤٠٠ هـ ، عقد الحكم بأمر الله مجلساً بدار الخلافة حضره كبار رجال الدولة وأصحاب الدواوين وقرر تعيين منصور بن عبادون النصراوي في منصب الوساطة وقرىء سجله على الحاضرين (١٤٢) . ثم منحه بعد فترة قصيرة من وساطته لقب « الكاففي » (١٤٣) ، وكتب له سجلاً بذلك ٠٠٠ وحمل على بغلتين تكريماً له (١٤٤) . كما سمح له بالتوقيع عنه والنظر في أمور الدولة (١٤٥) . فجد ابن عبادون في جميع أموال الدولة وموارده مما جعل الحكم بأمر الله يمتدحه بقوله:

(١٣٨) المقريزى : اعتماد العتنا ، ج ٢ ، من ٤٤ .

(١٣٩) ابن القلائى : المصدر السابق ، من ٦٦ .

(١٤٠) ——— : المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

(١٤١) الانطاكي : المصدر السابق ، من ١٩٤ .

(١٤٢) التويى : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٥٥ .

— المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، من ٢٨٦ .

(١٤٣) الانطاكي : المصدر السابق ، من ١٦٩ .

(١٤٤) المقريزى : اعتماد العتنا ، ج ٢ ، من ٨١ .

(١٤٥) ——— : الخطط ، ج ٢ ، من ٢٨٦ .

« ما خدمني أحد ولا بلغ في خدمته ما بلغه ابن عبدون »، ولقد جمّع
لي من الأموال ما هو خارج في أموال الدوّاين تلثمانة ألف
دينار (١٤٦) . وقد أنشأ ابن عبدون أثناء توليه الوساطة ديواناً
سماه « ديوان المفرد » تودع فيه الأموال المصادرية لمن يغضبه عليه
الخليفة أو يقتله أو يقبض عليه من كبار رجال الدولة ، أو أية أملاك
وأموال يرى المحاكم بأمر الله مصادرتها (١٤٧) .

غير أن المحاكم بأمر الله ما لبث أن عزل ابن عبدون في رابع
المحرم سنة ٤٠١ هـ / ثمان عشر أغسطـس سنة ١٠١٠ م لسوء
أخلاقه وخبيثه ، ولکيد أعدائه له بسبب ما كان بينه وبينهم من
شحـناء ، هذا بجانب نجاح الحسين بن جوهر في تحريض المحاكم
بأمر الله عليه ، بالدرجة التي يجعلـته لا يكتفى بعزلـه ، بل ويأمرـ
باعتقالـه ومرـاجـعة أعمالـه ومحـاسبـاته ، ثم اعدـامـه في الشـهـر التـالـي ،
ومصـادرـة أموـالـه (١٤٨) .

زوجة بن عيسى بن قسطنطوس :

بعد أن عزل المحاكم بأمر الله ابن عبدون ، عين أحمد بن محمد
القشـوري الكـاتـب فـي منصب الوساطـة . الا أنه فـي الـيـوم الـراـبـع
عـشر من المـحـرم من نفسـ السـنةـ قـرـرـ عـزلـهـ ، وـعـينـ مـكـانـهـ الكـاتـبـ

(١٤٦) ————— : اتعاظـ الحـنـفـاـ ، جـ ٢ـ ، منـ ٨٤ـ .

(١٤٧) المقريـزـىـ : اتعـاظـ الحـنـفـاـ ، جـ ٢ـ ، منـ ٨١ـ .

ـ البرـاوـىـ : المرـجـعـ السـابـقـ ، منـ ٣٥٢ـ .

(١٤٨) الانـطاـكـىـ : المصـبـرـ السـابـقـ ، منـ ١٩٨ـ .

ـ ابنـ القـلاـنـىـ : المصـدـرـ السـابـقـ ، منـ ٦٢ـ .

ـ ————— : اتعـاظـ الحـنـفـاـ ، جـ ٢ـ ، منـ ٨٥ـ ، منـ ٨٥ـ .

النصراني زرعة بن عيسى بن نسطورس ، وأنعم عليه في سابع ربيع الآخر من تلك السنة بلقب « الشافعى » (١٤٦) .

وظل زرعة في منصبه حتى وفاته في ثانى عشر ربيع الأول سنة ٤٠٣ هـ . وكان قد استطاع بحسن ادارته ومهاراته السياسية أن يخوض على ثقة قصر الخلافة ، كما كانت علاقته وطيدة برجال الجيش وكتاب الدولة (١٥٠) . فكان من القلائل الذين أفتوا من سيف الحاكم بأمر الله ، على الرغم من أن المريزى يذكر أن الحاكم بأمر الله تأسف لوفاته من غير قتل ، وقال : « ما أسفت على شيء قط ، أسفى على خلاص ابن نسطورس من سيفي ، وكنت أود أن أضرب عنقه لأنه أفسد دولتى ، وخاننى ، ونافق على » (١٥١) .

صاعد بن عيسى بن نسطورس :

يعتبر صاعد بن عيسى بن نسطورس ثالث فرد في هذه الأسرة يلى الوساطة ، إذ سبق أن تولاها أبوه عيسى ، ثم أخوه زرعة من قبل . وقد تولى صاعد الوساطة في آخر شوال سنة ٤٠٩ هـ ، وظل في منصبه حتى قتل في رابع ذى الحجة من تلك السنة (١٥٢) . وعندما أستدلت إليه الوساطة لقب « بالأمير الظاهر شرف الملك تاج المعالى ذو اليدين » (١٥٣) .

(١٤٩) القلقشندي : المصدر السابق ، ص ٢ ، من ٤٩٠ .

ـ المريزى : انعطاط الحنظا ، ج ٢ ، ص ٨٦ .

(١٥٠) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .

(١٥١) المريزى : انعطاط الحنظا ، ج ٢ ، ص ٩٣ .

(١٥٢) ——— : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ١١٤ .

(١٥٣) المناوى : الوزارة والوزراء في العصر الفاطمى ، القاهرة ١٩٧٠ .

ـ من ٥٠

أبو نصر (أبو منصور) صدقة بن يوسف الفلاхи :

تولى الوزارة في عهد المستنصر بالله الفاطمي ، وكان يهودياً غير أنه اعتنق الإسلام وخلع عليه في الحادي عشر من رمضان سنة ٤٣٦ هـ خلفاً للوزير الحسين بن على الانباري . وقد ساعدته الأحداث الداخلية والظروف المحيطة بقصر الخلافة على أن يتبوأ هذا المنصب ، ذلك أنه في أيام المحاكم بأمر الله كان يوجد أخوان من أصل يهودي أحدهما أبو نصر بن سهل التستري وكان يحترف الصيرفة ، والثاني أبو سعيد (أبو سعد) إبراهيم وكان يشتغل بالتجارة ، وكانت أم المستنصر بالله بجارية سوداء ، اشتراها الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله من أبي سعيد إبراهيم ، وأنجب منها ابنه المستنصر (١٥٤) ولما صارت الخلافة إلى ولدتها قدمت أبي سعيد ، وما لبث أن أصبح ناظراً لديوان أم الخليفة ومن المقربين إلى المستنصر ، وعلى صلة وثيقة بأمه التي كانت ذا نفوذ عظيم في أوائل حكم ابنها (١٥٥) .

وحدث أن ثوى ابن الانباري الوزارة ، وساعت علاقته بأبي نصر وأخيه أبي سعيد التستري الذي شكا إلى أم الخليفة فحضرت ابنها المستنصر ضد ابن الانباري لعزله من الوزارة ، وتعيين أبي صدقة ابن يوسف الفلاхи مكانه (١٥٦) .

(١٥٤) ابن ميسير : المصدر السابق ، ج ٢ ص ١ .

- المقريزى : اتعاظ العثما ، ج ٢ ، ص ١٩٠ - ١٩١ .

(١٥٥) ناصرى خسرو : سفرنامة د. يحيى الخطاب ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٤٥ ، ص ٦٤ .

- ابن ميسير : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١ .

- المقريزى : اتعاظ العثما ، ج ٢ ، ص ١٩٥ .

- على نعمن التريوطلى : مصر الغربية الإسلامية ، ص ١٦٢ .

(١٥٦) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٤٢٢ .

وما أن تولى الفلاحي الوزارة حتى ظهرت أطماع أبي سعيد التستري ونفوذه بصورة رهيبة ، إذ أشرف على الفلاحي الوزير ، وقع تحت سيطرته بحيث لم يبق له معه أمر ولا نهي سوى الاسم وبعض التنفيذ (١٥٧) .

ويأياعز من أبي سعيد التستري ، وبتحريض منه ، استطاع الفلاحي أن يكيد للأنباري الوزير السابق ، وبيتهمه بالاختلاسات المالية ، وينتقد سياساته السابقة ، حتى تمكن منه ، فقبض عليه وصودرت أمواله ، ثم قتل (١٥٨) .

غير أن الوزير صدقة بن يوسف الفلاحي استطاع أن يخلص من أبي سعيده فحضر الجنة الآخرًا عليه ، فاتهموه بدس السم لقائد هم ريحان ، وقتلوه ثم مثلوا بجثته ، وذلك في الثالث من جمادى الأولى سنة ٤٣٩ هـ / السادس والعشرين من أكتوبر سنة ١٠٤٧ م ، وبهذا انفرد الفلاحي كلية بأمور الدولة . الا أن المستنصر بالله لم يرض عن هذا التصرف ، فأمر بتعيين أبي نصر التستري - أخ أبي سعد - خزانة الخاصة ، وعين ولد أبي سعد في أحد الدوائر (١٥٩) . كما أن أم المستنصر حقت على الوزير الفلاحي وثارت عليه ، لاعتقادها أنه هو الذي دبر مؤامرة قتل أبي سعد ، ولم تزل تدين له الدسائس وتکيد له ، حتى قبض عليه ، واعتقل في خزانة البنود ، وانتهى أمره بقتله في الخامس من المحرم سنة ٤٤٠ هـ / العشرين من يونيو سنة ١٠٤٨ م (١٦٠) .

(١٥٧) ابن ميسير : المصدر السابق ، ج ٢ ، من ٤٤٣ - السيوطي : حسن المحاضرة في الخبر مصر والقاهرة ، القاهرة ١٢٢٧ م ، ج ٢ ، من ١١٦ .

(١٥٨) المقريزى : الغلط ، ج ١ ، من ٣٥٤ ، ٤٤٣

(١٥٩) ابن ميسير : المصدر السابق ، ج ٢ ، من ٤٠٠

(١٦٠) ابن القلائى : المصدر السابق ، من ٨٤ .

وكان طبيعياً أبان الفترة التي ول فيها الفلاحى الوزارة أن يقاسمها المنفوذ أبو سعد التسترى فى الأيام الأولى من الوزارة - وهم اليهوديان الأصل - وأن ينحاز الرجال إلى بنى جنسهما ، ويعملان على تعيين اليهود فى وظائف الدولة وإدارتها بإضطهاد المسلمين (١٦١) .

وقد أعاد ذلك إلى أذهان المعاصرین الصورة التي كانت عليها البلاد أيام وساطة عيسى بن نسطورس في مصر ، ونائبه منشا بن القزاز في الشام .

أبو علي الحسن بن أبي سعد ابراهيم بن سهل التسترى :

تولى الوزارة في الرابع من ذى الحجة سنة ٤٥٦ هـ . وكان الرجل يهودياً ، ثم اعتنق الإسلام . وحفظ القرآن (١٦٢) ، وأُسنِدَ إليه الأشراف على بيت المال قبل أن يلي الوزارة . وعندما تقلد منصب الوزارة لقب « يعلم الكفاة » وقد ظل في منصبه حتى منتصف المحرم سنة ٤٥٧ هـ (١٦٣) .

أبو سعد منصور بن أبي اليمن بن سودس بن مكرواه بن ذنبور :
كان أبو سعد منصور واحداً من كبار رجال الدولة الذين
تقلدوا أرفع مناصب الدولة . وقد كان أبوه ناظر الزيف وهو على

(١٦١) يحيى ابراهيم : تاريخ الدولة الطاطمية في المغرب ومصر وسوريا وببلاد العرب ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥١ م ، ص ١٧٠ .

(١٦٢) ابن ميسير : المصدر السابق ، ج ٢ ، ج ٢٦ ، ذ ١٢٢ .

(١٦٣) السطيسي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١١٧ .

- مشرفة : المرجع السابق ، من ١٩٥٢ م ، شارة ، يـ ١٣٠ ، ذ ٦٣ .

دين النصرانية ، وظل ولده هذا على دينه ، فلما تقلد الوزارة اعتنق الاسلام ، وخلع عليه (١٦٤) ، غير أن النصارى ينكرون اسلامه (١٦٥) . وقد تولى الوزارة أياما قليلة ، ولقب بلقب « الأجل الأوحد المكين السيد الأفضل الأمين شرف لكتنة عميد الخلافة محب أمير المؤمنين » . غير أن الجندي ما لبسوه أن طالبوه برواتبهم فوعدهم وطأنهم ، ثم ما لبث أن هرب سنة ٤٥٨ هـ / ١٠٦٦ م تاركا منصب الوزارة بعد أن عجز عن تدبير الأموال الازمة لرواتب الجنود (١٦٦) .

(١٦٤) المناوى : المرجع السابق ، ص ٢٦٦ .

(١٦٥) ابن ميس ، ج ٢ ، ص ٣٣ .

(١٦٦) المناوى : المرجع السابق ، ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

عشقة : المرجع السابق ، ص ١٤٢ .

أهل الذمة والدواوين الحكومية

كانت الدولة في عهد الفاطميين تدار بواسطة الدواوين أو ما يسمى بفروع الادارة . وإذا كنا قد رأينا فيما سبق أن أهل الذمة قد تولوا أرفع مناصب الدولة مثل الوزارة والوساطة . فان الخلفاء الفاطميين جعلوا الدواوين تحت اشرافهم المباشر . الا أنهم أبقوا في يد الموظفين المصريين وبخاصة أهل الذمة الذين تشير المصادر التاريخية الى استخدامهم في مختلف الدواوين ، وفي مناصب الدولة العليا ، وعلى زيادة عددهم عن ذي قبل (١٦٧) .

فقد وجد في الذميدين من تولوا رئاسة الدواوين وبخاصة ديوان الانشاء والدواوين المالية ، كما تولوا ديوان الشام ، وكان الفاطميون يعلقون أهمية كبيرة على ديوان الانشاء الذي كان يعتبر من أهم دواوين الادارة المركزية والذى كانت مهمته تنفيذ أوامر السلطة العليا ، وكانت رتبة مقتوليه تلي مباشرة رتبة الوزير (١٦٨) .

(١٦٧) ماجد : ظهور خلالة الفاطميين وسقوطها في مصر ، الاسكندرية ١٩٦٨ م ، عن ٢٩٢ .

(١٦٨) ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ، الجزء الثاني ، القاهرة ١٩٥٥ ، عن ١٠٤ .

ولذلك كانوا لا يختارون لهذا المنصب الا بلقاء الكتاب سواء أكان مسلماً أم ذمياً ، فلم يكن للدين دخل فيمن يتولى هذا المنصب (١٦٩) .

فقد كتب للعزيز بالله وزير ابن كلس ، وكذلك أبو المنصور ابن سوردين النصراوي (ت صفر ٤٠٠ هـ) وهو من الذين كتبوا أيضاً للحاكم بأمر الله (١٧٠) . وكان ابن سوردين محل ثقته ، وحامل سره ، ومؤمن بسجلاته السرية واليه ينسب انشاء السجل الشهير الذى أصدره الحاكم بأمر الله بهدم كنيسة القدس (١٧١) . كما تولى هذا المنصب فهد بن ابراهيم النصراوى ، فى عهد الحاكم بأمر الله قبل توليه منصب الوساطة (١٧٢) . كما كان ابن أبي الدم اليهودي أحد كتاب انشاء فى عهده (١٧٣) .

وعلى الرغم من أن معظم دواوين الحكومة قد سسيطر عليها أهل النوبة وبخاصة النصارى (١٧٤) ، إلا أن المصادر التاريخية لم تقدمنا إلا بأسماء قليلة للشخصيات التي تولت رئاسة بعض الدواوين :

ومن هذه الأسماء التي وصلت اليهـا ، ابن كلس الذى أشرف على ديوان الخراج سنة ٣٦٣هـ / ٩٧٣م قبل توليهـ الوزارة (١٧٥) ، وعيسى بن سطورس الذى أستد اليهـ العزيز باللهـ الفاطمى ادارة الدواوين بعد وفاة ابن كلس (١٧٦) .

(١٦٩) مشرفة : المرجع السابق ، عن ١٥٣ .

(١٧) السيوطي : المحدث السابق ، ج ٢ ، ص ١٣١ .

^{١٧٦}) المقرئي: اعتقاد الجنـا، ج ٢، ص ٧٢، من ٨١.

^{١٧٢}) ابن القلنسى : المصدر السابق . من ٥٦ .

^{٧٩} نسبته : (٢٣٦) المقريزي : الخلط ، ج ٢ ، ص ٧٩ .

(١٧٤) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٣ ، ورقة ٧٥

١٧٥) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٦ :

^(١٧) ابن خلدون : المصادر السابق ، ج ٤ ، ص ٥٥ .

أما أبو غالب - أخ فهد بن إبراهيم - فقد تولى ديوان النفقات في عهد المحاكم بأمر الله . « وكان شريراً مبغضاً » (١٧٧) . كما تولى أبو على الحسن بن أبي سعد التستري بيت المال قبل توليه الوزارة (١٧٨) . أما الشيخ أبو ذكري يا يحيى ابن مقار النصراوي فقد تولى ديوان النفقات في عهد المستنصر (١٧٩) .

وفضلاً عن ذلك فقد سيطر أهل الذمة على وظائف الإدارات المحلية (١٨٠) .

وقد نسباً في العصر الفاطمي الأول بعض الدوادين ذات الطابع الخاص ، كديوان الخاص للمنع الذي قبولاًه ابن كلس والذي كان مشرفاً على قصور الخليفة المعز وبلاطه . وديوان العزيزية في خلافة العزيز بالله (١٨١) .

ويعتبر أبو سعيد التستري متولى ديوان أم الخليفة المستنصر من رؤساء الدوادين الخاصة الذين طغى نفوذهم على نفوذ الوزراء ، وقد ارتفع شأنه بعد وفاة الخليفة الظاهر سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥ م، وأصبح مقرباً من الخليفة المستنصر ، ومؤثراً على أحداث الدولة كما سبق أن ذكرنا ، وبعد مقتل أبي سعيد في سنة ٤٣٩ هـ / ١٠٤٨ م ، قلل المستنصر أخاه أبو نصر التستري حزانة الخاص والحق ولدى أبي سعيد في أحد الدوادين (١٨٢) .

(١٧٧) ابن القلائسي : المصدر السابق ، ص ٥٩.

(١٧٨) مبشرة : المرجع السابق ، من ٢٦٢ .

- المناوى : الرجع السابق ، من ٢٦٣ .

(١٧٩) الآتيا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، در ٧٣ .

(١٨٠) الانطاكي : المصدر السابق ، من ٢٠٣ .

- الآتيا ميخائيل : المصدر السابق ، در ٧٥ .

(١٨١) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، من ٥٠ .

(١٨٢) ابن نيسير : المصدر السابق ، ج ٢ ، من ٢ .

وعلى الرغم من اختفاء أبي سعيد التستري من المسرح السياسي بعد قتله على يد الجندي الأتراء سنة ٤٣٩ هـ / ١٠٤٨ م فان لفؤذ أخيه أبي نصر هارون التستري كان له أثره في قصر الخلافة ، وظهر ذلك بوضوح عندما تدخل في النزاع القائم بين الفاطميين وتمال بن صالح بن مرداوس حول حلب ، والتمس أبو نصر العفو لشمال ، مما أدى إلى غضب الوزير الحسين بن محمد، الذي اعتبر هذا تدخلاً في شئون اختصاصه وسياسته ، فأغري به الخليفة المستنصر وأقنعه أن أبي نصر هارون يسمى فيما يضر الدولة ، فقبض المستنصر على أبي نصر سنة ٤٤١ هـ / ١٠٤٩ م وصادر أمواله وعقب حتى مات (١٨٣) .

ولم يقتصر الأمر عنده تعين أهل الذمة لرئاسة الدواوين بالادارة المركزية ، بل عينوا ولاة بالأقاليم . ففي عهد المعز لدين الله نجد قزمان بن معاذا النصراوي على أعمال فلسطين ، وقد بلغت ثروة قزمان هذا على حد تقدير مؤلف « سير البيعة المقدسة » تسعمائة ألف دينار (١٨٤) مما يجعلنا نفترض أنه جمع تلك الثروة الطائلة بطريق غير مشروعة .

٢- وقد أسيده ديوان الشام إلى عيسى بن نسطورس قبيل توقيه الوساطة كما تولى هذا الديوان أكثر من واحد من أهل الذمة ، فتذكر المصادر التاريخية أن منشاً ابن إبراهيم القران اليهودي كان نائباً على الشام في عهد العزيز بالله الفاطمي إبان وساطة عيسى بن نسطورس وإن سلك أسلوباً لا يتفق وسياسة

(١٨٣) ابن عيسى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ٢

- العزيز : انتط الجبل ، ج ٢ ، ٢ ، من ٢٠٩ .

(١٨٤) الأنبا ميخائيل : المحدث السابق ، ج ٢ ، ٢ ، ورقة ٤٤ .

ال الخليفة العزيز بالله نحو رعاياه مما أدى إلى عزله والقبض عليه
و مصادرته (١٨٥) .

أما منصور بن عبدون النصراني فقد تولى ديوان الشام قبل
توليه الوساطة في خلافة الحاكم بأمر الله (١٨٦) . كما تولى هذا
الديوان يحيى بن سلامة النصراني في خلافة الحاكم أيضاً (١٨٧) .
وكان يوسف بن علي الفلاخي اليهودي من كبار الكتاب
البلغاء الذين تولوا ديوان دمشق (١٨٨) ، وصحب ولده صدقة بن
يوسف بن علي الفلاخي جيش الفاطميين ناظراً في الأموال ونفقة
الجيش تحت قيادة منجب الدولة سنة ٤١٧ هـ / ١٠٣٦ م أثناء
سيره لتأديب أمراء العرب من بنى العراح والمدارسين المساوئ في
الحكم الفاطمي في بلاد الشام (١٨٩) .

وكانت النتيجة المباشرة لتولي أهل الذمة منصب الوزارة
والوساطة ورؤاستهم معظم الدواوين ، واتحياز هؤلاء الوزراء
والوسطاء ورؤساء الدواوين من أهل الذمة لبني ملتهم ، أن اكتظت
الدواوين الحكومية بالكتاب وصغار الموظفين الذين
سيطروا على إدارات الدولة بصورة ملفتة للنظر . ويدرك الانطاكي
أنه في عهد الحاكم بأمر الله « كان سائر كتابه وأصحاب خدمته
وأطباء مملكته نصارى لا نفر يسير من الكتاب » (١٩٠) .

(١٨٥) أبو شجاع : بالمصدر السابق ، من ١٨٦ .

(١٨٦) الانطاكي : المصدر السابق ، من ١٩٤ ، ١٩٦ .

- أبو صالح الأرمني : تاريخ الشیخ أبو صالح الأرمني ، طبعة أكسفورد سنة ١٨٩٤ م ، من ٥١ .

(١٨٧) ابن القاسمي : المصدر السابق ، من ٦٩ .

(١٨٨) ابن مسر : المصدر السابق ، ج ٢ ، من ٢ .

المقريزي : اتحاذ الحلبا ، ج ٢ ، من ١١٦ .

(١٨٩) ابن القاسمي : المصدر السابق ، من ٧٣ .

(١٩٠) الانطاكي : المصدر المطابق ، من ٢٠٢ .

ومن ذلك فان بعض الكتابـ المحدثين يذكر ان الحاكم يأمر الله . قبل أن يترك عرشه قضى على نفوذ النصارى في مصر .^(١٩١) وبمنذ ذلك الحين أصبح الأقباط مهملين في الدولة .^(١٩٢)

والحقيقة أن صاحب هذا الرأي قد جانبه الصواب فيما ذهب إليه ، فقد استمر موظفو الدولة من أهل السنة في ممارسة وظائفهم الإدارية والمالية في عهد الحاكم يأمر الله ومن جاءه بعده . مع قيسيديه الرقابة عليهم وتوقيع العقوبات على المخالفين لأوامره ، وتحذيرهم من الرشوة والبراطيل (١٩٣) ، وهذا لا يعني القضاء على نفوذهم أو اهتمامهم . ولعل أبلغ رد نقدمه لدحض هذا الادعاء ، والتاكيد على استمرار أهل السنة في وظائفهم وسيطرتهم على الادارة ، ما كتبه مؤلف « سير البيعة المقدسة » في سياق حديثه عن عصر المستنصر بالله عندما يذكر أن « جميع مقدمي المملكة والناظرین في دواوينها وتدبير أمورها كلهم نصارى ، وهم الملوك النافذ أمرهم »^(١٩٤)

وإذا كان الأقباط - بوجه خاص - قد احتكروا الوظائف المالية في الدواوين وبخاصة ديوان الخارج ، لمعرفتهم بعلم الخراج والمأمور بالاعمال المالية (١٩٥) فإن اليهود قد اشتهروا بأعمال الصيرفة واستغلوا ذلك لجمع الأموال . لأنفسهم بطرق غير مشروعة ، مستندين إلى الحماية التي توفرت لهم من قبل رؤسائهم الذين كانوا يتولون الوظائف الهامة بالدواوين ، فعلى سبيل المثال كانت الفترة

(١٩١) جاك ثاجن : المرجع السابق ، ص ١٣٥

(١٩٢) المقريزى : انقطاع الخلف ، ج ٢ ، ج ٥١

(١٩٣) الأنبا ميخائيل : المصادر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٧٥

(١٩٤) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، من ٨٥ ، ٢٣٦ ، ٤٤١

التي تولى فيها منشأ ابن مقرئ نياية الشام عصرا ذهبيا بالنسبة
ليهود دمشق (١٩٥٠) *

ولم يكن سلوك معظم هؤلاء الكتاب الذين عملوا بالدواوين
المالية سلوكا حسنا ، وليس من شك أن عددا غير قليل منهم
لم يمارسوا أعمالهم بأمانة ، فتعرضوا للرقابة الصارمة من قبل
الخلفاء أمثال العزيز بالله والحاكم بأمر الله ، بل إن الحاكم
بأمر الله أصدر سجلا يتحذير موظفيه منأخذ الرشوة ، وطالبهم
بتقديم كشف حساب لما في حوزتهم من أموال ومتلكات وصادر
أموال كل من يثبت ادانته وعدم أمانته ، كما طالب الخليفة
العزيز بالله - من قبل - عيسى بن نسطوروس بأن يستعين بالموظفين
السلميين في ادارة الدواوين .

ولم يتخذ الخلفاء الفاطميون تلك الاجراءات الا حماية
للرعية وتوفير أكبر قدر من الخدمة لها دون تفرقة بين ذمي ومسلم.

الأطباء من أهل النمة

وإذا كان الكثير من اليهود والنصارى قد اشتغلوا في دوافع الدولة الفاطمية فإن الخلفاء الفاطميين استخدموه أطباء من أهل النمة في قصورهم . ولا جدال في أن وظائف الأطباء كانت من أعظم الوظائف وأعلاها في ذلك العصر . فكان للخليفة الفاطمي طبيب يعرف بطيب الخاص ، يجلس على باب دار الخليفة كل يوم ويجلس على الدكك (التي بالقاعة المعروفة بقاعة الذهب بالقصر دونه أربعة أطباء أو ثلاثة لمعالجة المرضى من الأقارب والخواص ، ويكتبون لهم تذكرة بما يلزمهم من أدوية الصيدلية الملحقة بقصر الخلافة (١٩٦) .

وكان لهؤلاء الأطباء المنزلة السامية ، والمكانة الريغعة في قصور الخلفاء ويلقون من مظاهر الاحترام والتكرير قدرًا كبيرا (١٩٧) ، بجانب ما كانوا يتلقونه من مرتبات عالية مجزية (١٩٨) .

(١٩٦) القلقشندى : المصدر السابق ، ج ٣ ، من ٤٩٢ .

(١٩٧) ابن العبرى : المصدر السابق . من ٣١٦ .

(١٩٨) القلقشندى : المصدر السابق ، ج ٢ من ٤٩٢ .

واشتهر في العصر الفاطمي الأول موسى بن العيزار (العازار) الاسرائيلي الطبيب العالم الذي خدم الخليفة المعز لدين الله عند قدومه من المغرب ، وكان موضع تقدير المعز وثقته (١٩٩) . كما التحق بخدمته ابنه اسحق بن موسى الطبيب ، وبعد أن وفاه أجله في صفر سنة ٣٦٣ هـ ، عين المعز مكانه أخيه اسماعيل والابن يعقوب بن اسحق ، وكان ذلك في حياة أبيهم وجدهم موسى بن العازار . وقد تفاني أفراد هذه الأسرة في خدمة المعز ، فألف موسى بن العازار مؤلفات طبية على جانب كبير من الأهمية ، منها « الكتاب المزى في الطبيخ » الله للخليفة المعز ، وكتاب « الأقارب الذين » و « مقالة في السعال » ، كما ركب الكثير من الأدوية (٢٠٠) .

ومن الذين عملوا في خدمة العزيز بالله الطبيب أبو الحسن سهلان بن عثمان ابن كيسان . وكان من النصارى الملكانية من أهل مصر الذين ارتفع شأنهم أيام العزيز ولم يزل له مكانته حتى وفاته في عام ٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م . وكانت جنازته مهيبة ضخمة اذ شيعه كبار الدولة ورؤساؤها تكريما له (٢٠١) .

اما يوسف النصراني الطبيب الذي كان عارفا بصناعة الطب ، ومن العلماء البارزين في هذا الميدان ، فقد عينه الخليفة العزيز بالله بطريركا على على بيت المقدس في السنة الخامسة من خلافته (٢٠٢) .

(١٩٩) القبطي : المصدر السابق ، من ٣٢٠ .

(٢٠٠) ابن أبي أصيحة : المصدر السابق ، من ٥٤٥ .

(٢٠١) ——— : نفس المصدر ، من ٥٤٩ .

(٢٠٢) ——— : نفس المصدر ، من ٥٤٥ .

وكان أبو الفتح منصور بن سهلان بن مبشر النصراني من الأطباء المشهورين والعلماء المرموقين الذين تمتعوا بمكانة رفيعة في دولة الفاطميين ، ومن المقربين إلى قصر الخليفة والبلاط الفاطمي وبخاصة في أيام العزيز بالله ، إذ كان الخليفة يستطبه ويعامل بم使者اته ويعترمه . وفي رسالة العزيز بالله إلى ابن مبشر التي سبق الاشارة إليها – ما يلقي الضوء بوضوح على مكانة الأطباء من أهل الذمة في قصور الخليفة (٢٠٣) .

وبلغ ابن مبشر في عهد الحاكم بأمر الله أعلى المنازل وأنسابها . وكان من خواصه ومن المقربين إليه ، فكان عندما ينصرف مجلس الحاكم بأمر الله كان ابن مبشر الطبيب يلازمه ساعات طويلة (٢٠٤) . وقد أجزل الحاكم بأمر الله له العطايا وكفاه بعشرة آلاف دينار عندما نجح ذات مرة في علاجه من مرض ألم به (٢٠٥) .

ولما توفي ابن مبشر استطاع الحاكم بأمر الله بعده أبيا يعقوب اسحق ابن إبراهيم بن نسطاس النصراني . وخلع عليه في ربيع الأول سنة ٣٩٤ هـ ، وحمله على بغلتين ومعه ثياب كثيرة وأعطيه دارا بالقاهرة ، فرشت بحسن الأئم (٢٠٦) .

وأصبح ابن نسطاس من أطباء الخاص المقربين إلى الحاكم بأمر الله ، واستطاع أن يقنعه بشرب النبيذ لما فيه من فوائد ، فاستدعي الحاكم المغنى وأصحاب الملاهي إلى مجلسه ، وشرب على

(٢٠٣) انظر قبل ، ج ١٩ .

(٢٠٤) المريزى : اتعاظ ، ج ٢ ، ص ٣١ .

(٢٠٥) الانتاكى : المصدر السابق ، ص ١٨٦ .

– ابن أبن السرور البكرى : المصدر السابق ، ورقة ١٤٨ .

(٢٠٦) المريزى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٨ .

غناهم ، وخلع عليهم ، وأحسن لهم ، ولكن بعد وفاة ابن نسطاس في سنة ٣٩٧ هـ / ١٠٠٦ م امتنع الحاكم بأمر الله عن كل هذا (٢٠٧) . ويدرك المؤرخون أن ابن نسطاس الطبيب ، كانت علاقته حسنة ببار رجال الدولة الفاطمية ، وأنه حضر مجالسهم ، وزارهم في قصورهم ، وأكل على موائدهم ، ونادهم . غير أنه لقي مصرعه غرقا في بركة ماء فاقد الوعي لكثره ما شرب من الخمر ، وخاف خلانه ومن كانوا معه - أمثال الحسين بن جوهر وأبو الحسن الرسى ، والمسىحي ، أن يخبروا الحاكم بأمر الله ، لمعرفتهم بمنزلته عنده . وقد شق على الحاكم بأمر الله خبر وفاته ، وأظهر الحزن والأسى لمصرع أطباء قبر الخلافة (٢٠٨) . وعندما التقى جثته من الماء ، حملت إلى الكنيسة في تابوت ، ثم شيعت جنازته في شوارع القاهرة ، وحول جثمانه سائر رجال الدولة في موكب جنائزى رائع على أضواء الشموع وبخور المداخن ، ثم أعيد إلى داره فدفن بها (٢٠٩) .

وكان لابن نسطاس يد طولى في الموسيقى ، وانفرد بخدمة الحاكم بأمر الله في الطبل فأثارى ، وترك ترسوة طائلة تزيد على عشرين ألف دينار عينا ، سوى الثياب وغيرها من الممتلكات (٢١٠) .

وبوفاة ابن نسطاس جعل الحاكم بأمر الله الطبيب صقر اليهودى من أطباء الخاص عوضا عنه وخلع عليه في سنة ٣٩٨ هـ / ١٠٠٧ م ، وأمر بحمله على بغلة تكريما له ، وأهداه ثلاثة بغلات

(٢٠٧) تاريخ الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٩٢ .

- ابن أبي أصبيعة : المصدر السابق ، ص ٤٤٥ .

(٢٠٨) ابن حجر العسقلاني : المصدر السابق ، ص ٣٦٢ ، ٣٦٣ .

(٢٠٩) المقريزى : اتحاظ ، ج ٢ ، ص ٧٠ .

(٢١٠) ————— : نفس المصدر ونفس الصفحة .

برج ولجم محله ، ومنحه أخمث الشياب ، وأعطاه دارا لسكناه ، وزوده بكل ما يحتاج إليه ، وبلغت جملة هدايا المحاكم بأمر الله إليه عشرة آلاف دينار (٢١١) .

أما الطبيب الذي ذكرته كتب التراجم في طبقات الأطباء ، ولم تعطنا اسمه الحقيقي ، فهو الطبيب اليهودي المسحي « العقير النافع » الذي تمكّن من تركيب دواء عالج به « جرح مزمن » كان في رجل المحاكم بأمر الله ، وكان أطباء الخاص بما فيهم ابن مقشر وغيره قد عجزوا عن علاجه ، فلما تمايل المحاكم بأمر الله للشفاء ، أعطاه ألف دينار مكافأة له ، وخلع عليه ، ولقبه « بالعقير النافع » وجعله من أطباء الخاص (٢١٢) .

(٢١١) ————— : نفس المصدر ، ص ٧٣ .

(٢١٢) القبطي : المصدر السابق ، ص ١٧٨ .

— ابن أبي اصبيعة : المصدر السابق ، ص ٥٤٩ .

موقف المسلمين من سياسة الموظفين الديميان

وَجَدَ الْمُسْلِمُونَ أَنفُسَهُمْ فِي مَوْقِفٍ لَا يَحْسَدُونَ عَلَيْهِ ، فَمُعْظَمُ وَظَائِفَ الْاِدَارَةِ الْعُلَيَا فِي الدُّولَةِ كَالْوزَارَةِ وَالْوَسَاطَةِ وَرَئَاسَةِ الدُّوَوَافِينَ وَوَلَايَةِ الْأَقْالِيمِ وَأَطْبَاءِ الْخَاصِ فِي يَدِ أَهْلِ النَّمَةِ ، الَّذِينَ تَعَصَّبُوا لِبْنَى مُلْتَهِمْ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، وَعَيْنُوهُمْ فِي كَثِيرٍ مِنْ فَرُوعِ الْاِدَارَةِ ، وَمَنْعَمُوا الْمُسْلِمِينَ أَصْحَابَ الْأَغْلِبِيَّةِ الْعَظِيمِ فِي الْبَلَادِ مِنْ تَوْلِي تَلْكَ الْمَنَاصِبِ . وَقَدْ تَرَبَّ عَلَى ازْدِيَادِ نَفْوذِ الْمُوَظَّفِينَ الْذَّمِينَ وَاغْرَاقِ الْسَّوَافِينَ بِهِمْ ، وَبِخَاصَّةِ خَلَافَةِ الْعَزِيزِ بِاللهِ ، أَنْ تَوَلَّ شَعُورُ بِالْكُرَاهِيَّةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُوَظَّفِينَ الْمُسْلِمِينَ ، وَتَرَكَ ذَلِكَ صَدَاءً فِي نُفُوسِ الرُّعْيَةِ ، مَا حَدَّا بِالشَّاعِرِ الْحَسَنِ بْنِ بَشَرِ الدَّمْشِقِيِّ أَحَدَ شُعَرَاءِ مَصْرَ ابْنَ خَلَافَةِ الْعَزِيزِ بِاللهِ أَنْ يَصُورَ هَذِهِ الظَّاهِرَةَ بِأَسْلُوبٍ سَاحِرٍ ، فَقَالَ :

تَنْصُرُ فَالْتَّنْصُرُ دِينٌ حَقٌّ عَلَيْهِ زَمَانُنَا هَذَا يَدُلُّ
وَقُلْ بِثَلَاثَةِ عَزَّوْ جَلَّوْ وَعَطَلَ مَا سَوَاهُمْ فَهُوَ عَطَلٌ

فيعقوب الوزير أب وهذا العزيز ابن وروح القدس فضل (٢١٣)

وفي الفترة التي تقلد فيها عيسى بن نسطورس ، ومنشأ ابن ابراهيم ادارة الدواوين في مصر والشام ، أصبح أهل هاتين الملتتين يحكمان الدولة (٢١٤) . ولحق بالرعاية من جراء تنصير الدواوين في مصر وتهويدها في الشام الضرر البالغ ، مما دفع المسلمين إلى التذمر والاحتجاج إزاء سياسة هذين الرجلين اللذين أساءا إلى الرعية (٢١٥) . ولعل فيما أوردته الانطاكي عن عيسى بن نسطورس من أنه « قد رسم أيام نظره رسوماً جائرة وأحدث مكوساً زائداً على ما جرى الرسم بأخذه » (٢١٦) ، ما يوضح النتائج السيئة التي عانت منها الرعية بسبب ازدياد نفوذ الرؤساء النصارى وسيطرتهم على ادارة الدولة في عهد الخليفة العزيز بالله ٠

بل تفاقم الخطر والأدى الذي حاق بال المسلمين في مصر والشام ، وذلك لأن معظم السلطة والنفوذ كانت في أيدي أبناء هاتين الطائفتين الذين جاهروا بروح العداء إزاء المسلمين (٢١٧) ٠

ويروى لنا التويري أن بعض رؤساء المصريين كتب ورقة يعاتب فيها عيسى على قبح فعله مع المسلمين ، وبالغ فيها ، فأجابه عيسى عنها بقوله : « إن شريعتنا متقدمة ، والدولة كانت لنا ، ثم صارت

(٢١٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، الجزء السابع ، القاهرة ١٢٥٢ هـ ، ص ١٧٦ ٠

Mann : Op. Cit., Vol. I, p. 19.

(٢١٤)

(٢١٥) العيني : المصدر السابق ، ج ١٩ ، ورقة ٤٦٦ ٠

(٢١٦) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٨٠ ٠

(٢١٧) ابن ابياس : بدائل الزهور في وقائع الدبور ، يولاق ١٢١١ هـ ، الجزء الأول ، ص ٤٨ ٠

اليكم ، فجرتم علينا بالجزية والذلة ، فمتي كان منكم اينا احسان حتى تطالبونا بمثله ، ان ما نعساكم قاتلتمونا ، وان سالمواكم اهنتمونا ، فاذا وجدنا لكم فرصة فماذا تتوقعون أن نصنع بكم .
ثم تمثل في آخرها بيبيتين :

**بنت سرم غصبوها امهـا ثم داسوها هوانا بالقدم
ثم عادوا وأحكموها فيهم وأناهيك بغضهم قد حكم(٢١٨)**

ورغم أن النويري قد انفرد بذكر هذه الرواية ، فإن معاليم السياسة التي سار عليها ابن نسطورس في مصر وابن القزاز في الشام تؤكد روح التحصّب السائدة بين بعض كبار الموظفين من اليهود والنصارى في تلك الفترة ، الذين عملوا على التمييز بين أبناء الأمة الواحدة . وتفتّت الوحدة الوطنية بين أبناء الشعب الواحد ، الأمر الذي دفع المسلمين إلى التذمر والاحتجاج .

وتنقل لنا المصادر التاريخية رواية خلاصتها أن امرأة اعترضت ذات مرة - طريق العزيز بالله ودفعت إلى مرافقيه برقة ، واختفت بين الناس . فأخذ العزيز بالله الرقة ونظر فيها فإذا هي ظلامة جاء فيها : « يا أمير المؤمنين : بالذى أعز النصارى بابن نسطورس ، وأعز اليهود بمنشا بن ابراهيم ، وأذل المسلمين بك ، لا نظرت في أمرى وكشفت ظلامتى » (٢١٩) ولما طلب العزيز بالله المرأة لم يجدها ، ولما رجع إلى قصره استدعى فاضي قضاته أبا عبد الله محمد بن النعمان ، وكان من خاصته ومن المقربين إليه ، فأعطاه ظلامة المرأة ، وطلب منه ابداء الرأى . فقال

(٢١٨) النويري : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٥٠ .

(٢١٩) النويري : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٤٩ .

ابن النهمان : « مولانا أعرف بوجه الرأى والتدبر » ، وتحسّر
 أن يذكر له ما آلت إليه إدارة البلاد من سوء بالغ من جانب كبار
 الموظفين من أهل الذمة . فنظر إليه العزيز بالله وقال : « صدق
 كاتبها ، ونبهنا إلى ما كنا على غلط فيه وغفلة عنه » (٢٢٠) ، ثم أصدر
 أوامره بالقبض على ابن نسطورس والكتاب النصارى ، كما التي
 القبض على منشا بن ابراهيم وجبة الضرائب اليهود في الشام ،
 وأمر باستناد وظائف الدولة وإدارتها أحجزتها إلى الكتاب المسلمين ،
 ولا يعين أحد من أهل الذمة في الدواوين (٢٢١) .

وتضي بعض المصادر التاريخية في سرد وقائع هذه الرواية ،
 فتذكّر أن سنت الملك بنت الخليفة العزيز بالله تدخلت لدى أبيها ،
 وعرضت عليه التماساً تقدّم به عيسى بن نسطورس يعتذر فيه
 عما يدر منه ، فأعاده الخليفة إلى منصبه بعد أن دفع غرامة قدرها
 ثلاثة ألف دينار إلى خزانة الدولة وبعد أن شرط عليه استخدام
 الموظفين المسلمين في دواوين الدولة وأعمالها ولا يعين نصريساً
 ولا يهودياً بهذه الدواوين (٢٢٢) .

وتکاد تجمع المصادر الإسلامية (٢٢٣) على ذكر هذه الرواية
 الخاصة بعيسى بن نسطورس بصورة أو بأخرى ، بينما أغفلت
 المصادر النصرانية ذكرها ، وتفسير ذلك واضح لا يحتاج إلى دليل .

(٢٢٠) ابن ظافر : المصدر السابق ، ورقة ٥٥ .

(٢٢١) أبو شجاع : المصدر السابق ، من ١٨٦ .

- ابن القلائني : المصدر السابق ، من ٣٣ .

(٢٢٢) سبط بن الجوزي : المصدر السابق ، ج ١١ ، ورقة ١٥٤ .

(٢٢٣) أبو شجاع : المصدر السابق ، من ١٨٦ .

- ابن القلائني : المصدر السابق ، من ٣٣ .

- ابن ظافر : المصدر السابق ، ورقة ٥٥ .

- التويري : المصدر السابق ، ج ٣٦ ، ورقة ٤٩ .

وإذا كان الحاكم بأمر الله قد قبض على فهد بن ابراهيم النصراني وقتله في جمادى الثانى سنة ٣٩٣ هـ ، فإن ذلك يرجع إلى أن أبا طاهر النحوى الكاتب استطاع أن يبلغه شكوى الرعية من تضييق النصارى وغلبتهم على الدولة ، وتعصيهم وأن فهدا هو الذي يقوى شروكتهم ، ويستند إليهم أمر الأموال والدواوين ، وأنه « آفة على المسلمين وعدة النصارى » (٢٢٤) .

وفضلاً عن ذلك فإن أبا تغلب - أخ فهيد - متولٍ .
النفقات كان شريراً مكروهاً من الرعية لسوء سياساته ، مما أدى إلى مقتله هو الآخر بعد مقتل أخيه فهيد بمندة قصيرة (٢٢٥) .

أما أبو سعيد التستري اليهودي (ت ٤٣٩ هـ / ١٠٤٧ م) الذي كان مدبر أمور الدولة في الأيام الأولى لوزارة الفلاحي في خلافة المستنصر بالله فقد استغل نفوذه وصلاته بقصر الخلافة ، وألتحق بمناصب الدولة الكثير من اليهود ، وولاهم الوظائف الكبرى . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل نال المسلمون كثيراً من الظلم والأذى على يديه ، بحيث أنهم كانوا يحلقون « بحق النعمة على بني إسرائيل » ، مما دفع الشاعر المعاصر الرضي بن البابا أن قال :

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقد ملكوا
العز فيهم والماء عندهم ومنهم المستشار والملك
يا أهل مصر انى نصحت لكم تهودوا قد تهود الفلك (٢٢٦)

(٢٢٤) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٠ .

(٢٢٥) ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٦٠ .

(٢٢٦) ابن ميسير : المصدر السابق ، ج ٢ ، من ٢ .

- المقريزى : اتحاظ العناقا ، ج ٢ ، من ١٩٧ .

- السيوطي : المصدر السابق ، ج ٢ ، من ١١٦ .

وقد شارك نصارى مصر اليهود في تقلد أرفع المناصب في خلافة المستنصر بالله مستأثرین بمعظم السلطة والنفوذ ، فكانوا عِمِّ « الملائكة النافذ أمرهم » الذين انحمسوا في حياة الترف والبذخ ، وجُمِعَ الشروات (٢٢٧) .

ولم يؤد ذلك إلى كراهية المسلمين للرؤساء من الموظفين الذين فحسب ، بل أدى إلى وقوع البغضاء والحسد بينهم وبين همّتهم (٢٢٨) .

• ٢٢٧) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٧٥
• ٢٢٨) ————— : نفس المصدر ونفس الصفحة .

الباب الثامن

**أهل الذمة والحياة الاقتصادية
النشاط الزراعي لأهل الذمة**

أهـل الذـمة والجـيـة الـاـقـتـصـادـية

الـنـشـاط الزـرـاعـي لـأـهـل الذـمة

عندما فتح العرب مصر سنة ٢١ هـ / ٦٤٢ م أبقوها على أراضي مصر على حالها (١) ، إذ كتب عمرو بن العاص لأهل مصر عهداً بأنهم آمنون على أموالهم ودمائهم ونسائهم وأولادهم (٢) ، والثابت أن عمراً لم يقسم أراضي المصريين بل تركها في أيديهم وأمنهم عليها (٣) . وأجريت مجرى البلاد المفتوحة صلحًا (٤) كما نعم المصريون كثيرهم من أهل الذمة منذ تأسيس الدولة الإسلامية بأكبر قدر من التسامح ، فكانوا يتصرفون في الأراضي التي تحت أيديهم بالبيع والشراء والوقف ، كما كانوا يتملكون الأراضي بالشروط التي كان المسلمون يتملكونها (٥) .

(١) سيدة كاشف : مصر في فجر الإسلام ، ص ١٩ .

(٢) البراوي : المرجع السابق ، ص ١٨ .

(٣) ——— : نفس المرجع ، ص ١٩ .

(٤) سيدة كاشف : المرجع السابق ، ص ٤٠ .

(٥) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ، ص ٢٨١ .

فإذا انتقلنا إلى عهد الأمان الذي أعلنته جوهر الصقلي على الشعب المصري في شعبان سنة ٣٥٨ هـ ، فإننا لا نجد فيه ما يشير إلى حدوث أي تغيير يذكر في موقف الحكومة الفاطمية من الملكية الخاصة للمصريين بوجه عام (١) .

وبموجب عهد جوهر الصقلي احتفظ قائد الجيش الفاطمي لولاه الخليفة المعز لدين الله بالأوضاع السائدة وقتذاك . وأقر باحترام مبدأ الملكية الخاصة للمصريين في أموالهم المتنقلة والثابتة نظير الطاعة ودفع الضرائب (٢) .

والأرجح أن كل ما حدث هو أن الفاطميين قد استولوا على كثير من أملاك الأسرة الحاكمة قبل عهدهم وكذلك على أراضي الدولة وهذا أمر طبيعي مع توزيع جزء من الأراضي العامة بالأنعام على غيرهم من الآتيا والمغاربة أما على هيئة التملك أو الانتفاع بأيرادها حتى يستمدوا ولاهم ويحتفظوا بآلاعصمهم (٣) .

لكن أهم ما يخصنا في عهد جوهر للمصريين تلك العبارة التي تعهد جوهر بموجبها بتوفير الأمان للجميع ، « واجراء أهل الذمة على ما كانوا عليه » (٤) ، فللمصريين « أمان الله النام العام الدائم المتصل الش شامل الكامل المتجدد المتتأكد على الآيسام وكرور الأعوام » (٥) .

(١) البراوى : المرجع السابق ، ص ٥٢ .

(٢) هشقة : المرجع السابق ، ص ١٩٢ .

(٣) البراوى : المرجع السابق ، ص ٥٢ .

(٤) المقريزى : اقطاع العتنا ، ج ١ . ص ١٠٥ .

(٥) ——— : نفس المرجع ، ص ١٠٦ .

والثابت أن جوهر لم يتعرض لأهل الذمة بسوء ، ولم يتعرض لأموالهم وأملاكهم ، ولم يقع عليهم أى ضرر يذكر ، وتمتعوا برعاية الدولة وحمايتها كغيرهم من المصريين . كما أنه لا يوجد في المصادر التاريخية التي تناولت تلك الفترة ما يشير إلى أن جوهر قد تعرض للأراضي الزراعية والبساتين والحدائق التي امتلكوها في أنحاء البلاد أو التي كانت في حوزة الكنائس والأديرة أو الموقوفة عليها كما أن زراع هذه الأراضي لم تصبهم آية أضرار . وعندما طالب المصريون بتجدد الأمان ، جدده لهم ، كما كتب لأهل الريف والصعيد أمانا ثالثا ونص فيه على إجراء أهل الذمة على ما كانوا عليه (١١) .

ويصفه عامة فانه يتضح من عقود البيع التي أوردها جروهمان والتي يرجع تاريخها إلى العصر الفاطمي ، أن الأملاك العقارية التي امتلكها أهل الذمة قد امتلكوها رقبة ومنفعة وأنهم تصرفوا فيها بالبيع والشراء وفق مصالحهم وبحرية تامة (١٢) .

وعلى الرغم من أن العرب نزلوا إلى ريف مصر وسكنوه مع سكانه الأصليين ، إلا أنه كان هناك كثير من القرى في أنحاء مصر أهلها نصارى ، والعديد من القرى التي غالب على سكانها الأقباط (١٣) ، والواقع أن معظم قرى مصر لم تخل من السكان الأقباط مهما كانت نسبتهم إلى عدد السكان .

(١١) ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر ، ص ١٠٧ .

(١٢) جروهمان : أوراق الباردي العربية ، ج ١ ، ص ١٢٢، ١٢٣ عقد بيع أملاك عقارية رقم ٥٤ .

(١٣) ابن جوبل : صورة الأرض ، ص ١٩٠ .

– الصندي : تاريخ اليوم وبلاطه ، ص ١٣ .

وفي المدن الكبيرة - كأسيوط مثلاً - التي يغلب على سكانها الفلاحون من الأقباط - تنتشر الأراضي الزراعية الواسعة الجيدة الخصوبية ، اذ يذكر ياقوت ان بأسيوط « ثلاثة ألف فدان في استواء الأرض ، لو وقفت فيها قطرة ماء لانتشرت في جميعها ولا يظمه فيها شبر (١٤) . وهذه اشارة الى صلاحية هذه المساحات الواسعة للزراعة وسهولة ريها .

وقد اقطع الخلفاء الفاطميين كبار رجال دولتهم من أهل الذمة انعاماً وتقديراً - الاقطاعات الواسعة . فالثابت ان الخليفة العزيز بالله اقطع وزيره الكفء يعقوب بن كلس اقطاعات كبيرة في مصر والشام مبلغها ثلاثة ألف دينار ، وعندهما مات ابن كلس ترك من الأموال والأملاك والضياع والرابع الشيء الكثير ضمن ثروة تقدر بأربعة ملايين دينار (١٥) .

كما أن فهد بن ابراهيم الذي تولى منصب الوساطة في عهد الحاكم يأمر الله اقطع لنفسه اقطاعات عديدة ضمن ثروة طائلة كانت سبباً لأن يتخذها خصومه - ضمن أسباب أخرى - ذريعة للفتك به (١٦) .

وتحدثنا كتب الرحالة والجغرافيين والمؤرخين عن كثرة الأراضي الزراعية والبساتين التي حول الأديرة ، وكذلك تلك التي في حوزة الكنائس ، فأشاروا إلى كثرة المزارع والبساتين التي

(١٤) ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، من ٢٥١ .

(١٥) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، من ٥ .

- المنادى : المرجع السابق ، من ٨٣ ، ٨٦ .

(١٦) ابن القلنسى : المصدر السابق ، من ٩٩ .

حول دير طور سيناء (دير سانت كاترين) (١٧) ، وعن كثرة الأمالاك الموقوفة على دير أبنا أندونة بشرقى أطفيح حيث كان له « بمصر وقوفات وأملاك عدة » ، كما كانت له باطفيح أملاك وبساتين (١٨) ، كذلك كان لدير سملوط بالأشمونين وقف من الخلفاء مساحته عشرون فدانًا بالإضافة إلى بستان كبير مملوء بأشجار الفاكهة وأنواع الأشجار الأخرى (١٩) أما الدير المعروف بشهران فكان له بستان مساحته ستة أفدنة وأراضي زراعية ، وفيذكر الشیخ أبو صالح في مؤلفه أن الحاكم بأمر الله كان كثير التردد عليه والنزهة فيه (٢٠) .

وحقيقة الأمر أنه كان هناك الكثير من الأراضي الزراعية والبساتين الموقوفة على الأديرة - والثابتة في حساب الدواوين - للصرف منها على الرهبان ومتطلبات هذه الأديرة (٢١) ، كذلك الأرضي الزراعية الموقوفة على دير طور سيناء في إقليمي مصر والشام (٢٢) .

وبوجه عام فإن معظم كنائس وأديرة مصر كانت في حوزتها أراضي زراعية بمساحات شاسعة لدرجة أن أحد التجار الأقباط بمدينة فقط أوقف على أحد الأديرة بها أربعين زوجاً من البقر لتتدور في السوقى الملحقة بأراضي الدير لريها (٢٣) .

(١٧) المقدس : المصدر السابق ، من ٢١٩ .

(١٨) أبو صالح الأرضي : المصدر السابق ، من ٦٩ .

(١٩) _____ : نفس المصدر ، من ١١١ ، ١١٢ .

(٢٠) _____ : نفس المصدر ، من ٦٠ .

(٢١) ابن خليل الله العمري : مسائل الأوصاف في ممالك الامصار ،

من ٢٨٤ .

(٢٢) عبد اللطيف ابراهيم : في مكتبة دير سانت كاترين ، مستخرج من د. مجلة جامعة أم درمان الإسلامية العدد الأول ، من ٢١٤ ، ٢١٥ .

(٢٣) أبو صالح الأرضي : المصدر السابق ، من ١٣٠ ، ١٣١ .

واطمأن النميين على ما بيدهم من أملاك نظر! لسياسة التسامح التي اتبعها الخلفاء الفاطميون في هذا العصر ازاء أهل الذمة - باستثناء فترة من عصر الحاكم بأمر الله . وكيف لا ينتم الفلاحون والملاك من أهل الذمة - خاصة الأقباط - بالمعاملة الطيبة والامتنان على أملاكهم في ظل حكومة تولى رئاسة دواوينها وسيطر على ادارتها لفترات طويلة وعديدة كبار رجال الدولة من أهل الذمة ، مع انحياز هؤلاء الموظفين الى بني ملتهم بصورة لفتت أنظار خاصة وعامة المسلمين (٢٤) .

على أن أملاك الكنائس والأديرة وأوقافها وأجباسها تعرضت للمصادرات العديدة إبان الفترة التي تشدد فيها الحاكم بأمر الله مع أهل الذمة ، وقد يكون سبب هذه المصادرات توثر العلاقات السياسية بين الدولة الفاطمية وبين الدول المسيحية التي لها علاقات سياسية واقتصادية ودينية مع مصر (٢٥) ، وقد يكون سبب ذلك غضب الحاكم بأمر الله على أهل الذمة من موظفي الدواوين الذين أساءوا استخدام السلطة (٢٦) ، كما صودرت بعض المحاصيل كمزارع الكروم الذي كثرت زراعته في أراضي الأديرة والكنائس خوفاً من أن تصنع خمراً أو نبيضاً (٢٧) .

ففي سنة ٣٩٧هـ / ١٠٠٦ م صادر الحاكم بأمر الله جميع ما هو محبس على الكنائس وجعله في الديوان (٢٨) ، بينما أصدر أوامره في شهر رجب سنة ٣٩٨هـ يوزع اليه على أوقاف الكنائس والأديرة الحديثة والعتيقة بمصر وجعلها باسنته ، ثم انفذ في

(٢٤) ماجد : الحاكم بأمر الله : من ٥٨ .

(٢٥) ——— : نفس المرجع ، من ٩٦ .

(٢٦) الانطاكي : المصدر السابق ، من ١٩٤ .

(٢٧) التويي : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٥٧ .

(٢٨) المقرizi : الخطط ، ج ٢ ، من ٢٨٥ .

شهر رمضان سنة ٤٠٠ هـ إلى مدينة دمياط من وضع يده على أوقاف الكنيسة المعروفة بكنيسة العجوز ، وفي سنة ٤٠٢ هـ / ١٠١١ م أقطع أملاك الكنائس والأديرة لعساكر جيشه ووحبها لهم ، كما صادر أملاك القلزم ودير راية ودير طور سيناه وأعطها بعض خواصه (٢٩) ، ثم وهب في ربيع الآخر سنة ٤٠٣ هـ رباع الكنائس وأملاكها وما لها من حاصلات لجماعة من الصقالبة والفراشين والسمدانية (٣٠) ومرة أخرى في سنة ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م يأمر بمصادرة أملاك الكنائس والأديرة وأوقافهما وأحبابهما وتوزيعها على المسلمين (٣١) .

غير أن العاكم بأمر الله تراجع في أواخر أيامه عن هذه السياسة الشديدة وأصدر عدة مرسومات كانت لها أهميتها بالنسبة لأملاك الكنائس والأديرة .

ففي ربيع الآخر سنة ٤١١ هـ أصدر مرسوماً برد الأوقاف والأملاك التي كانت محبسة على دير التصدير من ضيعة ومزرعة ومنية وأرض ونخيل وبستان وأشجار وحدائق فيسائر أنحاء الدولة ، وأمر بالمسامحة بما يجب لبيت مال المسلمين على هذه الأوقاف من خراج وعشرين وخمسمائة « غالمة » (٣٢) .

كما رد ما أخذ من أوقاف كنائس وأديرة بيت المقدس وكنيسة لله وفقاً لرسوم أصدره في جمادى الآخرى سنة ٤١١ هـ بناء على التماس تلقى به البطريرك تغور بطريرك بيت المقدس ، وأمر بنشر هذا الرسوم في جميع أنحاء الدولة ، وأعطي صورة من هذا المرسوم لكل من طلبته من الرعايا الدمين في جميع أقاليم

(٢٩) الانطاكي : المصدر السابق ، من ١٩٤ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

(٣٠) التويري : المصدر السابق ، ج ٢٢ ، ٥٦ ، ٥٧ .

(٣١) الشاعري : المصدر السابق ، ورقة ٦٠٠ .

(٣٢) الانطاكي : المصدر السابق ، من ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

الدولة ، الا ما كان قد بيع ابان فترة مصادرتها خاصة في دمشق وجميع بلاد الساحل وصرف ثمنه في نفقات دار الخلافة للاحتياج لثمنه ، أو ما كان منها قد حصل من يتذوقون شره من المسلمين (٣٣) .

اما بالنسبة لأملاك الموظفين الذين من كبار رجال الدولة ، فان الحاكم بأمر الله كان يصادرها عندما يتعرض هؤلاء للمراجعة والحساب وتشير أصابع الاتهام الى اثنائهم بطرق غير مشروعة او تشير الى سوء استغلال السلطة والنفوذ .

ومثالاً لذلك تجد أن العزيز بالله القاطمي صادر اقطاعات وأملاك وزير ابن كلس عندما غضب عليه (٣٤) وعلى يد الحاكم بأمر الله لقى نفس العقاب ابن عبدون سنة ٣٩٨ هـ / ١٠٠٧ م ، ومعه عدد من كتاب الدواوين - وغالبيتهم من الأقباط - ثم أخلي سبيلهم بعد ذلك (٣٥) كما صادر الحاكم بأمر الله أملاك بعض موظفيه من النصارى سنة ٤٠٢ هـ / ١٠١١ م ابان فترة تشديده في معاملته لأهل الذمة (٣٦) .

غير أن الحاكم بأمر الله وفقاً لرسومه الصادر في صفر سنة ٤٠٤ هـ عاد فسمح لأهل الذمة المهاجرين إلى بلاد التوبة أو العيشة أو بلاد الروم بأن يأخذوا معهم أموالهم ، وصرح لهم بالتصرف فيها حسب اختيارهم آمنين مطمئنين والسماح لهم ببيع أملاكهم وأمتعتهم التي تقل عليهم حملها ، وأمر بعدم التعرض لهم بالأذى أو التفتيش « احسانا إليهم ، ورفقا بهم » (٣٧) .

(٣٣) الانطاكي : المصدر السابق ، من ٢٢٠ ، ٢٢١ .

(٣٤) المريني : الغلط ، ج ٢ ، من ٢٦٢ .

(٣٥) الانطاكي : المصدر السابق ، من ١٩٤ .

(٣٦) ——— : نفس المصدر ، من ٢٠٤ .

(٣٧) ——— : نفس المصدر ، من ٢٠٧ .

ثم ما لبث الحكم بأمر الله أن أصدر في سنة ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م مرسوماً بالغفو العام شمل جميع النصارى بهصر يطمئنهم فيه على أملاكهم وأموالهم وما تحويه أيديهم ، فكان ذلك ضماناً يخدم الاعتداء عليهم وحماية لكافتهم في جميع أرجاء الدولة (٣٨) .

ولم تتعرض ممتلكات أهل الذمة لأية مضائق أو مصادرات في عهد الخليفة الظاهر لعزيز دين الله ، بل أن الظاهر لعزيز دين الله أطلق ما بقي من أوقاف وأملاك الكنائس والأديرة التي لم تكن قد ردت اليها إبان خلافة الحكم بأمر الله (٣٩) . كما أصدر سجلاً في شهر المحرم سنة ٤١٥ هـ بأن يحفظ للربانيعاقبة في مصر ما لهم من « زرع وغلة وعوامل في سائر التواحي » وأن تصنان الأراضي الموقوفة على أديرتهم ، وذلك تأكيداً لسياسة التسامح الدينى التي نعموا بها في عهود الخلفاء الفاطميين الأولين في مصر (٤٠) .

وإذا كانت بعض المصادر تتحدث عن تعرض أملاك ومزارع وأوقاف الكنائس والأديرة وكذلك بعض أملاك الأقباط للمصادرة في خلافة المستنصر بالله الفاطمي وبخاصة في وزارة البازورى . فالواقع أن حالة البلاد كانت سيئة بوجه عام خلال تلك الفترة . فقد شملت الأضطرابات أحوال أهل الذمة والمسلمين على السواء ، نتيجة لاضطراب الأحوال السياسية والاقتصادية التي عمّت البلاد في أواخر النصف الأول من القرن الخامس الهجرى (٤١) .

(٣٨) الانطلاق : المصدر السابق ، ص ٢٣٢ .

(٣٩) ——— : نفس المصدر ، ص ٢٣٥ .

Stern : Op. cit., p. 16.

(٤٠)

(٤١) جاك تاجر : المرجع السابق ، ص ١٤٠ .

ورغم أن الكنيسة قد تناقصت أملاكهـا رويداً رويداً عبر القرون ، الا أن الكنيسة في مصر كانت تملك في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي حوالي أحد عشر ألف ومائتين وخمسين قداناً من الأطيان ، على الرغم من المصادرات العديدة التي تعرضت لها (٤٢) .

وانتشر السكان من أهل الذمة في ريف مصر وقراءها ، فقد كان الكثير من قرى الريف في مصر سكانها نصارى أو يغلب على سكانها الفلاحون من الأقباط (٤٣) ، وهؤلاء امتلكوا الأراضي الزراعية والضياع والاقطاعات ، بجانب أراضي الكتابيين والأذيرية وما حولها من بساتين وحدائق وأراضي زراعية يستغلها رهبان الدين (٤٤) .

وساهم الفلاحون من أهل الذمة بقدر كبير في الانتاج الزراعي ، وأثروا وتأثروا بالسياسة الزراعية لمصر في عصر الفاطميين .

فقد زرعت أملاكهم بالكثير من المحاصيل الزراعية كالقمح ، والكتان ، وقصب السكر ، والزيتون ، والخضروات ، والبنolia ، بجانب بساتين الفواكه مثل الكروم والرمان ، والتفاح ، والكمثرى ، والتين ، فضلاً عن أشجار التفاح ، وزراعة عجائب

(٤٢) بارتولد : تاريخ العصارة الإسلامية ، الطبعة الثانية ، من ٢٢ .

(٤٣) المقدس : المصدر السابق ، من ٢٠٢ .

- ابن حوقل : المصدر السابق ، من ١٥٠ .

(٤٤) ابن حوقل : نفس المصدر ، من ١٤٥ .

- أبو صالح : المصدر السابق . من ٤٩٦-٤٩٧-٤٩٨ .

الزهور والورود وغرس الأشجار (٤٥) ، هذا بجانب المراعي الواسعة حيث اشتغل البعض من أهل النمة برعي الأغنام (٤٦) . ورويت هذه الأرضى إما بعياد النيل ، أو من العيون والآبار ، كما وجدت السوقى الملحقة بأراضى الأديرة وأوقف على بعضها أعداد كبيرة من البقر لتدور في تلك السوقى (٤٧) .

لكن هناك بعض المحاصيل التي تأثر انتاجها بسبب الظروف الاجتماعية والاقتصادية في مصر الفاطمية ومنها محصول الكتان الذى انتشرت زراعته في الأراضي الزراعية المنخفضة والتي تغمرها المياه لأطول مدة (٤٨) .

فرزع الكتان في مناطق الفيوم وأسيوط والمنيا والدلنج حيث تكثر مصانع التسريح ويكثر عمال التسريح من الأقباط ، وكان لابد من الاهتمام بهذا المحصول نظراً للقبال الشديد على المنسوجات الكتانية التي زاد القبال عليها في ذلك العصر (٤٩) . واستثنى هذا العنساوية بزراعة النيلة التي انتشرت زراعتها في الصعيد

(٤٥) ابن صالح : المصدر السابق ، من ٥١ ، ١٢١ ، ١٣٣ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣١ .
ـ الصندى : المصدر السابق ، من ١٣ ، ٣٦ ، ٦٣ ، ٦٩ ، ٧١ ، ١٠٧ ، ١١٦ .

ـ ابن فضل الله العمرى : المصدر السابق ج ١ ، من ٢٠٩ .

(٤٦) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، من ٥٠٥ .

(٤٧) ابن صالح : المصدر السابق ، من ١٣١ .

(٤٨) البراوى : المرجع السابق ، من ٦٨ .

(٤٩) ابن طهير : التضائل الباهرة في محاسن مصر والظاهرة تحقيق مصطفى السقا ، القاهرة ١٩٦٩ م ، من ٦٥ .

الأعلى (٥٠) وكان هذا المحصول لا يقدر على زراعته إلا أغنياء
الفلاحين في الريف (٥١) .

أما قصب السكر فقد توسع المصريون في زراعته وخاصة
في مناطق زراعته في الصعيد والفيوم حيث يكثر الفلاحون من
الأقباط وحيث تكثر معاصر القصب (٥٢) ، وذلك لشدة الطلب
على انتاج السكر والخلوى بسبب سياسة الحكومة الفاطمية التي
كانت ترمي إلى الاهتمام بالأعياد الدينية والمناسبات العديدة التي
أدخلها الفاطميين أو بسبب التوسع في الاحتفال بهذه الأعياد مع
إقامة الحفلات الفخمة في قصور الخلفاء والوزراء وكبار رجال
الدولة ولسد حاجات أفراد الشعب الذي أقبل بشغف على
الاشتراك في هذه الأعياد وتلك المناسبات (٥٣) .

على أنه في خلافة الحكم بأمر الله صيبرت عدة مرايس يتم
تغلق بمفع بيع العسل الأسود وكتير جرار العسل ورميها في
النيل خوفاً من أن تصنع مستكرات (٥٤) ، فقل وجود العسل
واختفى من الأسواق وارتفع سعره لندرة وجوده (٥٥) .

(٥٠) سيده كاشف وحسن محمود : مصر في عصر المطоловين والأخشيديين ،
من ٢٢٩

(٥١) البراوي : المرجع السابق ، ص ٧٠

(٥٢) الصندي : المصدر السابق ، ص ٢٣ ، ٢٩ ، ٦٣ ، ٧٣

- البراوي : المرجع السابق ، ص ٧٠

(٥٣) البراوي : المرجع السابق ، ص ٧٠

(٥٤) القضاumi : المصدر السابق ، ورقة ١٨٠

سيط بن الجوزي : المصدر السابق ، ج ١١ ، رقم ٤٠٢

(٥٥) ابن أبيك : المصدر السابق ، ج ٦ ، رقم ١٧٢

ونعتقد أن مثل هذه الاجراءات قد أدت إلى نقص المساحات المزروعة قصباً ، على أنه بانتهاء عصر الحاكم بأمر الله ازداد الاهتمام بزراعة هذا المحصول الهام ، وليس أدل على ذلك من قول ناصرى خسرو الذى زار مصر فى خلافة المستنصر بالله قوله : « وتنتج مصر عسلاً كثيراً وس克拉ً » (٥٦) .

واشتهر الريف المصرى بكترة مزارع الكروم (٥٧) ، واهتم الفلاحون الأقباط بزراعة الكروم فى أراضيهم ، كما اشتهرت أديرة النصارى بزراعة مساحات واسعة منه سواء داخل بساتين الأديرة أو بالأراضى التى فى حوزة هذه الأديرة لسد احتياجات الرهبان سواء للأكل أو صناعة الزبيب والخمور (٥٨) .

لكن هذا المحصول تعرض للإبادة فى عهد الحاكم بأمر الله وفقاً للقرارات الصارمة التى أصدرها ، فكثيراً ما قطعت أشجار العنب حتى لا يتخذ منه الناس خمراً (٥٩) ، ففى سنة ٤٠١ هـ عندما نصيح محصول العنب وأخذ الناس فى ابتياعه واعتصامه سراً ، أمر الحاكم برمي المحصول فى النيل ومنع الناس من بيعه وأكله (٦٠) ، وفى العام资料二 منع بقطع أشجار العنب وحرث جميع مزارع الكروم بالأراضى المصرية ، ويبالغ التويرى فى ذلك بقوله أنه فى سنة ٤٠٣ هـ « قطعت كروم العنب بأسرها ورميت فى الأرض وديست بالبقر ، وجمع ما كان من الخمر بالمخازن

(٥٦) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، من ٦٠ .

(٥٧) المقريزى : الغلط ، ج ١ ، من ٣٦٧ .

(٥٨) أبو صالح : المصدر السابق ، من ٥١ .

- المقريزى : الغلط ، ج ٢ ، من ١٢٩ ، ٥٠٢ .

- ذوى محمد جسن : كتاب الطالبين ، من ٤٤ .

(٥٩) ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ، من ٩ .

(٦٠) الانطاكي : المصدر السابق ، من ٢٠٢ .

وأهقرقا في البحر » (٦١) ، وقد استتبع ذلك الغاء مكوس دار الفاكهة (٦٢) . وكان معنى صدور قرار خاص بالكرم ومتعباته أن قيودا قد فرضت على زراعة الكرم .

وبانتهاء عهد الحكم بأمر الله ، رخص ابنه الخليفة الظاهر للناس بعصر العنب وشرب الخمور (٦٣) ، بل إن الظاهر نفسه أقبل على شرب المسكرات وباختها (٦٤) .

ولم تصدر الخليفة في عهد المستنصر ما يقيد زراعة الكرم ، بل عاد الاهتمام بزراعته هذا المحصول ، نظراً للتوسيع في انتاج الخمور مع عودة الاهتمام بالأعياد والمناسبات المختلفة ، واقتراح الناس على شرب المسكرات (٦٥) .

(٦١) التويدي : المصندق السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٥٧.

(٦٢) العيني : المصندق السابق ، ج ١١ ، ورقة ٥٩٧.

(٦٣) سبط بن الجوزي : المصندق السابق ، ج ١١ ، ورقة ٥٩٧.

(٦٤) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، من ٣٥٣ ، ٣٥٤ .

(٦٥) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، من ٣٦٣ ، ٣٦٤ .

النشاط الصناعي لأهل الزمرة

شهدت مصر في العصر الفاطمي الأول نهضة صناعية كبيرة لم تشهدها البلاد قبل مجيء الفاطميين إلى مصر ، فقد تنوّعت الصناعات وزاد الانتاج ، واستحدثت الكثير من الصناعات ، كما اهتم الصناع المصريون باتقان الصنعة وجمال الفن (٦٦) .

فقد توافر في هذا العصر من الأسباب والظروف ما أدى إلى قيام نهضة صناعية كبيرة ، إذ نعمت مصر في ظل الخليفة الفاطمي بالاستقلال السياسي الثامن مما عجل بدفع عجلة التطور والتقدم بخطى ثابتة وسريعة لبناء صرح اقتصاد مصرى شاملاً في ظل خلافة قوية (٦٧) عملت على استباب الأمن ونشر العدالة التي شملت جميع فئات الشعب (٦٨) .

(٦٦) سرور : مصر في عصر الدولة الفاطمية ، من ١٩٨ ، ١٩٩ .

- هرزوقي : الذخيرة المنسوجة لمليكتة الفاطمية ، من ١١٨ .

(٦٧) البراوي : البرجع السابق ، من ١٢٠ ، ١٢١ .

(٦٨) المقدس : المصدر السابق ، من ٢١٢ .

وكان معظم الصناع من المصريين سواء أكانوا من بقى على دينه من الأقباط أو من اعتنق الإسلام (٦٩) .

على أن سياسة التسامح الديني التي عاش تحت مظلتها أهل النوبة في مصر كانت من أهم العوامل التي أدت إلى تقدم الصناعات وازدهارها ، إذ انصرف العمال إلى أعمالهم في أمن واطمئنان مما جعلهم يتغافلون بالخلاص في خدمة الدولة في شتى مجالات الانتاج الصناعي ، وخاصة أن الفاطميين حرصوا على توظيف مهرة الصناع الأقباط وغيرهم في دفع عجلة الانتاج الصناعي إلى الأمام لبناء صرح اقتصادي مصر قوي يدعم سياسة الفاطميين ومركزهم في مصر (٧٠) .

ومن خلال نظرة فاحصة نجد أن أهل النوبة في مصر كانت في أيديهم معظم الصناعات المصرية ، وأن الصناع الأقباط كانوا هم المهيمنين على تلك الصناعات ولهم كانت اليد الطولى في كثير من فنون ذلك العصر (٧١) .

(١) صناعة النسيج :

من الصناعات التي ازدهرت في مصر الفاطمية صناعة النسيج ، تلك الصناعة القوية التي حمل لواءها أقباط مصر لمدة طويلة (٧٢) ..

(٦٩) سيدة كاشف : مصر في مجر الإسلام ، من ٢٤٢

(٧٠) زكي محمد حسن : كنوز الفاطميين ، من ٨٠-٨٠

- البراوى : المرجع السابق ، من ١٢٠ ، ١٢١

(٧١) مرزوق : التراثة المنسوجة في الأقمشة الفاطمية ، من ١١٨ ، ١١٩

(٧٢) حتى : تاريخ العرب ، ج ٢ ، من ٧٤٧

وكان صناعة النسيج تتمركز في المدن التي كان الأقباط يشكلون فيها غالبية كبرى ، ومن هذه المدن : تنيس ، والاسكندرية ، ودمياط ، وشطا ودبق ، ودميرة ، وتونة ، والفرما ، والأشمونين ، والبهنسا ، وأخيم وأسيوط ، وغيرها من مراكز صناعة النسيج في مصر الفاطمية (٧٣) .

وكان المنسوجات الكتانية تنبسط في عديد من المدن المصرية لاسيما تنيس ، ودمياط ، وشطا ، ودبق ، ودميرة ، وتونة ، والبهنسا (٧٤) وبلغت أحجام درجة كبيرة في صناعة المنسوجات خاصة الصوفية منها والحريرية (٧٥) ، أما أسيوط فكانت شهرتها صناعة المنسوجات الصوفية من الصوف المصري الذي اشتهر به الصعيد الأعلى ، وكانت منسوجات أسيوط الصوفية ذات ملمس ناعم حتى أن الإنسان ليظن أن تلك المنسوجات من الحرير (٧٦) ، أما الثياب المنسوجة في الاسكندرية فقد اكتسبت شهرة واسعة وكانت تصنع في أغلبها من الكتان (٧٧) .

وأخذ الفاطميون من المنسوجات الفاخرة التي اشتهرت بها مصر وسيلة لتحقيق مكاسب سياسية ودينية ، وذلك بنسج عبارات خاصة على الملابس تشيد بمركزهم الديني والسياسي ، وكان الأكتار من توزيع الكسوات على رعايا الدولة وغيرهم يساعد إلى حد كبير على

(٧٣) المقى : المصادر السابق ، ص ٢١٢ .

- المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ١٧٦ .

- ذكر محمد جسن : تكون الفاطميين ، ص ١١٦ ، ١١٧ .

(٧٤) ابن حوقل : المصادر السابق ، ص ١٤٣ .

(٧٥) ابن ظهيرة : المصادر ، ص ٦٣ .

(٧٦) ناصرى خسرو : المصادر السابق ، ص ٧٠ ، ٧١ ، ١١٧ .

(٧٧) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٦٢ .

تحقيق هذه الأهداف ، فلقد كانت الخلافة الفاطمية تسعى من وراء ذلك إلى مكاسب أدبية ومادية باستهلاك الناس واجتذاب قلوبهم واكتساب الرأي العام اليهم عن طريق الانعصار والتكرير لرجالتها (٧٨) .

وما ساعد على تقدم صناعة النسيج تلك العلاقات التجارية النشطة بين مصر والبلاد الأجنبية ، وكثرة الطلب على مختلف أنواع النسيج المصري (٧٩) ، هذا فضلاً عن اهتمام الدولة بالاشراف الدقيق على هذه المصانع (٨٠) ، واهتمامها بتوفير الخبرة المدربة ، وتوفير الظروف الملائمة للصناع الأجانب الذين كانوا يعملون بها (٨١) ، كما كان الخلفاء الفاطميين يشجعون عمال النسيج المهرة بمنحهم المكافآت التشجيعية . ويدرك ناصرى خسرو على سبيل المثال : « أن عاملًا نسج عمامة السلطان فأمر له بخمسيناتة دينار ذهب مغربى » ، مكافأة له لدقة صنعتها وجمال منظرها (٨٢) ، كما اهتم كبار رجال الدولة بتشجيع هؤلاء الصناع مما أدى في النهاية إلى زيادة الانتاج وحسن الصنعة (٨٣) .

ولقد اهتمت الدولة بهذه الصناعة نظراً لأهميتها للاقتصاد المصرى ولبيت مال الدولة نظراً لما يجيئ عليها من ضرائب (٨٤) .

(٧٨) البراوى : المرجع السابق ، ص ١٢٦ ، ١٢٧ .

- زكي محمد حسن : كنز الفاطميين ، من ١٧٧ ، ١١٨ .

(٧٩) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، من ٢٨ ، ٣٩ ، ٤٠ .

(٨٠) البراوى : المرجع السابق ، من ١٢١ .

- سينكة : دليل المتطف القبطي ، ج ١ ، من ١١٨ .

(٨١) المقريزى : المصدر السابق ، ج ٤ ، من ٤٤٣ .

(٨٢) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، من ٢٨ .

(٨٣) زكي محمد حسن : المصدر السابق ، من ٨٠ .

(٨٤) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، من ٤٠ .

وقد ساعد توفر خامات النسيج في مصر على ازدهار هذه الصناعة ، فالكتان تتوفر زراعته في دير مصر ، والصوف المصري يتوفر في مناطق الفيوم وأخميم ، وأسيوط لكررة تربية الأغنام على أيدي القبائل العربية التي نزلت وسكنت في تلك المناطق (٨٥) .

لكل هذه العوامل ازدهرت صناعة النسيج ، وأنتج النساجون الأقباط أفسر أنواع المنسوجات الكتانية والصوفية والحريرية والقطنية التي ليس في « جميع الأرض ما يداريها في القيمة والحسن والنعمة والشرف والرقابة والدقّة » (٨٦) ، وبلغت تلك المنسوجات درجة من الرقى أذهلت المؤرخين والرجالات الذين زاروا مصر في هذه الفترة (٨٧) ، وقد حملت هذه المنسوجات الكثير من أسماء المدن المصرية التي صنعت بها ، فهناك الثياب التنيسية ، والشطوية ، والدمياطية ، والدبيقى (٨٨) والشرب الاسكندرى (٨٩) ، والقمash القيسي والبهنساوي (٩٠) .

فقد اكتسبت مدينة تنيس على سبيل المثال شهرة عالمية بفضل مهارة عمال النسيج الأقباط الذين عرفوا « بحسن ذيهم ولطافة صناعتهم (٩١) ، فقد أضفوا على مدينتهم مكانة مرموقة بين المدن

(٨٥) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، من ٧٠ .

- البراوى : الرجع السابق ، من ١٣٥ .

(٨٦) ابن حوقل : المصدر السابق ، من ١٤٣ .

(٨٧) المقدس : المصدر السابق من ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

- ناصرى خسرو : المصدر السابق ، من ٧٠ ، ٧١ .

(٨٨) ابن دعمق : الاتتمصار لواسطة عند الامصار ، ج ٥ ، من ٧٩ .

(٨٩) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، من ١٦٢ .

(٩٠) البراوى : المرجع السابق ، من ١٣٣ ، ١٣٤ .

(٩١) ابن دعمق : المصدر السابق ، ج ٥ ، من ٧٨ .

الصناعية الكبرى في ذلك العصر . ولا يبالغ ناصرى خسرو عندما يذكر « أن سلطان الروم كان أوفد رسولاً ليعرض على سلطان مصر أن يعطيه مائة مدينة على أن يأخذ تينيس فلم يقبل السلطان ، وكان عقده من هذه المدينة القصب والبوقلمون » (٩٢) ، وهما من أهم وأفخر منسوجات تينيس .

وإذا كانت هذه مكانة مدينة تينيس التي كانت تضم حوالي الخمسين ألف نسمة من السكان (٩٣) وآلاف المناسج ، فماذا عن دمياط التي كانت « أحذق صناعاً وأرفع بزا ، وأنظف عملاً » (٩٤) .

وأما أسيوط فكان يصنع بها « عيام من صوف الخراف لا مشيل لها في العالم (٩٥) ، هذا بينما كانت تصدر منسوجات أخيمى إلى أقصى البلاد » (٩٦) .

ولا يسعنا أمام مهارة هؤلاء النساجين وجودة صناعتهم إلا أن نذكر أهم أنواع تلك المنسوجات التي انتجتها آلاف المصانع التي عمل بها الصناع الأقباط ومنها :

الدبيقى :

وهو ذلك النسيج الحريرى الذى ينسب إلى قرية دبيق ، التى اشتهرت بالثياب المثقلة والعمائم الشرب الملونة التي كان يبلغ طول العمامة منها ذراع وتبلغ قيمتها خمسمائة دينار بوى الحرير

(٩٢) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، من ٢٨ .

(٩٣) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، من ٣٨ .

(٩٤) المقصى : المصدر السابق ، من ٢٠٢ .

(٩٥) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، من ٧ .

(٩٦) ابن ظهيره : المصدر السابق ، من ٦٣ .

والغزل (٩٧) ، كما كانت الشياط الدبيقية من أهم منسوجات مدينة اسيوط التي غلب على سكانها الاقباط (٩٨) .

ولشهرة الشياط الدبيقية (الدبيقى) أطلق هذا الاسم على منسوجات أخرى مثل الدمشق والنسيج الحرير المشجر والشياط الكتانية ، ولجودة الشياط الدبيقية أطلق هذا الاسم على احدى قرى بغداد اسم دبقيه ، وكانت منسوجاتها تباع على أنها من انتاج مصانع دبقي المصرية ليقبل الناس على شرائها (٩٩) .

القصب :

وهو نسيج من الكتان يمتاز بالنعومة الفائقة ، وكان ينسج بتقنيات القصب الملون من عمامات ودوقيات وما يلبس النساء ، ولا ينسج مثل هذا القصب في جهة ما غير تنبيس (١٠٠) ، أما القصب الأبيض فقد اشتهرت بصناعته دمياط ، ويبلغ قيمة الثوب الأبيض وليس فيه ذهباً ثلاثة دينار (١٠١) .

الشرب :

ويطلق على هذا النسيج اسم الشرابي ، وهو نوع من الحرير أو الكتان النقي الفاخر ، واشتهرت مدینتا دمياط وتنيس بصناعة أجود أنواع الشروب الفاخرة (١٠٢) .

(٩٧) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، من ٢٢٥ .

(٩٨) ياقوت : المصدر السابق ، ج ١ ، من ٢٥١ .

(٩٩) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، من ٢٢٥ .

- الباروى : المرجع السابق ، من ١٣٢ .

(١٠٠) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، من ٢٢٥ .

(١٠١) ابن طهيره : المصدر السابق ، من ٥٣ ، ٥٤ .

(١٠٢) ابن حوقل : المصدر السابق ، من ١٤٣ .

- كتاب الاستبصار في عحائب الاصمار ، تحقيق د. سعد زغلول ، من ٨٧ .

كما كان الصناع الأقباط يصنعنون بدبيق العمائم الشرب المذهبية وفيها رقمات منسوجة بالذهب . وقد استحدثت هذه العمائم لأول مرة في خلافة العزيز بالله الفاطمي سنة ٩٧٥ هـ / ٣٦٥ م (١٠٣) ، وكان في « ثياب الاسكندرية ما يباع الكتان منه اذا عمل ثيابا يقال لها الشرب ، كل زنة درهم فضة ، وما يدخل في الطرز قياب بنظير وزنه مرات عديدة » (١٠٤) .

البدنة :

وهو اسم ذلك الثوب الثمين الذي كان يصنع للخلفاء ، ويقوم بصناعته نساج مهرة تخصصوا في صنع ملابس الخلفاء ، ولا يدخل في هذا الثوب من الغزل - سداء ولحمة - غير أوقيتين ، وفيه من الذهب أربعمائة دينار ، قد أحكمه صانعه باتقان بالغ بدون حاجة إلى تفصيل أو خياطة غير الجيب والنبائق ، وبلغ قيمة الثوب الألف دينار (١٠٥) .

وكان ثياب البدنة ينسج في مصانع الحكومة ، ولا يصرح ببيعه ، ولقد حاول أحد ملوك فارس أن يشتري بدننة فأرسل أعوانه إلى تنيس بعشرين ألف دينار لكي يحصل على ثوب من البدنة ، فمكثوا بتنيس عدة سنوات ، ولكنهم فشلوا في الحصول على بدننة واحدة من كسوة الخلفاء (١٠٦) .

(١٠٣) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، من ٤٢٩ .

(١٠٤) ——— : نفس المصدر ، ج ١ ، من ١٦٢ .

(١٠٥) كتاب الاستبصار : من ٨٧ .

(١٠٦) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، من ٢٨ .

القباطى :

وهو نسيج من الكتان أو التيل ، وكان العرب يطلقون على المسروجات اسم القباطى ، ويرى بعض المؤرخين أن هذه التسمية نسبة إلى قبط مصر الذين اشتهروا بمهارتهم في صناعة النسيج (١٠٧) ، ومن القباطى البيض كان ينسج أجزاء من كسوة الكعبة (١٠٨) .

البوقلمون :

أحد أنواع المسروجات التي اشتهرت بها مصر وبخاصة مصانع النسيج في تيس ، وينذكر ناصري خسرو أن البوقلمون لم يكن ينسج في مكان آخر في ذلك العصر إلا في مدينة تيس . وهذا القماش يتميز بالوانه البراقة ، ويظهر في الوان مختلفة حسب تعرضه لضوء الشمس والوضع الذي يكون فيه واختلاف ساعات النهار ، وكان يصدر إلى جميع بلدان الشرق والغرب لشدة الطلب عليه (١٠٩) .

العتابى :

وهو أحد أنواع المسروجات الحريرية ، وكان هذا النوع ينسج بمدينة بغداد حيث كانت تنسج العتابية ، ثم استحدث هذا النسيج في مصر وصنع في عصر الفاطميين (١١٠) .

(١٠٧) ميدة كاشف : مصر في فجر الإسلام ، من ٤٦٩ .

(١٠٨) بيبرس الدوادار : المصدر السابق ، ج ٦ ، درقة ٢٩٠ .

(١٠٩) ناصري خسرو : المدن وأساليق ، من ٢٨ .

وسمى البوقلمون أيضًا باسم القلنون : وسمى بها بعض المؤرخين أبو قلمون وكتبها آخرؤث للبيهقي وهو لمدة زيتانية الأصل ، وهذا القسم يُصنَّع في بلاد اليونان ثم انتقلت صناعته إلى مصر (نقلاً يرجى - الواقع السابق ، من ٣٢٦ .

(١١٠) البراوى : المرجع السابق ، من ١٣٣ .

وكان للاتصال التجارى مع البلاد المجاورة وسفر بعض المصريين إلى تلك الدول ، ومجىء التجارة الأجنبية إلى مصر أثره الكبير في تشجيع الصناع على اقتباس أنواع ممتازة وتقليد أجود أنواع الأقمشة التي كانت ترد إلى البلاد المصرية مما يتفق وميل الفاطميين والشعب المصرى . ولذلك عرفت مصر في العصر الفاطمي أنواعاً جديدة من المنسوجات ، مثل الخسروانى ، والطميم ، والأرمنى ، والكردوانى والسيندى ، والتي تدل بعض أسمائها على أصلها الأجنبي (١١١) .

وقد اشتهرت تونس بعمل قماش الخيام (١١٢) ، كما اشتهرت الفيوم بصناعة الخيش ، وسمالوط بعمل المنسوجات من شعر الماعز ، والاسكندرية بالحرير السكندرى (١١٣) .

وكان الرهبان بالأديرة ينسجون الأقمشة ويحيكونها وفقاً لاحتياجاتهم من أنواع الصوف والكتان اللازمين لعمل الملابس الخاصة بهم ، كما أن الراهبات اشتغلن بتطريز الملابس الكهنوتية ، وكذلك آخر الملابس الازمة لدفن الموتى كما جرت به عادة الأقباط عند دفن موتاهم (١١٤) .

وإذا كان الخلقاء الفاطميون قد أثروا دور الطراز . «- مصانع النسيج » في كثير من المدن المصرية ، وأنهم استخدموها الصناع الأقباط في هذه الدور ، فقد قامت إلى جانب دور الطراز الحكومية مصانع أخرى خاصة لنسج الأقمشة التي يستعملها القبط (١١٥) .

(١١١) البراوى : المرجع السابق ، من ١٣٤ .

(١١٢) المقريزى : الخطيط ، ج ١ ، ب ، من ٤٦٨ .

(١١٣) البراوى : المرجع السابق ، من ١٣٦ .

(١١٤) بنيكية : المرجع السابق ، ج ١ ، من ١١٨ .

(١١٥) ديمائد : المدونة الإسلامية ، من ٢٨ .

واهتم الصناع الأقباط بالزخرفة المنسوجة على الأقمشة في العصر الفاطمي الأول ، وكانت أهم الألوان المستعملة وبالذات على الأقمشة الح猩وية الأزرق والأسود والأحمر والأصفر والبني والأخضر . وكانت الوحدات الزخرفية هي بعینها تلك الوحدات التي كان يستعملها النساج قبل العصر الفاطمي ، وكل ما هنالك من فرق هي أنها صارت ترسم بدقة ومهارة تدل على رقي الذوق وتقديم الفن (١١٦) .

واشتغلت هذه الوحدات الزخرفية على رسوم حيوانات أو طيور أو أشكال آدمية (١١٧) ، على نساجي هذا العصر كانوا أميل إلى استخدام صور الحمامات في زخرفة المنسوجات فأكثروا من رسملها وتفننوا في وضعها ، وترجع أسباب تفضيل هذا الطائر على غيره إلى أن معظم عمال النسيج كانوا من الأقباط ، وأن هذا الطائر كان محبياً إليهم ، ويرمزون به إلى الروح القدس ، أو إلى أنه ربما تكون هناك نسمة علاقة وطيدة بين الاكتثار من استعماله في الزخرفة وبين سياسة التسامح الدينى التي عاش تحت مظاهرها جموع أهل الذمة في ذلك العصر (١١٨) .

وكان الاتجاه العام في زخرفة المنسوجات في بداية العصر الفاطمي الأول يرمي إلى العناية بالزخارف الخطية التي كانت تمتاز بجمالها وتنوعها ، بحيث يكون للزخرفة الخطية مكان الصدارة على الأقمشة ، ثم تأتي زخرفة الرسوم في محل الثاني ، إلا أنه في خلافة المحاكم بأمر الله وزعمت العناية بين الخط والزخرفة فكانا متساوين تقريباً في الاتساع ، على أن ذلك الحال لم يستمر طويلاً .

(١١٦) مرتوق : المرجع السابق ، من ١١٦ .

(١١٧) البرادعي : المرجع السابق ، من ١٢٨ .

(١١٨) مرتوق : المرجع السابق ، من ١١٨ .

فقد زاد الاهتمام مرة أخرى بالزخرفة ، فرسمت الزخارف أكبر في الحجم من الكتابة ، موضع النساج الكتابة أسفل الزخرفة ولم يجعلها تمتد امتدادها كما كان الحال عليه من قبل (١١٩) .

واستمر التأثير القبطي على الفن الإسلامي في الزخرفة على المنسوجات قائما ، وظل أثره واضحا حتى القرنين الخامس وال السادس الهجري / الحادى عشر والثانى عشر الميلادى والى أن كانت السيادة للخط النسخ ، فقدت رسوم الحيوانات والطيور خواصها ، وصارت إشكالاً تقليدية لا تمت إلى الطبيعة بصلة كبيرة (١٢٠) .

وكانت أسماء الخلفاء تنسج في الأقمشة الشميّة بخيوط الذهب والفضة أو الخيوط المتعددة الألوان تعجينا لهم ودليلًا على أنها صنعت في عهدهم ، وشارقة من شارات الملك ، ووثيقة لمن خلعت عليه للدلالة على درجة ووظيفته وإشارة إلى رضاء الخليفة عنه (١٢١) .

كما كان الخليفة يسمح بكتابة اسم وزيره في إطار تكريمه له (١٢٢) ، وأحياناً كانوا يكتبون اسم المشرف على العمل في دار الطراز ، ولكن قلماً كانوا يذكرون اسم الصانع نفسه (١٢٣) .

(ب) الصناعات الخشبية :

بلغت الدقة في الحفر على الخشب والصناعات الخشبية

(١١٩) ——— : نفس المرجع ، من ١٢٢ .

(١٢٠) ديماند : المرجع السابق ، من ٢٨ .

(١٢١) ذكي محمد حسن : كنز الماطفين ، من ١١٧ : ٤٤٨ .

(١٢٢) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، من ٢٨٤ .

(١٢٣) البداوي : المرجع السابق ، من ٤٣٩ .

مرحلة ممتازة على يد الصناع الأقباط في عصر الفاطميين ، إذ كانت الريادة في هذا الميدان لأهل البلاد من القبط (١٢٤) .

وسبع الخلفاء الفاطميين هؤلاء الصناع على الارتفاع بمستوى صناعاتهم نظراً للحاجة الشديدة إلى تلك الصناعة وهذا الفن ، وساعد على تقديم الصناعات الخشبية وازدهارها في عصر الفاطميين ما عرف عنهم من تسامح ديني عظيم (١٢٥) .

ونظراً لعدم صلابة الأخشاب المحلية كالجميز والسنط والنبق والسرور فقد استوردت مصر الأخشاب الصالحة لهذه الصناعة من أوروبا (١٢٦) ، وذلك عن طريق تجارة أمalfi وجنة وبالبندقية (١٢٧) ، كما استوردت خشب الأرض والصنوبر من الشام وأسيا الصغرى ، أما خشب الأبنوس فكان مصدره السودان ، كما استوردت مصر خشب التك من الهند وشبه جزيرة الملايو (١٢٨) .

وبعد الصناع المصريون في استخدام الأخشاب وبخاصة في عمل السقوف والأبواب والنوافذ والمحاريب والقباب وما بها من

(١٢٤) سيفك : المرجع السابق ، ج ١ ، من ١٤٥ .

- على حسني الغريوطلي : مصر العربية الإسلامية ، من ٢٢٩ .

(١٢٥) ذكي محمد حسن : ثقون الإسلام ، من ٤٥١ - ٤٥٢ .

- — : كنوز الفاطميين ، من ٢٠٦ .

(١٣١) حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ، ج ٤ ، من ٣٩٤ .

(١٢٧) عطية القومي : تجارة مصر في البحر الأحمر منذ نصر الإسلام حتى سقوط الدولة العباسية سنة ٦٥٦ هـ ، رسالة دكتوراة من جامعة القاهرة سنة ١٩٧٣م ، غير مطبوعة ، من ١١٠ .

(١٢٨) حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ، ج ٤ ، من ٣٩٤ .

خشوات جميلة (١٢٩) ، بجانب تصنيع كافة الأثاثات الفاخرة والتحف الخشبية الرائعة ٠

ونقش الصناع الاقباطي في الكنائس القبطية نفس الزخارف التي نراها على خشب الجوامع والأثاث الإسلامي . فعلى المتحف القبطي قبة مذبح أصلها من كنيسة المعلقة ، وعلى جزئها السفلي عقود وصلبان في فروع نباتية محفورة حفرًا دقيقًا تذكر بالزخارف الجصبية في الجامع الأزهر ، مما يدل على ازدهار صناعة الخفر على الخشب آبان عصر الفاطميين على يد الصناع والفنانين من الأقباط المسلمين على حد سواء (١٣٠) ٠

وازدهر هذا الفن ازدهارا يثير الاعجاب في عصرى الظاهر المستنصر وانتجت أيدي الصناع المصريين نماذج لصناعة النقش على الخشب تدل على أن هذا الفن بلغ أقصى درجات الفن والرقى في عصر الفاطميين (١٣١) ٠

وكان للصناع والفنانين الاقباط أربع طرق لزخرفة الأخشاب منها : النقوش البارزة ، والنقوش بطريقة التفريغ ، وثالثة بتعشيق الخشب وتطعيمه بالعاج ، ورابعة بالخرط ، كما كانوا أيضًا مهرة في التطعيم بالعاج والصدف ، وطريقتهم في ذلك أن ينقشوا قطعة العاج أولاً على انفراد ، ثم يحيطونها في إطار من الخشب قبل تركيبها في الموضع المعد لها (١٣٢) ٠

(١٢٩) البراوى : المرجع السابق ، ص ١٧٠ ٠

(١٣٠) ذكى محمد حسن : تكون الملائكة ، ص ٣٠٤ ٠

(١٣١) ——— : نفس المصدر ، ص ١٦٧ ٠

(١٣٢) سعيدة : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٤٥ ٠

ومن أبدع الأمثلة الباقيّة للتّحف الخشبيّة - الحفر على الخشب - في بداية العصر الفاطمي حجاب الهيكل في كنيسة السيدة بربارة بمصر القديمة - وهو معرّض الآن بالمتّحف القبطي بالقاهرة . ومع أنه لا مجال للشك في أنه من صناعة الفنانين الأقباط . إلا أننا نرى في زخارفه خصائص الأسلوب الفاطمي ، فالحجاب يتألّف من خمس وأربعين حشوة خلاف دائرة القبة العليا ، والزخارف المحفورة متّنوعة الموضوعات لطّيور وحيوانات مفترسّة وغزلان وأشخاص ومناظر للصيد والفنص ، يتخلّل تلك الزخارف صلبان ، بجانب تفريقات نباتية تشكّل مع غيرها من الرسوم وحدات ذخرفيّة كاملة ، وتعتبر حشوات هذا الحجاب أجمل ما يبقى من صناعة خشبيّة في العصر الفاطمي ، وأصدق مثال على ازدهار صناعة الحجور في الخشب على يد الصناع من القبط في عصر الفاطميين (١٣٣) : ولقد بقيت الرسوم الحيوانيّة والموضوعات الأدمعيّة التي شاعت في الحفر على الخشب في بداية العصر الفاطمي مستمرة خلال القرن الخامس الهجري / الحادى عشر الميلادي ، وفي مجموعة الألواح الخشبيّة والأبواب التي عثر عليها في مارستان وقبة قلاوون وابنه الناصر محمد والتي يرجع تاريخ تصنيعها إلى العصر الفاطمي الأول ، نرى زخرفة حافلة بالرسوم المختلفة ، لكن الحفر والرسوم في تلك المجموعة أقرب إلى الطبيعة ، وأكثر اتقاناً من مثيله في أوائل العصر الفاطمي وأقرب إلى الواقعية ، ونرى تأثير الأسلوب القبطي في الفن واضحًا كما هو في استخدام الرسوم الأدمعيّة والحيوانات والطيور (١٣٤) .

(١٣٣) — : نفس المرجع ، من ١٤٧ .

- ديماند : المرجع السابق ، من ١١٩ .

- ذكي محمد حسن : ثقافة الإسلام ، من ٤٥٢ .

- — : كنوز الباطليّين ، من ٢٤٦ .

(١٣٤) ديماند : المرجع السابق ، من

وإذا كان الكثير من الصناع الأقباط يربعوا في الصناعات الخشبية ، فإنه مما يجدر ذكره أن الرهبان بالأديرة قد اشتغلوا بالتجارة لسد احتياجات الدير من الصناعات الخشبية (١٣٥) .

فإذا ما انتقلنا إلى الريف فاننا نجد ان المهيمنين على الصناعات الخشبية بالقرى هم التجارون من القبط ، فقد ورث هؤلاء الأقباط عن أجدادهم سر هذه الصناعة واحتذروا مدة طويلة تصل إلى القرن الثامن عشر الميلادي / الثاني عشر الهجري (١٣٦) ، وكانوا يستخدمون أخشاب الأشجار المحلية في صناعة ما يلزم أهالي الريف من أدوات البيت وعمل السوق والطواحين والمحاريث والتواجرج والمعاصر والأتوال والمغازل وغيرها من الآلات الريفية (١٣٧) ، وإلى عهد قريب كاد أن يسكن كل نجاري الفري المصرية من الأقباط (١٣٨) .

(ح) صناعة المعادن والجاج :

برع المصريون في صناعة المعادن وسيكها وزخرفتها إذ كانت هذه الصناعة من الصناعات التي عرف دقائقها وأسرارها قبط مصر منذ عهد الفراعنة ، وغنمهم أحد المسلمين في وادي النيل سر هذه الصناعة التي بلغت أرقى درجات الفن والجمال في القرنين الرابع والخامس الهجريين ؛ فقد عشر على كثير من التحف والأدوات العدلية ذات الأغراض المختلفة والتي ترجع إلى عصر الفاطميين ، وسواء أكانت من عمل الفنانين المسلمين أو الأقباط فانها دليل لا يقبل الشك على

(١٣٥) سيدة كاشف : مصر في فجر الإسلام ، من ٤٥٩ :

(١٣٦) سمسة : المرجع السابق ، ج ٥١ ، من ١٤٥ -

(١٣٧) البداوي : المرجع السابق ، من ١٧٦ -

(١٣٨) سبيكة : المرجع السابق ، ج ١ ، من ١٤٥ -

ازدهار هذه الصناعة في مصر الفاطمية (١٣٩) ، وتنوّعها عنها كانت عليه في عصر الولاة (١٤٠) .

وعرف عن الصناع من المصريين وبخاصة الأقباط مهاراتهم الفائقة في استخدام الذهب والفضة في صنع أدوات الترف والحللى والسروج والسيوف والصاحف المذهبة والملابس الملوثة وكثير من التحف التي رصمت بال أحجار الكريمة ونقشت عليها زخارف جميلة ، وكلها تنم عن دقة الصنعة وجمال الفن ، ورواج صناعة الذهب والفضة وتقديمها ورقيها في ذلك العصر (١٤١) ، والدليل على ذلك ما وجد بخزائن القصور الفاطمية ، وخزانة كبار رجال الدولة من تحف وذخائر من الذهب والفضة .

وكثير استخدام النحاس في صناعة الأواني والأدوات المنزلية ، فقد اكتشفت مجموعة من المصنوعات النحاسية في خرابات الفيوم ترجع إلى القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي تشمل على أدوات نحاسية للمائدة من صينية وأطباق نحاسية ووعاء للفاكهة (عليها رسوم أسماك ونقوش قبطية نقش عليها اسم صاحبها وتاريخ صناعتها) ، كما عثر على دست من النحاس (عليه رسوم طيور بارزة وعلى غطائه صورة السيد المسيح مصلوبا) ، وعلى ابريقين من نحاس نقش على واحد منها رسم صليب ، وعلى الآخر أشكال نباتية وعلى الغطاء رسمت حروف قبطية ، هذا بجانب قدرتين من النحاس أيضا على واحدة منها نقوش قبطية وعلى الأخرى نقوش قبطية وتركية ، وكذلك وجدت عدة مسارات نحاسية .

(١٣٩) ذكي محمد حسن : كنوز الفاطميين ، من ٢٦٢ .

(١٤٠) البرلواي : المرجع السابق ، ج ١٧٢ .

(١٤١) سميكة : المرجع السابق ، ج ١ ، من ٩١ ، ٩٠ ، ٨٩ .

- حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ، ج ٤ ، من ٣٩٥ .

ومن بين هذه المجموعة قبة مذهب من نحاس ترتكز على أربعة أعمدة على كل منها صليب مفرغ ، وعلى القبة والصلبان نصوص قبطية باسم الصانع والتاريخ ، كما وجدت بعض الأبواب وقد استخدم الصانع معدن النحاس في عمل النقش عليها ، وكل هذه الأدوات النحاسية والنقوش التي عليها تعطينا دلالة واضحة على مهارة الصناع من الأقباط الذين برعوا في هذه الصناعة (١٤٢) .

كما استخدم هؤلاء الصناع البرونز في صناعة المبادر وصنایير الأواني وغير ذلك من الأشياء الدقيقة التي عملت بعضها على هيئة الحيوان أو الطير (١٤٣) .

وفي خرائب الفيوم عشر على عدة أبواب من الخشب صنعت إطاراتها من البرونز وعلى بعضها رسوم بارزة من البرونز لصور الملائكة والقديسين ، ورسوم صلبان وعليها نقش بارزة باللغة القبطية واليونانية ، وعليها اسم الصانع ، ومعظمها يرجع إلى القرنين الرابع والخامس الهجريين ، ويرى علماء الآثار الإسلامية أن التحف القبطية العادمة لا تختلف عن التحف الإسلامية إلا في اضافة صليب أو نص قبطي إلى زخرفتها (١٤٤) .

وعرف عن الصناع المصريين دقتهم ومهارتهم في التكفيت ، إذ وجدت في القاهرة عدة حوانين لعمل الكفت وهو ما تطعم أو تعلق

(١٤٢) سبيكة : المرجع السابق ج ١ ، من ٩٠ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٣ ، ١٠٤ .

(١٤٣) زكي محمد حسن : كنوز الظاهريين ، من ٢٣٤ .

- البراق : المرجع السابق ، من ١٧٣ .

(١٤٤) زكي محمد حسن : كنوز الظاهريين ، من ٢٤٢ .

به أواني النحاس من الذهب والفضة نظرا لاقبال الناس في مصر على هذا الصنف من المصنوعات (١٤٥) .

واستخدم الحديد فيما يلزم صناعة البناء وبعض الصناعات والآلات البسيطة (١٤٦) ، واشتهرت بعض المدن الصناعية الكبرى في ذلك الوقت بصناعة الآلات الحديدية ، ففي مدينة الفسطاط عرفت صناعة الحديد المستورد من أوروبا وصقلية وببلاد المغرب (١٤٧) ، ويتحدث المقريزى عن « المناخ السعيد » وهو الحى الذى سكنته جالية كبيرة من الإنجانب ، والذى كان مركزا لصناعة الحديد وألات الأساطيل من الأسلحة « المعمولة بيد الفرنج القاطنين فيه » (١٤٨) ، ويدرك ناصرى خسرو ان الصناع فى مدينة تنيس كانوا « يصنعون بها آلات الحديد كالمقراضن والسكنين » وأنه رأى مقراضا صنع بتنيس بلغ خمسة دنانير مغربية (١٤٩) ولا ننسى أن أغلب سكان تلك المدينة كانوا من الأقباط ، كما استخدم الحديد فى صنع بعض الأشياء البسيطة ، فقد وجد فى كنيسة أبي سيفين كرسى من الحديد يرجع الى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى (١٥٠) .

وقد استخدم العاج فى صناعة أشياء كثيرة كقطع الشطرنج والترد والعلب الصغيرة الثمينة المطعمه بالعاج (١٥١) .

(١٤٥) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ، ج ٤ ، من ٣٩٥ .

(١٤٦) البراوى : المرجع السابق ، من ١٧٢ .

(١٤٧) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ، ج ٤ ، من ٣٩٤ .

(١٤٨) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، من ٤٤٣ .

(١٤٩) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، من ٤٠ .

(١٥٠) سميكة : المرجع السابق ، ج ١ ، من ١٠٠ .

(١٥١) البراوى : المرجع السابق ، من ١٧٤ .

وفي القرن الخامس الهجري / الحادى عشر الميلادى يتحدث ناصرى خسرو عن « ألياب الفيل » المستوردة من زنجبار والتي شاهدها فى أسواق مدينة الفسطاط ، كما رأى الامشاط ومقابض المسکاكين والتي عدتها ناصرى خسرو من طرائف ما شاهده باسوق مصر (١٥٢) .

وكان التطعيم أكثر الحالات التي استخدم فيها العاج على يد الصناع من القبط ، وكان طبيعياً أن يتآثر الصناع المسلمين بأساليب الفن القبطي في عمل حشوات العاج الكاملة ، اذ أن صناعة النقوش على العاج التي برع فيها الصناع الأقباط تمركزت في الأقاليم التي يكثر فيها السكان الأقباط (١٥٣) .

(د) صناعة الورق والتجلييد :

اشتهرت مصر بصناعة ورق البردى وظلت تحترف هذه الصناعة طوال عصر الولاة ، وكان معظم الصناع المشغلين بصناعة ورق البردى من القبط ، غير ان صناعة اعداد ورق البردى للكتابة انتهت في مصر حوالي القرن الرابع الهجرى ، وحل الكافد الذي كان يصنع في سمرقند والصين محل البردى في الكتابة (١٥٤) .

ومع مجيء الفاطميين إلى مصر اهتمت الدولة بالحركة العلمية ، وجمعت نوادر الكتب والمخطوطات لتضم إلى خزانة الكتب الفاطمية

(١٥٢) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، من ٥٩

(١٥٣) ذكرى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ٢٢٥

(١٥٤) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ، ج ٣ ، ص ٣٢٥

- مقتز : الحضارة الاسلامية في ق ٤ ، ج ٤ ، ج ٢ ، من ٣٠٨ ، ٣١٩

لتتصبح منافساً عملاقاً لكتبات بغداد وقرطبة ، كما شجع الخلفاء الباحثين والدارسين وطلاب العلم ، وكان الجامع الأزهر أعظم جامعة إسلامية في ذلك العصر (١٥٥) ، وأصبحت « دار الحكمة » مفخرة العصر بما ضمته من كتب ومؤلفات وكل ما يمت إلى الحركة العلمية بصلة (١٥٦) .

وكان لكتاب رجال الدولة من أهل النمة سواء من اعتنق منهم الإسلام حديثاً أو ظل على دينه دور بارز في هذا المجال ، فكان للوزير ابن كلس دوره الهام في خلق نواة الجامعة الأزهرية التي كانت مركز اشعاع في مصر الفاطمية (١٥٧) ، كما أنشأ ابن كلس في قصره خزانة للدفاتر ، وجعل على رأسها ناظراً للإشراف عليها ، ووفر لها جماعة من النساء والمشتغلين بتجلييد الكتب والدفاتر (١٥٨) .

وقد ضمت المكتبات الخاصة بأهل النمة وبخاصة الأطباء منهم الكثير من الكتب العلمية والمخطوطات النادرة ، أو الكتب العلمية التي قاموا بتاليفها بتكليف من الخلفاء أو تقرباً إليهم (١٥٩) . كذلك امتلاء كنائس وأديرة الأقباط ب nefas الكتب والمصنفات الدينية والمؤلفات والكتب المترجمة إلى العربية ، هذا بجانب اقتناء البعض من القبط العديد من الكتب . وعلى الرغم من أن الكثير من الكتب والمخطوطات التي كانت في حوزة الكنائس والأديرة والأفراد قد أهملت أو تبدد الكثير منها ، إلا أنه قد بقيت بعض الكتب والمجلدات كاملة ، فقد عثر على بقايا كتب وقطع من

(١٥٥) البراوي : المرجع السابق ، ص ١٦٠ ، ١٦١ .

- ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر ، ص ٢٣٢ .

- سرور : مصر في عصر الدولة الفاطمية ، ص ٢١٨ ، ٢١٩ .

(١٥٦) عنان : تاريخ الجامع الأزهر ، ص ٥٠ .

- ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر ، ص ٢٣٢ .

(١٥٧) زكي محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ٣١ ، ٣٢ .

(١٥٨) المريزى : الخطط ، ج ٢ ، منش ٥ .

(١٥٩) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، من ٥٤٥ ، ٥٤٨ ، ٥٤٩ .
أهل الزمرة - ١٢٩

البردى والرقوق محفوظة الآن بمتحف أوروبا وأمريكا والمتحف القبطي، بالقاهرة ودار البطريركية القبطية بمصر (١٦٠) .

وقد استعمل الأقباط البردي في الكتابة حتى القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، ثم استبدل الأقباط البردي بالرقوق التي استمر استعمالها إلى القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، ويوجد من هذه الرقوق عدة مجلدات كاملة . ومن أحدث الكتب المخطوطة على الرق كتاب تكريز الكنائس الجدد بمكتبة دير السريان ، وتاريخه يرجع إلى سنة ١١٨١ م ، ثم استعملوا أخيراً الورق الكتان (١٦١) ، وهو نوع من الورق المطبوع من الكتان والقطن . وكانت الفسطاط من أعظم مراكز انتاج الورق (١٦٢) .

وكانت عملية التجليد تشمل الجلد والبطانة والحرير ، كما استعمل الورق في البطانة ، بعد أن حل البردي في الكتابة ، واستعمل الصناع جلود العجلون واستخدموه الحرير والديباج والأطلس في التجليد وبخاصة تجليد المصايف (١٦٣) .

وقد عثر على بعض الجلود التي ترجع إلى القرن الرابع الهجري، وهي عظيمة الشأن ، لأن تأثير الصناعة والفن القبطي ظاهر فيها ، ففي بعض الجلود زخارف مجدولة ووريقات شجر مهذبة تقليدية تتخذ أحياناً شكل القلب وفي بطانة جلدة منها نرى آثار رسوم هندسية ونباتات ورسم طائر صغير ووريدات جميلة . ويرى علماء

(١٦٠) سعيكة : المرجع السابق ، ج ١ ، من ٣٨ ، ٣٩ .

(١٦١) ——— : نفس المرجع السابق ، من ٣٩ .

(١٦٢) البراوي : المرجع السابق ، من ١٦٢ .

(١٦٣) ——— : نفس المرجع والصفحة .

الآثار الإسلامية أنه من الصعب التمييز بين جلود العصر الفاطمي والجلود التي صنعت في القرن الذي سبق قيام الفاطميين إلى مصر، لأن التطور كان بطيناً، غير أن أساليب الصناعة قد استقرت في هذا العصر، وازدهر الفن طبقاً لناموس العرض والطلب (١٦٤) .

(هـ) صناعة الزجاج والبلور الصخري والخزف :

بلغت صناعة الزجاج أرقى درجات الفن في عصر الفاطميين . وكثير الطلب عليها نظراً لضخامة النهضة العمرانية التي عمّت البلاد ، وتعدد الأغراض التي استخدم فيها الزجاج ، فقد اشتهرت بعض المدن بصناعة الزجاج ومن أهمها الفساط ، والفيوم ، والأشمونيين ، والشيشين عبادة (بكورة البهنسا ، المنيا الآن) ، والاسكندرية (١٦٥) ، كما راجت تجارة الصناعات الزجاجية ، فقد عثر على بقايا تحف ونماذج زجاجية في كثير من المدن مثل مدينة حابسو ، وكوم بلال ، وقوص ، وأبيدوس ، وأخميم ، وأسيوط ، والمنيا ، والبهنسا ، واهناسيا المدينة ، وهوارة ، وأطفيح ، وستقارة وميت رهينة ، وكوم الأترrib (١٦٦) .

وكانت أرقى المنتوجات الزجاجية هي الزجاج المذهب المزین بزخارف لها بريق معدني ، التي حاول فيه الصناع تقليد البلور الصخري (١٦٧) .

(١٦٤) يذكر محمد حسن : كنوز الفاطميين ، من ١٠٧ ، ١٠٨ .

(١٦٥) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ، ج ٤ ، ص ٣٩٧ .

(١٦٦) البراوي : المرجع السابق ، ص ١٥٦ ، وكذلك الحاشية رقم ٢ بنفس الصفحة .

(١٦٧) ——— : المرجع السابق ، ص ١٦٩ .

أما عن صناعة البلور الصخري ، فقد تحدث عن تلك الصناعة ناصرى خسرو أثناء جولته « بسوق القناديل » بالفسطاط ، فقد رأى معلمين مهرة ينحثرون بلورا غاية فى الجمال » وكان يستورد من بلاد المغرب كما كان يستخرج بالقرب من ساحل البحر الأحمر (١٦٨) ، وكان وجود البلور الصخري فى مصر سببا فى انخفاض ثمنه ووفرة انتاج التحف البلورية ، وفي خزائن القصور الفاطمية شاهد أحد المستخدمين فى بيت المال صندوقا من الصناديق التى نهبت من قصور المستنصر ذات يوم ، وهو مملوء بآباريق من البلور النقيس بعضها منقوش بزخارف ورسومات جميلة وبعضها غير منقوش ويبدو أنها كانت لشراب .

وتركت الرسوم والزخارف القبطية أثراًها على الخزف ذي البريق المعدني الذي كان فخر صناعة الفخار في مصر الفاطمية، وقد تفوقت صناعة الخزف ذي البريق المعدني على أيدي الصناع المصريين، فصنعوا منه الأزيار الكبّار والأواني المستعملة في حفظ العطور والبخور وكثيراً من الأشياء التي يستخدمها الناس، كما امتلأت الخزائن في قصور الخلفاء الفاطميين وكبار رجال الدولة بروائع التحف الخزفية (١٧٠).

وكان لتوفر الطين الأصفر بمصر الذي يصنع منه الخزف (١٧١)، أن توافر انتاج الأواني الخزفية الممتازة ، وقد شاهدنا تصاري خسرو في أسواق الفسطاط الأقداح والصحاف التي

^{٥٩} (١٦٨) ناصری خسرو : المصدر السابق ، ص ٥٩ .

^{١٦٩}) زكي محمد حسن : كنز الفاطميين ، ص ٤٤ .

١٧٠) ————— : نفس المرجع ، ص ١٥٧ .

• ديماند : المرجع السابق ، ص ٢١٦ .

^{١٧١} أبو صالح الأرمني : المصدر السابق : ص ٥٣ .

بلغ من جودتها أنه رأى يده بوضوح بظهر الاناء ، وكان الشعار يضعون ما يبيعونه في أواني من الخزف بدلاً من الورق (١٧٢) .
وكان أشهر صانع الخزف في مصر الفاطمية مسلم وسعد ، وقد اشتهرت مدرسة مسلم وتلاميذه بالزخارف الحيوانية والأدبية والنباتية في زخرفة الأواني الخزفية فضلاً عن الحروف الكوفية (١٧٣) .

وتبدو الصلة بين ما أنتجه سعد ومدرسته وبين الخزف ذي البريق المعدني قبل العصر الفاطمي ، ولاسيما في رسوم الحيوانات (١٧٤) .

ولا غرو فقد كانت رسوم الحيوان والرسوم الأدبية العنصر الأساسي في زخارف العصر الفاطمي ، بجانب رسوم الطيور والفروع النباتية والأوراق ، ذلك أن الفن القبطي ترك أثراً واضحاً في زخرفة الخزف ، وهناك قطعة من الخزف ذي البريق المعدني عليها رسم السيد المسيح ، وحولها أكليل النسور المعروف ، كما ظهر في الرسوم الأسلوب البيزنطي واضحاً ، وهذه القطعة من انتاج مدرسة سعد ، وظن ذلك لوجود صورة السيد المسيح على أنه من المحتمل أن سعداً كان من سلالة الأقباط (١٧٥) .

أما عن صناعة الفخار الذي كان يصنع من الطين ، فكانت صناعته واسعة الانتشار في بلاد الصعيد الأعلى حيث يوجد أجود أنواع الطمي ، ومنه كانوا يصنعون الأزيار والقلل وأوعية الخل

(١٧٢) البراوي : المرجع السابق ، من ١٦٧

(١٧٣) زكي محمد حسن : كنوز الفاطميين ، من ١٥٧

(١٧٤) ديماند : المرجع السابق ، من ٢١٦

(١٧٥) زكي محمد حسن : كنوز الفاطميين ، من ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٦١ ،

١٦٣ ، ١٦٢

والنبيذ والسمن وجرار العسل وكثيرا من الأشياء التي كان يستخدمها العامة (١٧٦) .

على أن الكثير من أواني الخل والفقاع والنبيذ وجرار العسل والمزر والنبيذ قد تعرضت للكسر والإيادة إبان خلافة الحاكم بأمر الله تنفيذا لما جاء بالسجلات التي أصدرها الحاكم بشأن المسكرات (١٧٧) ، وقد أثر ذلك على صناعة الفخار (١٧٨) .

(و) صناعة الخمور :

ان ما ساد الحياة الاجتماعية والاقتصادية في العصر الفاطمي الأول من ازدهار وانتعاش ، ومن انتشار روح اللهو والمرح وبخاصة في الاحتفالات والمواسم والأعياد المختلفة التي كثرت في ذلك العصر ، وما شاب هذه الاحتفالات من الجون والفساد قد أدى إلى انتشار عادة شرب المسكرات بمختلف أنواعها بين كثير من الناس.

لذلك انتشرت صناعة الخمور انتشارا كبيرا لكثرة الطلب عليها ، وازدهرت تلك الصناعة في المراكز الصناعية والتجارية الكبرى في مصر ، فكانت الفسطاط والقاهرة من مراكز صناعة الخمور ، وكانت الإسكندرية يوجها خاص من أهم مراكز تلك الصناعة (١٧٩) .

(١٧٦) البراوي : المرجع السابق : ص ١٦٧ .

(١٧٧) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٠٠ .

- التويري : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ٥٦ ، ورقة .

(١٧٨) نكي محمد حسن : كنز الفاطميين ، ص ٤٤ .

(١٧٩) البراوي : المرجع السابق ، ص ١٨٣ ، ١٨٤ .

كما وجدت معاصر الخمور في المدن الصناعية الكبرى
كتشيس حيث تكثر حولها مزارع الكروم ويغلب على سكانها الصناع
من القبط (١٨٠) .

وفي ريف مصر كانت الخمور تعصر بكثرة وبخاصة في
موسم نضج محصول العنب ، « ففي شهر مسري يكون وفاء النيل ،
وفيه يحصر قبط مصر الخمر » (١٨١) وكان معظم الانتساج من
النبيذ في الريف يستهلك محلياً ولا يصل منه المدن الكبرى
إلا كميات قليلة ، ولذلك ارتفعت أسعار النبيذ في المدن لكثره
الاقبال عليها (١٨٢) .

واشتهرت منطقة شبرا ونواحيها التي يغلب على سكانها
الأقباط من أهل البلاد بأنها كانت واحدة من أكبر مراكز عصر
الخمور في مصر ، وكان فلاحو شبرا يعتمدون دانماً في وفاء
الخارج على ما ينتجونه من الخمر وما يبيعونه منه في عيد
الشهيد (١٨٣) .

وفي الأديرة كانت تزرع الأعناب ومنها يحصر الرهبان
النبيذ ، ويصنعون النبيذ لاستعمالهم داخل الدين (١٨٤) ،
كمـا أن بعض هذه الأديرة كان مقصد الناس للنزهـة
والتسليـة (١٨٥) .

(١٨٠) ابن دقلقـي : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٧٨ .

(١٨١) المقرizi : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٧٢ .

(١٨٢) ——— : نفس المصدر ، ص ١٢٩ ، ٣٦٧ .

(١٨٣) ——— : نفس المصدر ، ص ٦٧ ، ٦٨ .

(١٨٤) أبو صالح الأرمـيـ: المصدر السابق ، ص ٩٦ .

— ابن فضل اـشـ العمـرىـ: المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٢٧ .

(١٨٥) ——— : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٣٧٣ .

ويعتبر النبيذ المستخرج من الكروم من أجود أنواع الخمور، وكان استعماله يكاد يكون قاصراً على الأثرياء وأفراد الطبقة العليا في المجتمع لارتفاع ثمنه (١٨٦)، أما الغالبية العظمى من المستهلكين للمسكرات فكانوا يحتسون الفقاعة، وهو نوع من البيره كان شائعاً في القاهرة أيام عصر الفاطميين (١٨٧)، كما كانوا يشربون المزر والنيدة، وكانوا يصنعون من القمح والشعير (١٨٨)، هذا بجانب أنهم كانوا يتخذون من العسل شراباً مسكراً (١٨٩) . الواقع أن صناعة عصر الخمور كانت منتشرة في أنحاء مصر وكان الانتاج وفيراً، وليس أدل على كثرة الخمور وانتشارها في البلاد من تلك الكميات التي كانت تباع في ناحية شبراً وحدها والتي بلغت قيمة ما يبيع منها في أحد أيام عيد الشهيد بما ينفي على مائة ألف درهم فضة عنها خمسة آلاف دينار ذهباً (١٩٠) .

وعلى الرغم من انتعاش صناعة عصر الخمور في بداية العصر الفاطمي، فإن صناعة المسكرات لم تتعرض للحد من اتجاهها والتضييق عليها إلا في القليل النادر أيام خلافة العز ل الدين الله وبابنه العزيز بالله الفاطمي، عندما كانت تصدر الأوامر بالغاء بعض الأعياد أو تقييدها، ثم العودة إليها مرة ثانية .

وكان لكترة ما ارتكب في بعض احتفالات الأعياد والمواسم من المعاصي والفحور، وما اقترن بها من كثرة شرب المسكرات وانتشار الفساد بصورة فاضحة وعلى نطاق واسع (١٩١) .

(١٨٦) البراوي : المرجع السابق ، ص ١٨٤ .

(١٨٧) ناصرى خسو : المصدر السابق ، ص ٤٩ .

(١٨٨) البراوي : المرجع السابق ، ص ١٨٤ .

(١٨٩) سبط بن الجوزى : المصدر السابق ، ج ١١ ، ورقة ٤٠٢ .

(١٩٠) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٦٧ .

(١٩١) ——— : نفس المصدر ، ص ٢٢٤ .

أن أخذ الحكم بأمر الله يطارد صناعة المسكرات وعصر الخمور بصورة لا تعرف الكلل ، وأصدر عدة سجلات فرضت القيود على تلك الصناعة ، وأخذ يصادر الكروم ومخازن النبيذ والفقاع والمزر والنبيذ والزبيب والعسل ويشدد من تعليماته في هذا الشأن بهدف ابادتها ، وكان الباعث على اصدار هذه التعليمات ما أملته روح الاصلاح الحقة ، فقد كان الحكم يهلي إلى رفع المستوى الخلقي بين أفراد رعيته (١٩٢) .

ومن هنا صدرت سلسلة من المراسيم والسجلات بين العين والآخر تطارد هذه الصناعة وتضيق الخناق على المشتغلين بها . ففي ربيع الآخر سنة ٣٩٠ هـ منع الحكم من أكل الزبيب وأحرق كميات منه في جيزة مصر (١٩٣) ، كما صدر الأمر بمنع بيع النبيذ وألا يظهر شيء منه وكسر ما كان للخمارين وأصحاب المواخير منه ، وأمر بازالة الأماكن التي كان أهل الفساد والفجور يأولون إليها ويجتمعون بها وفرق جموعهم (١٩٤) وفي ربيع الأول من سنة ٣٩٢ هـ قرئ سجل الحكم بمنع المسكرات ، كما صادر عدة أماكن وأراق ما بها من مسكرات (١٩٥) .

وتخلوا من عصر الخمور أمر الحكم بأمر الله في السنة التالية بقطع الكروم في أنحاء مصر وبخاصمة في الفسطاط والقاهرة والصعيد والاسكندرية ودمياط وأباد معظمها (١٩٦) ، وفي المحرم سنة ٣٩٥ هـ أصدر الحكم بأمر الله مرسوماً بمنع عمل الفقاع والشرمسن العنن ، وأمر بالتشدد في تنفيذه وأمره والمبالغة في تأديبه

(١٩٢) لين بول : المرجع السابق ، ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

(١٩٣) ابن ظافر : المصدر السابق ، ورقة ٥٦ .

(١٩٤) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٨٦ .

(١٩٥) المقريزي : اتحاذ الحنف ، ج ٢ ، ص ٤٤ .

(١٩٦) سبط بن الجوزي : المصدر السابق ، ج ١١ ، ورقة ٢٧٦ .

المخالفين ، وتعقب في كل مكان المشتغلين بصناعة الفقاع وببيعه ، وعاقبهم بالضرب والشهر ، وقل من نجا منهم من القتل (١٩٧) ، وكسر كل ما عشر عليه من أواني الخمسور وأريق ما بهما من مس克رات (١٩٨) .

غير أن الناس وجدوا الفرصة سانحة في العودة إلى شرب الفقاع أثناء انشغال الحاكم بأمر الله بمطاردة أبي ركوة الذي كان قد خرج على طاعته ، ثم إن الحاكم بأمر الله نفسه أقبل على شرب النبيذ بعد أن جنح إلى مشورة طبيبه يعقوب بن نسطاس لما للنبيذ من منافع ، فاطمأن الناس وزاد اقبالهم على احتساء الخمور وخاصة أنه لم يبال بما سبق أن أصدره من مرسوم وسجلات في هذا الشأن ، بل انه استدعي إلى مجلسه جماعة المغنين وأصحاب الملاهي ، وشرب على أنغامهم وخلع عليهم وقربهم إليه . على أنه بوفاة يعقوب بن نسطاس الطبيب امتنع الحاكم عن شرب النبيذ ، وعاد مرة أخرى إلى سابق عهده يطارد المسكرات وصناعتها وتجارتها وكسر الأواني والجرار التي كانت تعبأ فيها (١٩٩) .

وفي سنة ٣٩٧ هـ / ١٠٠٦ م منع الحكم بأمر الله من التظاهر بالفناء ومن ركوب البحر (لأنخفاض النيل) ، وبيع المسكرات ومنع الفقاع ، وفي شهر صفر من العام نفسه قبض على بعض المخالفين لل法则 وضربيهم وشهر لهم لمخالفتهم أوامرها (٢٠٠) .

(١٩٧) التويري : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٥٦ .

- العيني : المصدر السابق ، ج ١٩ ، ورقة ٦٧٨ .

(١٩٨) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٨٥ .

(١٩٩) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٨٨ .

(٢٠٠) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٨٦ .

وفي سجل أصدره في ربيع الآخر سنة ٣٩٩ هـ أمر بـألا يحمل شيء من النبيذ والمزر ولا يتظاهر بشيء منه ولا بشيء من الفقاع والترمس العفن ، وأمر بقتل من يضيّط سكرانا (٢٠١) ، وفي صفر من العام التالي شهر بجماعة بعدهما ضربوا بسبب الفقاع والترمس (٢٠٢) .

ولقد وصلت اليـنا صورة من سجل أصدره الحاكم في شهر ذي القعـدة سـنة ٤٠٠ هـ ، نـهيـ فيـهـ الـكـافـةـ عـنـ الـإـلـامـ بـالـسـكـرـ ، أو شـربـهـ ، عـلـىـ اـخـتـلـافـ أـصـنـافـهـ وـأـسـمـائـهـ وـأـلوـانـهـ وـطـعـومـهـ ، قـلـيلـةـ وـكـثـيرـةـ ، كـمـاـ نـهـيـ عـنـ اـقـتـنـائـهـ أوـ عـمـلـهـ وـاعـتـصـارـهـ ، وـطـالـبـ رـجـالـ دـوـلـتـهـ الـمـسـئـولـينـ بـتـعـقـبـ الـمـخـالـفـينـ لـأـوـامـرـ (٢٠٣) .

وفي شهر رمضان سنة ٤٠١ هـ أصدر الحاكم بأمر الله منشورا عاما فيسائر أنحاء دولته بشأن المسكريات ، جدد فيه التحذير من عمل النبيذ ومن شربه سرا وجهرا ، وحذر مشددا من اخفاـئـهـ أوـ استـبـقاءـ شـيـءـ مـنـهـ ، كـمـاـ أـمـرـ بـكـسـرـ ماـ عـنـ النـاسـ منـ الجـرـارـ وـالـظـرـوفـ الـفـرـغـ وـالـدـنـانـ وـأـرـاقـ ماـ بـهـاـ مـنـ نـبـيـذـ وـعـسـلـ وزـبـيبـ ، وـتـعـقـبـ دـورـ الـمـلـاهـيـ فـأـغـلـقـهـاـ وـكـسـرـ مـاـ بـهـاـ مـنـ أـوـانـ لـلـخـمـورـ ، وـأـمـرـ بـنـفـيـ الـمـغـنـيـنـ وـأـصـحـابـ الـمـلـاهـيـ ، وـلـمـ اـسـتـغـاثـواـ بـهـ عـفـاـ عـنـهـمـ شـرـيـطةـ عـدـمـ العـودـةـ إـلـىـ مـاـ كـانـوـ عـلـيـهـ ، وـحـظـرـ عـلـىـ النـصـارـىـ تـقـدـيمـ شـرـابـ الـنـبـيـذـ أـنـنـاءـ اـقـامـتـهـ لـلـشـعـائـرـ الـدـينـيـةـ فـيـ الـأـعـيـادـ ، عـلـىـ أـنـ النـاسـ لـمـ يـلـتـزـمـوـ بـذـلـكـ ، فـفـيـ موـسـمـ الـعـنـبـ مـنـ هـذـاـ الـعـامـ أـخـذـ النـاسـ فـيـ اـعـتـصـارـهـ سـرـاـ مـاـ دـعـاـ الـحـاـكـمـ بـأـمـرـ اللـهـ إـلـىـ تـغـرـيقـ الـعـنـبـ فـيـ النـيلـ (٢٠٤) .

(٢٠١) ابن أبيك : المصدر السابق ، ج ٦ ، ورقة ١٧٠ .

(٢٠٢) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٤١ .

(٢٠٣) رسائل الدعاة : مخطوطـةـ بـدارـ الكـتبـ الـمـصـرـيـةـ رقمـ ٣٧ـ عـقـاتـ وـنـحلـ .
ورقة ١٠ ، ١١ ، ١٢ .

(٢٠٤) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٠٠ - ٢٠٢ .

وفي المحرم سنة ٤٠٢ هـ قلدت الشرطتان ، لـ محمد بن نزال ، وصدرت إليه الأوامر بمضاعفة الحزم والرقابة في تتبع المسكرات ومنعها . (٢٠٥) • كما جاء في سجل تعيين عين أحد حكام القاهرة في عهد الحاكم بأمر الله الصادر في تاسع ربى الآخر سنة ٤٠٢ هـ تعقب صناعة النبيذ وجميع أنواع المسكرات (٢٠٦) ، وفي شهر شعبان من نفس العام ، أصدر سجلاً شساماً بتعقب تلك الصناعة ومصادر صناعتها فيسائر أنحاء الدولة ، واباد كميات كبيرة من النبيذ ، وببلغ جملة ما أحرقه من زبيب في خمسة عشر يوماً حوالي ألفين وثمانمائة وأربعين قطعة زبيب ، وبلغت تكاليف ما أنفق في أحراقها خمسماة دينار (٢٠٧) •

وواصل الحاكم بأمر الله حملته على المسكرات أينما وجدت ، ففي سنة ٤٠٣ هـ/١٠١٢ م أراق كثيراً من الخمور وأحرق كميات ضخمة من النبيذ ، وكسر جسرار العسل ، وكان جملة ما أحصى ما بين ظرف وزين وخابية عدته احدى عشرة ألف قطعة (٢٠٨) •

وإذا كانت أنواع المسكرات كالنبيذ والفقاع والمزر والنيدة والزبيب والعسل – حيث يصنع من الآخرين المسكر – قد تدهورت صناعتها في خلافة الحاكم بأمر الله الذي أصدر القوانين الصارمة بمنعها وتعقيبها وازوال أقصى العقوبات بالمشتغلين في مجالها ، فإن هذه الصناعة قد انتعشت من جديد في خلافة الظاهر لاعزاز

(٢٠٥) عنان : الحاكم بأمر الله ، ص ١٣٠ •

(٢٠٦) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٩٦ •

(٢٠٧) ——— : نفس المصدر ، ص ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٨٦ ، ٥٦ •

(٢٠٨) التویری : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٥٦ •

– ابن أبيك : المصدر السابق ، ج ٦ ، ورقة ١٧٢ •

دين الله عندما أغفل ما سبق صدوره من القوانين المحرمة لشرب المسكرات ، فأقبل الناس على احتسائها وارتياد الملاهي ، بل إن الخليفة الظاهر نفسه أقبل على شرب الخمر ، ومجالس الطرب والغناء ، فازداد حب الناس لحياة اللهو والمفاسد وشرب المسكرات (٢٠٩) .

وشهد عصر المستنصر بالله الفاطمي مزيداً من اقبال الناس على شرب الخمور ، وبالتالي ازداد الطلب عليها وراجعت صناعتها.

فكان الخليفة المستنصر بالله يشرب الخمر ، ويستقيها الناس ، وكان يخرج في كل سنة مع النساء والمحشى إلى جب عميره بهيئة أنه خارج للحج على سبيل الهزء والمجانة ومعه الخمر في الروايا عوضاً عن الماء ويستقيه الناس (٢١٠) .

هذا مع ما صاحب عصر المستنصر بالله في أيام الرخاء من اقبال الناس على الحفلات والأعياد والمناسبات والمنتزهات ، وطلب الناس شرب المسكرات مما أدى إلى ازدهار وانتعاش صناعة النبيذ والزيبيب والفقاع والمزر والنيدة وكل ما يتخذ منه مسكراً .

(ز) صناعة السكر والعسل :

شهدت مصر في العصر الفاطمي الأول انطلاقة كبيرة في صناعة السكر والعسل ، فقد عرفت البلاد في هذا العصر العديد من الأعياد والمناسبات والمواسم والاحتفالات التي شدت اهتمام الناس على اختلاف طبقاتهم ، بجانب ما أدخله الفاطميين من

• (٢٠٩) المقريزى الحنفى ، ج ٣ ، من ١٢٩ .

— : الخطط ، ج ١ ، من ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

• (٢١٠) — : الخطط ، ج ٢ ، من ١٦٢ .

تقالييد وما جرى به المعاذه فى شتى المناسبات على عمل الاسمية
التي ذخرت باللون الطعام والشراب وأنواع الحلوى ، كما كانت
اللائئم تعتبر من وسائل التسلية في هذا العصر ، وتطلب ذلك
الاهتمام بصناعة السكر والعسل والحلوى والقطائر
والكعك (٢١١) .

وحيث توجد مناطق زراعة القصب تكثر مراكز صناعة
السكر ومعاصر القصب ومعامل العسل ، ومن أشهر مراكز صناعة
السكر والعسل في العصر الفاطمي الأول مدينة الفسطاط (٢١٢) ،
والفيوم (٢١٣) ، وقسطنطين (٢١٤) ، وسنهود (٢١٥) .
وأسيوط (٢١٦) ، وترنوط (٢١٧) ، وفي بعض هذه المراكز
كالفيوم وأسيوط وترنوط يغلب عليها السكان من القبط .

وكثرت مطابخ السكر ومعامل العسل في مدينة الفسطاط ،
وكانـت بعض تلك المطابخ والمعامل في حوزة عدد من اليهود
القدطينـين في تلك المدينة الصناعية الكبرى (٢١٨) ، واشتهرت
مدينة قفـط بكـرة ما بها من مسابك السـكر ومعاصـره (٢١٩) ،
كما كانت أسيوط تنتـج سـائر أنـواع السـكر (٢٢٠) ، ويـوضـحـ ما

(٢١١) البراوى : المرجع السابق ، ص ١٧٦ .

(٢١٢) ابن دقمـاق : المصـدر السـابـق ، ج ٤ ، ص ٤٢ ، ٤١ .

(٢١٣) أبو عثمان الصـفـدي : المصـدر السـابـق ، ص ٢٩ ، ٤٠ .

(٢١٤) المقـريـزـي : الخـطـطـ ، ج ١ ، حـ ٢٣١ .

(٢١٥) ابن ظـهـيرـه : المصـدر السـابـق ، ص ٦٤ .

(٢١٦) يـاقـوتـ : المصـدر السـابـق ، ج ١ ، ص ١٩٣ .

(٢١٧) البرـاوـى : المرـجـعـ السـابـقـ ، ص ١٧٨ ، حـاشـيـةـ ١ .

(٢١٨) ابن دـقـمـاقـ : المصـدرـ السـابـقـ ، ج ٤ ، ص ٤١ ، ٤٢ .

(٢١٩) المقـريـزـيـ : الخـطـطـ ، ج ١ ، حـ ٢٣١ .

(٢٢٠) يـاقـوتـ : المصـدرـ السـابـقـ ، ج ١ ، ص ٢٥١ .

ذكره أبو عثمان الصدفي أن معاصر القصب كانت منتشرة في بلاد الفيوم وأن العديد من تلك المعاصر الملحقة ببعض النواحي كان أصحابها من الأقباط ، وأن تلك المعاصر كانت تكون من حجرتين وتدور يالآبقار (٢٢١) .

وعرف عن سمهود أنها كانت « كثيرة المعاصر لقصب السكر » (٢٢٢) ، وكان لكترة مطابخ السكر ومعامل العسل ومعاصر القصب ووفرة الانتاج أن رخصت أسعار الحلوى وكثرت أسواقها .

غير أن صناعة العسل تعرضت للتدهور عدة سنوات ابان خلافة الحاكم بأمر الله ، وانخفض انتاج العسل بسبب قراراته بشأن تحريم المسكرات ، اذ كان يتخذ من العسل مسكرا ، مما دفع الحاكم بأمر الله الى أن يأمر باراقه كميات ضخمة من العسل وكسر جراره أينما وجدت ، وحددت الكمية للمستهلك عند الشراء ، بل قل وجوده في الأسواق ، وارتفاع ثمنه لكترة الطلب عليه ، بالدرجة التي كان يعادل ثمن أوقية بيتيار فلم توجد (٢٢٣) .

وبانتهاء عصر الحاكم بأمر الله زاد الاقبال على الاحتفال بالمناسبات والأعياد وأقبل الناس على مظاهر الترف واللهو ، وزاد الطلب على السكر والعسل ، مما أدى الى انتعاش تلك الصناعة ، وانتاج كميات كبيرة منها ، ويفكك هذه الحقيقة في عصر المستنصر بالله الرحالة ناصرى خسرو بقوله « وتنتج مصر عسلا وسكرًا كثيرًا » (٢٤) .

(٢٢١) الصدفي : المصدر السابق ، ص ٢٩ ، ٤٠ .

(٢٢٢) ابن ظهيره : المصدر السابق ، ص ٦٤ .

(٢٢٣) ابن أبيك : المصدر السابق ، ج ٦ ، ورقة ١٧٢ .

(٢٤) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، ص ٦٠ .

النشاط التجارى لأهل مصر

كان لاهتمام الخلفاء الفاطميين بالتجارة أثره في ازدهار مصر كـ التجارـية في مصر في العصر الفاطمي الأول ، ففي هذا العصر تـنـورـتـ الحـاـصـلـاتـ الزـرـاعـيـةـ نـتـيـجـةـ لـلـاهـتـمـامـ بـاـنـزـرـاعـهـ ،ـ وـازـدـهـرـ الـكـثـيرـ مـنـ الصـنـاعـاتـ ،ـ وـزـادـ الطـلـبـ عـلـيـهـ ،ـ تـمـ نـوـفـرـ عـنـصـرـ الـأـمـنـ وـشـمـلـ الـجـمـيعـ العـدـلـ وـالـطـمـانـيـةـ ،ـ وـاحـكـمـتـ الرـقـابـةـ عـلـىـ الـاسـوـاقـ ،ـ وـمـنـعـ الـخـلـفـاءـ الـفـاطـمـيـونـ التـجـارـ الـأـجـانـبـ الـذـيـنـ يـفـسـدـونـ إـلـىـ مـصـرـ الـعـدـيـدـ مـنـ الـأـمـيـازـ ،ـ كـمـاـ مـنـحـوـمـ حـقـ الـاقـامـةـ فـىـ فـنـادـقـ خـاصـةـ بـهـمـ ،ـ بـلـ وـالـسـكـنـ فـىـ أـحـيـاءـ خـاصـةـ (ـ٢ـ٢ـ٥ـ)ـ ،ـ وـكـذـلـكـ شـجـعـتـ الـحـكـوـمـةـ بـنـاءـ الـوـكـالـاتـ وـالـقـيـاسـرـ وـالـخـانـاتـ ،ـ هـذـاـ بـجـانـبـ اـنـشـاءـ أـسـطـولـ تـجـارـيـ مصرـيـ سـاعـدـ عـلـىـ تـنـشـيـطـ الـحـرـكـةـ التـجـارـيـةـ (ـ٢ـ٢ـ٦ـ)ـ ،ـ وـمـاـ سـاعـدـ عـلـىـ ذـلـكـ أـيـضـاـ نـشـاطـ أـهـلـ النـمـةـ مـنـ التـجـارـ الـذـيـنـ اـسـتـخـدـمـوـ رـؤـوسـ أـمـوـالـهـمـ الضـخـمـةـ وـسـفـنـهـمـ التـجـارـيـةـ فـيـ خـدـمـةـ الـحـرـكـةـ التـجـارـيـةـ الـمـلـيـةـ وـالـعـالـمـيـةـ (ـ٢ـ٢ـ٧ـ)ـ .ـ

(٢٢٥) سرور : مصر في عصر الدولة الفاطمية ، من ٢٠١ - ٢٠٣ .

(٢٢٦) البراوي : المرجع السابق ، ٢١٤-٢٠٩ .

(٢٢٧) القرحمي : تجارة مصر في البحر الأحمر ، من ٩٠ .

وكان التجار من أهل النمة في مصر على درجة كبيرة من المهارة في الأعمال التجارية ، كما وجدوا في سياسة التسامح الديني واهتمام الدولة بالتجارة ما يشجعهم على القيام بهذا الدور الهام في هذا المجال .

ففي مجال التجارة الداخلية نظرت القرى التي يغلب عليها السكان الأقباط بالأسواق العامة بما يسد حاجة سكانها ، فكانت « منية الأمراء » على مقربة من شبرا يعمل بها سوق كل يوم أحد يباع فيه البقر والغنم والغلال والبضائع وكان سوقها من أسواق مصر المشهورة (٢٢٨) .

كما كان سوق بلدة « بموية » بالفيوم يقام يوم الخميس من كل أسبوع ، وكانت تلك البلدة زاخرة بالمعطارين ودكاكين البازارين (٢٢٩) .

ويذكر ناصرى خسرو أن مدينة تنبيس – تلك المدينة الصناعية الكبرى التي يغلب على أهلها السكان الأقباط – كان بها ما يزيد على عشرة آلاف دكان منها مائة دكان عطار ، ويرابط فى مبنائهما حوالي ألف سفينة (٢٣٠) ، أما فى المدن الكبرى فقد كان فى بعض الأحياء الخاصة التى سكنتها أهل النمة سوق لسد حاجة القاطنين بها (٢٣١) .

واشتغل كبار التجار من أهل النمة بتجارة الغلال . ويدرك ناصرى خسرو أن الخليفة المستنصر بالله أرسل إلى أحد التجار

(٢٢٨) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ١٢٩ .

(٢٢٩) الصدقى : المصدر السابق ، من ٦٩ .

(٢٣٠) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، من ٢٨ ، ٣٩ .

(٢٣١) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، من ٢٠ .

النصارى الآثرياء أئمه أحدى المجاعات التى انتشرت بالبلاد ، يطلب منه إمداد المخازن الحكومية بالغلال « أما نقدا ، وأما قرضا » ، فرد هذا النصارى على الخليفة بقوله : « إن لدى من الغلة ما يمكننى من أطعام أهل مصر بالخبز ست سنوات » ، ويتعجب ناصرى خسرو من مقدار ثروة هذا التجار النصارى بقوله : « إن كل من يستطيع الحكم يدرك كم ينبغي أن يكون لهذا الشرى لتبلغ غلته هذا المقدار .. (٢٣٢) ، ويدرك أبو صالح الأرمنى أن المعلم اسحق كان من كبار التجار الآثرياء بمدينته فقط (٢٣٣) .

ولما كان بيع الخمور محظما على المسلمين بحكم الشريعة الإسلامية فإن أهل النمة اشتغلوا بتجارة وبيع المسكرات ، كما كان فلاخو شبرا يعتدون في سداد ما عليهم من الخراج على ما يبيعونه من خمر وخاصة في يوم الاحتفال بعيد الشهيد ، فكان يباع في هذا اليوم ما ينفی على مائة ألف درهم فضة منها خمسة آلاف دينار ذهبا ، ويدرك المقريزى أن أحد التجار النصارى باع من الخمر في يوم واحد باثنتي عشر ألف درهم فضة (٢٣٤) .

ووفقا لسياسة الاصلاح الاجتماعى التي اتبعها الخليفة الحاكم بأمر الله فإن الخليفة أخذ يطارد تجارة المسكرات كالنبيذ والمزر والنبيذ والققاس ، وكل ما يعمل منها ، وتكررت السجلات التي تحرم بيع المسكرات بجميع أنواعها ، وحددت بعض السجلات التي أصدرها الخليفة الحاكم بأمر الله الكميات المباعة من العنب والرطب والعسل بحيث لا يباع للمستهلك منها الا ما يكاد يكفى حاجته . ففي سنة ٤٠٢ هـ منع الحاكم بيع الزبيب الا خمسة أرطال فما دونها (٢٣٥) ، كما منع بيع العنب الا أربعة أرطال فما دونها . وفي

(٢٣١) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، من ٦٤ .

(٢٣٢) أبو صالح الأرمنى : المصدر السابق ، من ١٣١ .

(٢٣٣) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٦٨ ، ١٢٩ .

(٢٣٤) عنان : الحاكم بأمر الله ، من ١٣٠ .

ربيع الآخر من نفس العام أمر بالامتناع عن بيع العسل وألا يتجاوزه في بيته أكثر من ثلاثة أرباح لمن لا يشترط في أمره أن يستخدم منه مسكراً (٢٣٦) ، ولما أمر بمصادرة مخازن العسل وإهراقه في النيل نذر وجوده في الأسواق وارتفاع سعره حتى عادلوا طلب أوقية بدينار فلم توجد (٢٣٧) .

ونتيجة لتلك القرارات أضير التجار من أهل الذمة المشتغلين بتجارة المسكرات وما يصنع منها ، بل إن المحاكم تشدد في تلك الفترة مع أهل الذمة فمنع من التعامل معهم بالبيع أو الشراء ، مما أثار استياء التجار والباعة من أهل الذمة ولجأ كثير منهم إلى التظاهر بالإسلام والتشبه بال المسلمين « ليظن من يراهم أنهم قد أسلموا » ، ولكن بعد مدة خرج أمن المحاكم بأمر الله بالتعامل مع أهل الذمة بالبيع والشراء كما جرت به العادة (٢٣٨) .

وأشتغل أهل الذمة بتجارة الرقيق ، إلا أنه في سنة ٣٩٥ هـ / ٤١٠٠ م أصدر المحاكم بأمر الله سجلاً حرم بمقتضاه على أهل الذمة تجارة الرقيق . وشدد على الشخاصين وتجار الرقيق في المنع من بيع العبيد والأماء لأهل الذمة (٢٣٩) ، ثمكرر هذا الأمر في السجل الذي أصدره في عام ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م ، وأمر بتتبع آثار المخالفين لأوامره (٢٤٠) .

(٢٣٦) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٨٦ ، ٢٩٦ .

(٢٣٧) ابن أبيك : المصدر السابق ، ج ٦ ، ورقة ١٧٢ .

(٢٣٨) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٧ .

(٢٣٩) المقريزى / اتعاظ الجندا : ج ٢ ، ص ٥٣ .

(٢٤٠) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٨٦ .

ويوفاة الحاكم بأمر الله سنة ٤١١ هـ / ١١٠٢٠ م الغيث جميع القيود التي تحد من حرية التعامل التجارى مع أهل الذمة ، فمارسو نشاطهم التجارى فى حرية مطلقة ، وكان بعضهم مقرراً من دار الخلافة ، ويدرك ناصرى خسرو الذى زار مصر فى خلافة المستنصر أن أبي سعيد التسترى الناجر اليهودي « كان مقرباً من السلطان » الذى كان يعتمد عليه فى شراء ما يريد من الجوائز الكريمة (٢٤١) . وكانت أعمال الصيرفة وتجارة الذهب والجوائز من الأعمال التجارية التى تجتمع فيها أهل الذمة ، وخاصة اليهود .

فقد نبغ فى أيام الحاكم بأمر الله الأخوان اليهوديان أبو سعيد ابراهيم وأبو نصر هارون ابن سهل التسترى ، اذ نبغ أبو سعيد فى الأعمال التجارية ، وكان واحداً من كبار التجار الآثرياء الذين استغلوا بتجارة الجوائز والأثار والتحف الشمينة وتجارة الرقيق ، وكثيراً ما استخدم الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله أبي سعيد هذا فى ابتكاع ما يحتاج إليه من صنوف الأمتنة . أما أبو النصر هارون فقد برع فى أعمال الصيرفة واستيراد البضائع من العراق . وقد اكتسب هذان الأخوان ثقة التجار فى الداخل والخارج لأمانهما ، واظهار ما يكون عندهما من الودائع لمن يفقد من التجار (٢٤٢) .

ومع ذلك فقد وجد بين تجار الذهب والصيارفة اليهود من كان مثلاً سيئاً فى المعاملات بإنكار ما لديهم من ودائع . فيروى أن أحد اليهود من تجار الذهب كانت امرأة كافور الاخشيد قد أورنته قباه لغلو منسوج بالذهب ، فلما طالبته به أذكر القباء ، فلما بلغ الخليفة العز الدين الله ذلك ، أمر بإحضار الصائغ اليهودي ، وأمر برد

(٢٤١) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، ص ٦٤ ، ٦٥ .

(٢٤٢) المريزى : الخطط ، ج ١ ، من ٤٢٣ - ٤٢٤ .

ما في ذمته من ودائع لزوجة كافور ، فأصر على انكاره ، مما دعا الخليفة المعز الى ارسال رجاله الى دار اليهودي ، فاستخرجوا منها القباء وسلموه لصاحبته (٢٤٣) .

وقد تتمتع تجارة الجوادر والصيارة بالأمن والطمأنينة في عصر الفاطميين ، وكانوا « لا يغلقون أبواب دكاكينهم بل يسدلون عليها الستائر ، ولم يكن أحد يجرؤ على مد يده الى شيء منها (٢٤٤) ، ولم يكن يتاتي ذلك الا باستقرار الأمن وقوة الحكومة المركبة (٢٤٥) .

وصاحب انتعاش الحركة التجارية بالأسواق نشاطا ملحوظا للأسطول التجاري . ولقد تعجب المقىسي من كثرة المراكب التي تجوب نهر النيل ، كما تعجب من كثرة المراكب الرئيسية أمام ساحل الفسيطاط . أما ناصري خسرو فإنه كان يقدر عدد السفن الرئيسية حول مدينة تونيس بالف سفينة منها « ما هو ملك للتجار وكثير منها للسلطان » (٢٤٦) . كما يذكر أنه رأى في الفسيطاط نصريانيا من كبار أثرياء مصر امتلك أعدادا من السفن ، وقيل أن مراكبه وأمواله، وأملاكه لا يمكن أن تعد ، وأن سفنه كانت تسير في النيل حاملة الحالات الزراعية والمسلع والبضائع إلى كثير من الموانئ والمراكيز التجارية الواقعة على النيل (٢٤٧) .

(٢٤٣) ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ٢٧٤ .

- السيوطي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٢ .

(٢٤٤) ناصري خسرو : المصدر السابق ، ص ٦٤ .

(٢٤٥) المقىسي : المصدر السابق ، ص ٢١٢ .

(٢٤٦) ناصري خسرو : المصدر السابق ، ص ٢٩ .

(٢٤٧) ————— : نفس المصدر ، ص ٦٢ .

دور أهل الذمة في التجارة الخارجية

من الجدير بالذكر أن مصر في العصر الفاطمي الأول احتلت من كذا ممتازا في مجال التجارة الخارجية ، وأضحت لها المكانة التجارية الأولى في العالم الإسلامي (٢٤٨) . ولذلك أصبحت مواطنها على البحرين الأحمر والمتوسط ملتقى التجار من الشرق والغرب نتيجة ظروف وعوامل داخلية ودولية (٢٤٩) .

ولما كان المصريون لا ينزعون عن مصر للتجارة مع العالم الخارجي إلا في القليل النادر ، فإن أهل السنة وخاصة اليهود مصر قاموا بنشاط ملحوظ في هذا الميدان (٢٥٠) ، وذلك لأن التجارة كانت من أهم

(٢٤٨) ذكرى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، من ١٣ :

(٢٤٩) البراوي : المراجع السابق ، من ٤١٤-٤٠٩ :

- ماجد : ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها ، من ٣٠١-٢٩٩ .

(٢٥٠) سيدة كاشف وحسن محمود : مصر في عصر الطولويين والخشبيين

- القاهرة ١٣٧٩/١٩٦٠ م ، من ٢٢٠ .

- سيدة كاشف : مصر في عصر الاشقيبيين ، من ٢٩٣ .

الأعمال التي في أيدي اليهود ، وحرصوا على الاشتغال بها (٢٥١) .
وكان ليهود مصر صلات تجارية وثيقة مع يهود الشرق والغرب ،
فأسهموا برؤوس أموالهم في تجارة أبناء عمومتهم اليهود
الراذانية (٢٥٢) ، وهؤلاء هم تجار البحر الذين كانوا يسافرون بين
الشرق والغرب ، ويبحرون بهم من الغرب إلى مصر وببلاد الشرق
السلع والبضائع القيمة كالديباج وجلود الخز والفراء والسمور ،
كما كانوا يستأثرون بتأهيل ما تصدره أوروبا وهو الغلمان والجواري
البيض ، وعند عودة هؤلاء التجار من الشرق الأقصى كانوا يحملون
معهم السك والعود والكافور والبهار والدرachiini وغيرها من
السلع (٢٥٣) .

وكان يهود الشرق من أنشط تجار العالم الإسلامي في هذه الحركة التجارية بين الشرق والغرب ، اذ كشفت وثائق الجنيز من امتلاكهم للسفن التجارية (٢٥٤) ، وكما كانت لهم جاليات في كثير من موانئ الشرق ومدنها التجارية ، كما وفد إلى مصر كثير من يهود الشرق المشتغلين بالتجارة لمارسة نشاطهم بها (٢٥٥) . واتخذ بعضهم من مصر مستقرًا له . وعلى سبيل المثال ، فإن يعقوب بن كلس اليهودي الأصل عمل وكيلًا للمتجار بمدينة الرملة بفلسطين قبل مقدمه

(٢٥١) بارتولد : تاريخ المغاربة الإسلامية ، ص ٢٢ .
 - سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، الطبيعة الأولى ،
 من ٤١ .

٢٥٢) الترمي : المرجع السابق . من ٣٢ .

٢٥٣) متز : المصدر السابق ، ج ٢ ، من ٣٦٣ .

- حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ، ج ٢ ، من ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

Gone in : Newsweek, New York, 1955, p. 107. (18)

^{٤٥٥} بليامين الطيفي، المصري، السابق، من ١٦٣-١٦٢-١٦١.

- هنر : المرجع السبعي ، ٢٠١٣ ، ١٧٦-١٧٧.

الى مصر ، ثم رحل اليها في عهد كافور الاخشيد ، وواصل اجترافه للتجارة ، فاشتهر أمره ، حتى أصبح أول من تولى منصب الوزارة في مصر في عهد الفاطميين (٢٥٦) . كما أن الأخرين اليهوديين أبا سعيد ابراهيم وأبا نصر هارون ابنا سهل التستري كانوا من أشهر وأربع تجار الشرق الذين استوطنوا مصر ، ويرجع أصلهما إلى مدينة تستر بخوزستان تلك المدينة التي كان معظم تجارها من اليهود ، واشتعل الأخوان في تجارة الشرق وبخاصة في تجارة الرقيق والتحف والجواهر ، وعرف عن الخليفة الظاهر أنه استخدم أبا سعيد في ابتياع ما يحتاج اليه قصر الخلافة من سلع الشرق (٢٥٧) ، كما أنه كان يمد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي بما يلزم قصر الخلافة من صنوف الأمة والسلع . ولقد ربح أبو سعيد من تجارتة ثروة طائلة . وقيل أنه لم يكن يعرف ملى غناه الا الله » (٢٥٨) .

ويبدو أن ثروة مصر واتساع تجارتها اجتذبت كثيرا من يهود الشرق والغرب (٢٥٩) ، فقد قام يهود الشرق برحلات تجارية إلى مصر ، كما كانت السفن التجارية من « المالك النصرانية كافة » تندى الموانئ المصرية وبخاصة الاسكندرية ، ولقد شاهد بنiamين التطيل في ميناء الاسكندرية تجارا من جميع المدن التجارية والنول الأوروبيه المعروفة في ذلك الوقت ، كما شاهد التجار الراودين إلى مصر من شمال أفريقيا، وجزيرة العرب، وببلاد الهند ، والحبشة ، واليمن ، والعراق ، والشام ، وبيرنطة ، مع تكالب التجار النصارى على شراء التوابيل والاعطور وجميع السلع التي يحملها تجار الشرق

(٢٥٦) التوizeri : المصادر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٤٩ .

(٢٥٧) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، من ٤٢٣ .

(٢٥٨) ناصرى خسرو : المصادر السابق ، من ٦٥ .

(٢٥٩) سعيد عاصور : المرجع السابق ، ج ٤١ .

إلى مصر (٢٦٠) . كما وجد أثناء زيارته لمصر أعداداً ضخمة من اليهود الذين يقطنون في الموانئ المصرية والmarkets التجارية والصناعية، وأن بينهم عدداً من كبار الأغنياء (٢٦١) .

ويذكر ابن ميسير أنه بدر الجمالى عنده قدومه إلى مصر سنة ٤٦٦ هـ / ١٠٧٣ م نزل دمياط وتنيس ، واقتصر من تجار تنيس - وكان معظمهم من القبط - أموالاً كان في حاجة إليها (٢٦٢) .

وإذا كان أهل النوبة قد امتلكوا رؤوس الأموال ، فإنهم قد امتلكوا - أيضاً - القياس ، وأن بعض هذه القياسات قد أوقفت على الأديرة . ويستدل على ذلك من عبارة وردت في مرسوم أصدره الخليفة الحاكم بأمر الله في سنة ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م بتجديده عمارة دير القصدير ورد الأوقاف التي كانت محسنة على الدير من ضياع وقياس (٢٦٣) .

كذلك وجد من التجار النصارى من اشتغل في مجال التجارة الخارجية فقد كان الأنبا إبراهيم السورياني - قبل أن يصبح البطريرك الثاني والستين للكنيسة القبطية - من كبار التجار الأنثرياء ، وتزداد إلى مصر عددة مرات للتجارة ثم استقر بها ، وكان يمد الخليفة المعز لدين الله وكبار رجال الدولة بما يحتاجون إليه من بضائع وأمتعة ، ومن ثم نشأت صداقات وثيقة بين الأنبا إبراهيم والخليفة المعز ورجال دولته (٢٦٤) .

(٢٦٠) بنجامين التعطيلي : المصدر السابق ، من ١٧٨ ، ١٧٩ :

(٢٦١) ————— : نفس المصدر ، من ١٧٣ ، ١٧٤ :

(٢٦٢) ابن ميسير : المصدر السابق ، ج ٢ ، من ٢٢ :

(٢٦٣) الانطاكي : المصدر السابق ، من ١٣٠ :

(٢٦٤) ساريس : تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية ، المجلد الثاني ، الجزء الثاني ، من ١٠٠ .

ويرى المؤرخون أن التجار من اليهود في مصر قد أسهموا ببنصيب كبير في تجارة الكارم طوال عهد الفاطميين ، جنباً إلى جنب مع التجار المسلمين ، إذ كانت روح التعاون سائدة بين كل من احترف هذه المهنة من كل الأديان . كما كان لرؤساء اليهود نشاط تجاري واسع بين مصر والهند واليمن والمغرب والأندلس (٢٦٥) ، وكانت سفنهم تجوب الموانئ التجارية الكبيرة التي تقع على سواحل البحر الأحمر والمحيط الهندي والبحر المتوسط . فكان يهود الشرق يغدون إلى مصر للأعمال التجارية (٢٦٦) . كما كان تجار مصر يبحرون بسفنهما إلى موانئ البحر المتوسط التجارية (٢٦٧) ، مما أدى إلى قيام صلات تجارية وثيقة بين مصر والجاليات اليهودية التي وجدت بتلك الموانئ ، وارتبط كثير من يهود مصر برباط المصاورة مع يهود تلك الجاليات ، وقامت علاقات تجارية نشطة بين مشايخ التجار اليهود بالقاهرة وغيرهم من تجار يهود الشرق المشتغلين بتجارة الكارم ، بل كانت هناك مشاركة في الأعمال التجارية ورؤوس الأموال الازمة للتجارة بين يهود مصر ويهود تلك البلاد في كثير من الأحيان (٢٦٨) . وحقق هؤلاء التجار أرباحاً كبيرة وأموالاً طائلة من اشتغالهم بتجارة الكارم . وكان الفلفل والبهار من أهم سلع تجار الكارم ، بجانب السلع الأخرى مثل الحاصلات الزراعية والملابسات والحرير الخام فضلاً عن الرقيق الذي كان يصدر إلى أوروبا حيث يباع بأسعار مضاعفة (٢٦٩) . كما كانت مصر من أعظم أسواق الرقيق الأسود

(٢٦٥) القومى : المرجع السابق ، ص ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٤

(٢٦٦) بنiamين التطيلي : المصنون السابق ، ص ١٦٩ .

(٢٦٧) ——— : نفس المصدر ، ص ٥٠ ، ٧٧ ، ٩٠ .

(٢٦٨) القومى المرجع السابق ، ص ٢١٥

(٢٦٩) ——— : نفس المرجع ، ص ٩٤ ، ٢١٣

في ذلك الوقت (٢٧٠) ، فقد اشتغل في تلك التجارة يهود مصر (٢٧١) .

ولقد عمرت أسواق مصر بسلع الشرق ، ولم تكن تلك السلع تستهلك جميعها محلياً ، بل احتفظ التجار المصريون بكتبات كبيرة منها لبيعها للتجار الفرنج وتجار الروم بأسعار عالية ، وبذلك كان تجار مصر يقومون بدور الوسيط التجارى بين الشرق والغرب . كما كان التجار الفرنج يقومون بشراء الحاصلات الزراعية والصناعات المصرية التي اكتسبت شهرة في الأسواق العالمية (٢٧٢) .

ويرى المؤرخون - من واقع وثائق الجنيزة - أن غالبية اليهود الرازانية الذين انخرطوا في تجارة الشرق قد قلل دورهم في مجال التجارة الخارجية مع بداية القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى . وأن دورهم أخذ في الانحسار بعد أن دخلت الحكومة الفاطمية في علاقات ومعاهدات تجارية مع المدن والنبل الأوروبية (٢٧٣) ، وفضلًا عن ذلك فقد استقرت أعداد من هؤلاء التجار اليهود زمن الفاطميين في مصر والهند واليمن (٢٧٤) ، ويبدو أن اليهود الذين استقروا في مصر قصروا نشاطهم على التجارة الداخلية والنشاط المصرفي والأعمال المالية (٢٧٥) . كما امتنق

(٢٧٠) سيدة كاشف وحسن محمود : المراجع السابق ، ص ٢١٤ .

(٢٧١) القومني : المراجع السابق ، ص ٢١٣ .

(٢٧٢) ——— : المراجع السابق ، ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

Goltein : Op. Cit. p. 107.

(٢٧٣)

(٢٧٤) متر : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣١٢ .

- القومني : المراجع السابق ، ص ٩٠ ، ١٦٤ .

(٢٧٥) عاشر : المراجع السابق ، ص ٤١ .

بعضهم الاسلام خاططا على مكاسبهم المالية التي كانوا يحققونها من الاشتغال في هذه الاعمال ، واحتماء بالاسلام مما قد يتعرضون له من وقت لآخر - من اضطهاد (٢٧٦) .

ويجيء وهكذا! يتضح مما سبق أن أهل الذمة في مصر قد شاركوا في الحياة الاقتصادية ، وأسهموا بنصيب وافر ودور له أهميته في مجالات الزراعة والصناعة والتجارة في العصر الفاطمي الأول ..

{٢٧٦} القرموي : المرجع السابق . ص ١٦٤

الباب الثالث

الحياة الاجتماعية والدينية لأهل التمة

(١) الحياة الاجتماعية لأهل الذهمة

— الفبيط واليهود في مصر في العصر الفاطمي الأول

عندما فتح العرب مصر كان معظم أهلها في ذلك الوقت من الأقباط ، وإلى جانبهم أقلية من اليهود . كما كان يعيش فيها بعض الطوائف التي تنسب إلى شعوب أخرى كانت أهلهما طائفة الروم الملوكانيين (١) .

وفي السنوات الأولى من الفتح سكن العرب المدن الكبرى : وتركوا سائر قرى مصر بآيدي القبط ، ثم بدأوا ينزلون إلى الريف ، وينتشرون في ريف مصر رويداً رويداً . وعلى الأخص ابتداء من القرن الثاني للهجرة حيث كثُر انتشارهم بقرى مصر ونواحيها ، ومسار كثيرون الأقباط سكنت الريف والمدن الصغيرة .

(١) سيدة كاشف : مصر في فجر الإسلام ، جن ١٦٤ .

وقد قام الأقباط في ريف مصر بعدة ثورات في سنوات ١٠٧ هـ، ١٢١ هـ، ١٣٢ هـ، ١٥٠ هـ، و كان الدافع إلى قيامهم بتلك الثورات ، عدم رضامن عن سياسة الولاية المالية (٢) ، وعادة ما كان يتبع أخmad تلك الثورات تحول عدد كبير من الأقباط إلى الدين الإسلامي ، كما كان لقرارات الخلفاء والولاة – في القرون الثلاثة الأولى للهجرة – من تعريب الديموين ، واحتلال المسلمين محل الموظفين من أهل النمة في الوظائف (٣) ، واسقاط الجزية عن كل من يعتنق الإسلام أثر كبير في تحول كثير من القبط إلى الإسلام (٤) .

ثم كانت ثورة ٢١٦ هـ – في عهد الخليفة المأمون – التي قام بها الفلاحون الأقباط في الوجه البحري – وخاصة أهالي البشمر – والتي اشتراك فيها العرب الذين زاد عددهم في الريف تضامنا مع الأقباط بسبب سوء سيرة العمال وفاحشة الأعباء المالية الملقاة على عاتقهم . ولما استفحلا أمر هذه الثورة ، جاء الخليفة المأمون إلى مصر للعمل على تهدئة الثورة وأخمامدها باللين ، ولما لم يستجب الأقباط لنداء الخليفة ، سار بنفسه على رأس قواته التي نجحت في أخمام الثورة في صفر سنة ٢١٧ هـ (٥) .

وبانتهاء تلك الثورة التي كانت أكبر وأخر الثورات التي قام بها الفلاحون الأقباط ، أخل الأقباط إلى السكينة والهدوء ، ودخل

(٢) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٥٩ - ٢٦١ .

البراوي : المرجع السابق ، ص ٣٦ .

(٣) سيدة كاشف : المرجع السابق ، من ١٧٩ ، ١٨٠ .

(٤) ——— : نفس المرجع ، ص ٢١٢-٢١١ .

(٥) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٧٩ ، ٨٠ .

سيدة كاشف : مصر في فجر الإسلام ، من ٢٠٩ - ٢١١ .

كثير منهم في الاسلام (٦) ، واحتللت انسابهم بانساب المسلمين ،
كما اتخد العرب الذين يسكنون الريف الزراعة حرفه لهم (٧) .

ثم جاء قرار الخليفة المعتصم سنة ٢١٨ هـ باستقطاع العرب من
ديوان العطاء ، وقطع أعطيات من في الديوان منهم ، فأصبح العرب
لا يتميزون عن أهل البلاد الا من الناحيتين الدينية واللغوية ، وفقدوا
مركزهم السياسي في الدولة الاسلامية ، مما اضطرهم إلى الانتشار
في الريف بصورة أكثر مما كان عليه الأمر في القرنين الأول والثاني
الهجريين واشتغالهم بالزراعة والصناعة والتجارة ، وغيرهما من
الأعمال التي كانوا يتفرغون عن الاشتغال بها ، وقد ترتب على
تعايشهم مع المصريين على هذا النحو الواسع أن اشتغل اقبال المصريين
على اعتناف الاسلام ، وهو ما ترتب عليه أيضاً ازدياد اختلاط العرب
بهم عن طريق الزواج . وقد شهدت نهاية القرن الثالث الهجري
تحول الغالبية الكبرى من القبط إلى الاسلام مع ما ترتب على ذلك
من التعریب (٨) .

غير أنه - في القرن الرابع الهجري - يذكر ابن حوقل أن
«معظم رسامي مصر وقراها في الحوف والريف ، وأهلها نصارى
قبط ولهم البيع الكثيرة المزينة الواسعة » ، وأنهم أهل يسار وذخائر
وأموال (٩) . كما يذكر أبو الصلت أن : « سكان أرض مصر اختلط

(٦) المقريزى : المرجع السابق ، من ٨١ .

(٧) سيدة كاشف : المرجع السابق ، من ٢٢٩(٢٢٠) .

- حسن محمد : حضارة مصر الاسلامية ، العمر الطولونى ، من ٢١٥ .

(٩) ابن حوقل : صورة الأرض ، مطبعة دار الحياة بيروت ، من ١٥٠ .

من الناس مختلفوا الأصناف والاجناس من قبط ، وروم ، وعرب ، وأكراد ، وديام ، وحبشان ، وغير ذلك من الأصناف ، الا ان جمهورهم قبط » (١٠) . اما المقدسى الذى زار اقليم مصر فى النصف الهاجرى من القرن الرابع الهجرى فيقول ان « عامه ذهته نصارى يقال لهم القبط ، فيهود قليل » (١١) .

وهكذا نرى الاقباط فى العصر الفاطمى الاول يمثلون اهلية كبيرة غنمه من أهل مصر ، وبالذات فى الصعيد الذى كان معظم أهله منهم (١٢) ، فقد كان يوجد وقتذاك كثير من « قرى النصارى الصعايدة » التى كان يتكلم أهلها اللهجة القبطية ويفسرونها بالعربية (١٣) ، كما كان النصارى يسكنون غالبية سكان بعض القرى مثل « أبنوب » و « طنبى » من قرى الصعيد (١٤) ، فضلا عن كثير من قرى الفيوم التى غلبوا على سكانها (١٥) . وفي الوجه البحري وجدت أيضا بعض القرى التى كان النصارى أكثر سكانها (١٦) :

(١٠) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٤٧ .

بابو الصلت هو أبيه بن عبد العزيز أبي الصلت العلامة الاندلسي الذى زار مصر فى أيام وزارة الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى فى خلافة الامر بأحكام الله ، وتوفي سنة ٥٥٢٨هـ (عنان : تاريخ الجامع الأزهر ، ص ٥٧) .

(١١) المقىسى : المصدر السابق ، ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .

(١٢) خرس الدين خليل : زبدة كشف المالك وبيان الطرق والمسالك ، طبعة باريس سنة ١٨٩٣ م ، ص ٣٣ .

(١٣) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٥٠٦ .

(١٤) قاسم عبده : المرجع السابق ، ص ١٥٥ .

(١٥) أبو عثمان الصدقى : المصدر السابق ، ص ١٣ ، ٦٣ ، ١٠٥ .

١٠٧

(١٦) المقريزى : المصدر السابق ، ص ٢٩ .

فإذا انتقلنا إلى المراكز الصناعية والتجارية ، نجد أن الكثير من أهل النوبة قد سكنتها في تلك المراكز . فمدينة تنبيس التي يمتد ناصرى خصرو سكانها بخمسين ألف نسمة كان القبط يشكلون أكثر سكانها (١٧) ، كما كانت مدينة دمياط يسكنها الكثير من القبط الذين كانت تقع أكثر دورهم على شاطئ البحر (١٨) . أما شطا تلك القرية الصناعية الكبرى - والتي تقع بين تنبيس ودمياط - فقد كان أكثر سكانها عمال السيسين من الأقباط . (١٩) .

كما أن أكثر مدن الصعيد الكبرى كأسيوط وأخميم - على سبيل المثال - كانت غالبية سكانها من القبط نظراً لما كانت تتمتع به هذه المدن من أهمية صناعية وتجارية في مصر الفاطمية (٢٠) .

وعلى الرغم من أنه ليس لدينا بيان شامل بتعذر أهل النوبة في مصر في العصر الفاطمي الأول ، إلا أنه كما سبق أن أوضحنا ، فإن نصارى مصر كانوا يشكلون أقلية كبيرة العدد تقدر بحوالي ثلث سكان إقليم مصر (٢١) .

هذا بينما نجد بنيامين التبليل الذي زار مصر حوالي سنة ٥٦١ هـ / ١١٦٥ مـ ، أى في أواخر العصر الفاطمي يقدر تعداد اليهود في مصر ببضعة آلاف ، فحسب تقديره كان في المحلة حوالي خمسةمائة يهودي ، وفي بلبيس ثلاثة آلاف ، وفي أبي تيج مائتان ، وفي الفيوم مائتان ، وفي دميرة سبعمائة ، وفي الإسكندرية ثلاثة آلاف ، وفي دمياط مائتان ، وفي حلوان ثلاثة مائة ، وفي قوص ثلاثة مائة ، كما

(١٧) ناصرى خصرو : المصدر السابق ، من ٣٩ .

(١٨) المقسى : المصدر السابق ، من ٢٠٢ ، ٢٠١ .

٢٠٢ .

(١٩) المقدس : المصدر السابق ، من ٢٠٢ .

(٢٠) ذكي محمد حسن : كتاب المؤمنين ، من ١١٦ .

(٢١) ماجد : ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر ، من ٢٩٠ .

قدر عدد يهود القاهرة والفسطاط بالفلي يهودى كان من بينهم عدد كبير من الأثرياء وكبار العلماء (٢٢) . ولا بد أن عدد يهود مصر في العصر الفاطمى الأول كان أكبر بكثير مما قدره بنiamin ، إذ يذكر ابن اياس أن عدد من ارتد من اليهود - بعد أن تظاهروا بالاسلام - في يوم واحد في عهد الحاكم بأمر الله كان أكثر من سبعة آلاف يهودى (٢٣) .

كما كشفت وثائق الجنينز عن حقيقة هامة ، وهى أن اليهود لم يعيشوا في المساكن والمدن الرئيسية السالفة الذكر فقط ، بل عاشوا في الريف المصرى أيضا ، ولعبوا دورا هاما في التجارة والأعمال المالية (٢٤) .

أما في الواحات ، فقد كان الغالب على الفرافرون (الفرافرة) السكان من القبط ، ولم يكن يوجد بالواحات من اليهود أحد (٢٥) .

ولم تعدد المصادر التاريخية التي وصلت اليينا من العصر الاخشيدى بما يشير إلى وجود أحياء مخصصة لأهل الذمة في مدينة الفسطاط ، وإن كان طبيعيا أن يفضل أهل كل دين أن يعيشوا متقاربين (٢٦) .

أما في القاهرة الفاطمية فقد وجدت أحياء خاصة بأهل الذمة . فعندهما اختطت القاهرة في جنادى الآخرة سنة ٣٥٩ هـ ، اختطت كل قبيلة خطبة عرفت بها ، واختط الروم الواصلون صحبة جوهر القائد

(٢٢) بنiamin التطليلى : المصدر السابق ، من ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٦ .

(٢٣) ابن اياس : المصدر السابق ، ج ١ ، من ٥١ .

(٢٤) قاسم عدده : المرجع السابق ، من ٦٤ .

(٢٥) ابن حوقيل : المصدر السابق ، من ١٤٥ .

(٢٦) سيدة كاشف وحسن محمود : مصر في عصر الطولونيين والاخشيديين ، من ٢١٤ .

حارة عرفت بهم ونسبت إليهم (٢٧) ، ويذكر الانطاكي أنه كان للروم المكانية حارة بالقاهرة يسكنون بها فاخرجوا منها ، وهدمت مبانيها ، وحوّلوا منها إلى الموضع المعروف بلحراء ، فعملوا لهم بها حارة ، وانخدوا منها موضعاً لسكنائهم (٢٨) .

أما اليهود فقد سكنا حارة الجوزدرية – نسبة إلى أحدى طوائف العيسكري في أيام الحاكم بأمر الله – ، وظلوا مقيمين بها ، إلى أن بلغ الحاكم بأمر الله أنهم يجتمعون بها أوقات خلوتهم ، ويهزّون بال المسلمين ، ويسمخرون منهم ، ويخرجون في الديانة الإسلامية ، ويعرضون إلى ما لا ينبغي سماعه ، فسد الحاكم بأمر الله أبواب الحارة عليهم ليلاً وأخرقها ، ثم أفرد لهم حارة ذويله (٢٩) . وأمرهم في سنة ٣٨٩ هـ / ٩٩٩ م بأن يلزموا حارتهم ، وألا يخالطوا المسلمين في حاراتهم (٣٠) .

وكان الصناع الأجانب يسكنون في المناخ السعيد بالقاهرة ، ويظهر أن هؤلاء الصناع اجتنبهم الفاطميون بالرواتب المغرية والمعاملة السمعية ، أو أنهم كانوا من الرقيق أو الأسرى الذين علموهم مختلف الصنائع والحرف (٣١) .

أما مدينة الإسكندرية فكان يسكن بها كثير من الأجانب المشغلين بالتجارة والذين ينتهيون إلى جاليات أجنبية مختلفة ، وكان لكل جالية فندق خاص بها (٣٢) .

(٢٧) القلقشندي : المصدر السابق ، ج ٢ ، من ٣٥٧ .

(٢٨) الانطاكي : المصدر السابق ، من ١٨٦ .

(٢٩) المقريزي : الخطط ، ج ٢ ، من ٤ .

(٣٠) ابن إياس : المصدر السابق ، ج ١ ، من ٥١ .

(٣١) المقريزي : الخطط ، ج ١ ، من ٤٤٣ .

(٣٢) سرور : مصر في عصر الدولة الفاطمية ، القاهرة ١٩٦٠ م ، من ٢٠٣ .

وكان الفتح العربي لمصر عاملاً مساعداً على احياء اللغة القبطية على حساب اللغة اليونانية التي كانت منتشرة في مصر في ذلك الوقت ، فأصبحت الوروس تقرأ في الكنيسة باللغة القبطية بعد أن كانت تقرأ باليونانية وتشعر بالقبطية ، وبعد أقل من نصف قرن من الفتح تقريباً بدأ العرب يتوجهون إلى تعريب البلاد وإلى جعل اللغة العربية هي اللغة الرسمية وذلك لعدم معرفتهم باللغة القبطية ، وقد بدأ في تعريب الدواوين في مصر سنة ٨٨ هـ / ٧٠٦ م في ولاية عبد الله بن عبد الملك ، مما أضطر المصريين العاملين في دواوين الحكومة إلى تعلم اللغة العربية حفاظاً على الوظائف التي كانت يأدي إليهم (٣٣) . وفي القرن الثالث الهجري / الناسع الميلادي بدأت اللغة القبطية في الانحسار والثلاثي أمام اللغة العربية نتيجة لما حدث من اتمام حركة التعريب في مصر (٣٤) .

وعلى الرغم من أن اللغة العربية أخذت في الانتشار ، وأن المصريين أقبلوا على تعلمها ، إلا أن عامة أهل مصر – على حد تعبير المقسي – كانت « لغتهم عربية ركيكة .. وذمتهم يتحدثون القبطية » (٣٥) .

وكان القبط يتكلمون القبطية بلهجات متعددة ، فاللهجة البحرية كانت تستعمل في الاسكندرية وما جاورها والدلتا ووادي النطرون ، ثم أصبحت هي اللهجة الرسمية للكنيسة القبطية منذ أن نقل البابا خريستودولوس البطريركية إلى القاهرة في أوائل القرن الحادى عشر الميلادى / الخامس الهجرى (٣٦) .

(٣٣) سيدة كاشف : مصر في فجر الإسلام ، من ١٧٩ .

(٣٤) زكي شنودة : موسوعة تاريخ الأقباط ، الطبعة الثانية ، الجزء الأول ، ص ١٠ .

(٣٥) المقسي : المصدر السابق ، من ٢٠٣ .

(٣٦) زكي شنودة : إلرجع المصادر ، من ١٠ .

ويذكر المقريزى أن نصارى قرى الصعيد الأهل كانوا يتکلمون « القبطى الصعيدى » - اللهجة الصعيدية - وأن نساء نصارى الصعيد وأولادهم لا يتكلمون الا القبطية الصعيدية ، وأن لهم أيضاً معرفة باللغة الرومية « اليونانية » (٣٧) .

وكان من عادة نصارى مدينة أسنا أنهم كانوا يحضورون أفراح المسلمين ويطوفون فيأسواق المدينة وشوارعها أمام العرائس وهم يهملون ويغدون بعبارات قبطية صعيدية (٣٨) .

وفي الصعيد كانت هناك أيضاً لهجات قبطية فرعية مثل اللهجة الاخميمية التي كانت تستعمل في أخميم واللهجة الأسيوطية التي كانت تستعمل في أسيوط ، واللهجة الفيومية التي كانت تستعمل في الفيوم . وأما في شرق الدلتا فقد كان القبط يتحدثون باللهجة البشمرية (٣٩) .

وفي القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى أخذ بعض علماء الأقباط يكتبون مؤلفاتهم باللغة العربية . فقد كتب البطريرك الماكانى سعيد بن بطريق (ت ٣٢٨ هـ / ٩٤٠ م) كتابه فى التاريخ باللغة العربية ، كما أن ساويرس بن المقفع (ت أواخر القرن الرابع الهجرى / أواخر القرن العاشر الميلادى) أستاذ الأشمونيين كتب مؤلفه « سير الآباء البطاركة » باللغة العربية أيضاً ، هذا بجانب القيام بجمع البوئاق اليونانية والقبطية وترجمتها إلى العربية (٤٠) .

(٣٧) المقريزى : اليخطيط ، ج ٢ ، ص ٥٥٦-٥٥٥ .

(٣٨) جاك تاجر : المرجع السابق ، ص ٢٠٥ .

(٣٩) ذكر شنودة : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١١ .

(٤٠) سيدة كاشف : مصر في فجر الإسلام ، ج ١٨٠ .

غير أن اللغتين القبطية واليونانية ظلتا مستعملتين في المعاملات الخاصة إلى أن بطل استعمالهما في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي . ففي هذا القرن أص بحث اللغة العربية لغة التفاوط السائدة (٤١) .

— المكانة الاجتماعية لكبار أهل النوبة :

كان لسياسة التسامح الديني التي اتبعها الفاطميون أداءً أهل النوبة أثراً كبيراً عليهم كطبقة اجتماعية عاشت في المجتمع المصري، إذ كان منهم الوزراء والوسطاء وكبار رجال الدواعين ، والكتاب والأطباء والمتقبليين ، والضمان ، والصناعة المهرة ، والتاجان الأثرياء ، والملوك أصحاب الضياع في مصر ، ووصل الكثيرون منهم إلى مكانة اجتماعية سامية ، فكانوا من الطبقة العليا في المجتمع ذات الصلة الوثيقة بالخلفاء الفاطميين الذين أجزلوا لهم الاعطاءات والضياع والمنح والأموال والعطايا في شتى المناسبات .

ففي سنة ٣٦٩ هـ ٩٧٩ م ولد للوزير ابن كلس ولد ، فأرسل إليه العزيز بالله مهداً من صندل مرصع وثلاثمائة ثوب ، وعشرة آلاف دينار ، وخمسة عشر فرساناً بسرورها ولجامها ، منها اثنان لهما ، كما اشتملت الهدية على كثير من الطيب ، وقد بلغت قيمة هذه الهدية مائة ألف دينار (٤٢) .

(٤١) ذكر شنودة : المرجع السابق ، ج ١ ، من ١٣ .
ويذكر المؤلف أن اللغة القبطية ظلت لغة التفاوط في القرى البعيدة في الصعيد الأعلى حتى القرن السادس عشر الميلادي (القرن الحادى عشر الهجرى) ، وفي القرن الثامن عشر الميلادي بدأ الأقباط يكتبون اللغة العربية بحروف عربية ، وفي القرن التاسع عشر انتهى الكلام والتفاوط باللغة القبطية وإن كانت قد ظلت لغة الكنيسة حتى القرن العشرين (ذكر شنودة نفس المرجع ، ونفس الصفحة) .
(٤٢) المقريزى اتفاقاً على ذلك ، ج ١ ، من ٢٥٢ .

وقد أغلق الخليفة الفاطميون على كثير من الأطباء من أهل النوبة - الذين سبقت الاشارة اليهم - بالأموال والهدايا تشجيعاً وتكريماً لهم (٤٣) ، وكان لبعضهم المكانة المرموقة من أصحاب القصر ، وكما شمل الخليفة أولاد أطبائهم بالرعاية فاطلقوا لهم الأموال الوفيرة والهبات فعاشوا في رغد من العيش (٤٤) .

وضم مجلس الخليفة المعز كبار رجال الدولة من اليهود والنصارى ، اذ كانوا هم الطبقة التي اعتمد عليها في ادارة دواوين الحكومة ، ففي عهده بلغ ابن كلس منزلة رفيعة في بلاط الخليفة وتولى الادارة المالية في الدولة ، وليس هناك ادل على علو المنزلة الاجتماعية لرجال الدولة منهم ، من تلك العلاقة والصادقة التي وجدت بين العزيز بالله ووزير ابن كلس ، وفي كلمات العزيز له وقت احتضاره ، ما يؤكد حب الخليفة له ، ومكانته الاجتماعية (٤٥) ، وفي رسالة العزيز الى طبيبه ابن مبشر ما يشير الى علو منزلة الطبيب عند الخليفة وتقديره له . كما ان الحاكم بأمر الله زار ابن مبشر عندما مرض ، وأنعم على أولاده بالأموال والهبات بعد وفاته (٤٦) .

وجالس ابن نسطور الطبيب النصراوي الخليفة الحاكم بأمر الله ، وشرب معه عندما أشار عليه بذلك ، وكان من خواصه ونديمانه ، وواحد من القلائل الذين يفضي اليهم بأسراره ، كما جالس

(٤٣) ابن العبرى : المصدر السابق ، من ٢١٦ .

(٤٤) القطلى : المصدر السابق ، من ٤٣٨ .

- ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، من ٥٤٨ .

(٤٥) أبو شجاع : المصدر السابق ، من ١٨٩ .

(٤٦) القطلى : المصدر السابق ، من ٤٣٨ .

- ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، من ٥٥٠ .

ابن نسطناس كبار رجال الدولة الفاطمية أمثال قائد القواد الحسين
ابن جوهر ، وأبو الحسن الرسي ، والمبمحى ، والقاضى عبد العزيز
ابن محمد بن النعمان ، وكان يخالطهم ، ويحضر مجالسهم
الخاصة (٤٧) .

وامتلك كثير من أهل الندوة الآف والألف والآلاف والقصور الفخمة
التي امتلأت بالخدم والعبيد ، واكتنفت بأثمن ما عرف في هذا العصر
من موجدات وتحف وذخائر ومقتنيات .

فقد بلغت ثروة قزمان بن مينا عامل الاترخاج بفلسطين في عهد
ال الخليفة المز ما يزيد على تسعين ألف دينار (٤٨) ، كما امتلك الوزير
يعقوب بن كلس الاقطاعات والضياع والأموال ، وكان قصره واحداً
من أعظم قصور القاهرة الفاطمية و يوجد في تركته بعد وفاته (ت
٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م) من الجواهر أربعمائة ألف دينار ، ومن المليوس
والمركوب ما قيمته خمسمائة ألف دينار ، ووجدا له من العبيد
والمالك أربعة آلاف غلام ، سكنا في المكان المعروف بالحارة
الوزيرية التي اتخذها سكنا لحاشيته وعبيده ومماليكه وحشمه ،
ولما مات ابن كلس كفن بما قيمته عشرة آلاف دينار (٤٩) .

كذلك عرف عن عيسى بن نسطورس أنه كان مجبلاً لجمع المال
فالكل قد اتخذ من الوزارة أو الوساطة وسيلة للثراء (٥٠) ، وليس
أدل على ثراته الفاحش غير المشروع من تلك الغرامات التي بلغت

(٤٧) ابن حجر المسقلانى : رفع الضر عن قضاة مصر ، القسم الثاني ، ص
٣٦٢ ، من ٣٦٢ .

(٤٨) الآتيا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٣ ، ورقة ٤٤ .

(٤٩) العينى : المصدر السابق ، ج ١٩ ، ورقة ٤٢٠ .

(٥٠) المنارى : المرجع السابق ، ص ٨٦ .

ثلاثمائة ألف دينار ، والتي دفعها إلى خزينة الدولة عندما غضب عليه العزيز بالله لسوء سياسته (٥١) .

أما منشا بن ابراهيم القراز اليهودي الذي كان عاملا على الشام ، فقد جمع ثروة بالابتزاز ، مما اضطر الخليفة العزيز إلى مصادرته (٥٢) . كما استحوذ فهد بن ابراهيم الصرانى على كثير من الاقطاعات والضياع والأموال وبلغ راتبه السنوى ستة آلاف دينار (٥٣) .

وكان سهل بن يوسف أخ يعقوب بن كلس الوزير واسع الشراء ، وعندها أمر المحاكم بأمر الله بقتله في سنة ٣٩٤ هـ / ١٠٠٣ م بسبب طمعه وجشعه عرض أن يدفع ثلاثة ألف دينار علينا يغدو بها نفسه فلم يجرب إلى ذلك (٥٤) .

ويحدثنا ناصرى خصرو عن ثروة أبي سعيد التسترى بقوله أنه « يهودى وافى الثراء ٠٠٠ وقيل أنه لا يعرف مدى غناه الا الله ، فقد كان على سقف داره ثلاثة جرة من الفضة ، زرع فى كل منها شجرة ، كأنها حدائق ، وكلها أشجار مشمرة » (٥٥) . وعندما قتل أبو سعيد كتب أخوه لما ملكه الفزع رسالة لل الخليفة المستنصر بأن يقسم خورا لخزانة الدولة مائتين ألف دينار ، غير أن المستنصر بالله أمر بعرض الرسالة على الناس ، وتميزيقها على الملا ، وخطاب الجميع قائلا « كونوا أمنين ، وعودوا الى بيوتكم ، فليس لأحد شأن بكم ، ولستنا بحاجة لمال أحد » (٥٦) .

(٥١) الفويرى : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٤٩ .

(٥٢) أبو شجاع : المصدر السابق ، ص ١٨٦ .

(٥٣) ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٥٩ .

(٥٤) المقرىنى : اتعاظ الحنف ، ج ٢ ، ص ٥١ .

(٥٥) ناصرى خصرو : المصدر السابق ، ص ٦٥،٦٤ .

(٥٦) ——— : المصدر السابق ، ص ٦٥ .

كما يذكر ناصرى خسرو أنه رأى بمدينة الفسطاط نصارى مار كبار أغنياء مصر ، قيل أن مراكبه وأمواله وأملاكه لا يمكن أن تعد وإن لدى هذا النصارى من الغلال ما يمكنه من اطعام أهل مصر «الفسطاط» سنتين (٧٥) . وعلى الرغم من أن ناصرى خسرو كان مبالغًا فيما رواه ، إلا أن في روايته الدليل القوى على ثراء الكثير من أهل الدّرّة في مصر الفاطمية .

وكان أبي الملجم الملقب بـ«بـهـاتـي» واحداً من نصاريـي أسيـوط الآثـريـاء، وأنـه كان يمتـلك أـيـام الـفـلاء والـشـدة العـظـمى فـي عـصـر الـمـسـتـنـصـر بالـلـه قـمـحاـكـثـيرـاً، وـكـان يـوزـعـه عـلـى فـقـراء الـمـسـلـمـين الـذـيـن أـجـبـوه وـشـكـرـوه لـحـسـن صـنـيـعـه (٥٨) .

ويذكر أبو صالح الأرمياني أن واحداً من نصارى مصر ويدعى المعلم سرور الجلال كان ذا مال وجاه ، وكانت علاقته وثيقة بال الخليفة المستنصر وكان يقدم لل الخليفة وحاشيته أثناء الاحتفال بكسرى . سد الخليج أنواع الأطعمة والأشربة والحاوى فيقبلها منه ، ويحتاج عليه ويقضى حواهجه (٥٩) . أما المعلم اسحق الذي كان واحداً من كبار أثرياء التجار بمدينة قسطنطينية فقد امتلك من الأرضي والأموال والماشية الشيء الكثير (٦٠) .

ولم تكن الدولة تصادر ممتلكات ثروات واقتراهم كبار موظفيها من أهل النمة طبعاً فيها ، وإنما كانت تصادر هذه الثروات بسبب سوء سياستهم الإدارية والمالية أو استغلال لغذهم ،

^(٥٧) نفس المصدر ، هي ٦٢ .

^(٥٨) المقريزى : الخلط ، ج ٢ ، ص ١٥٩ .

^(٥٩) أبو صالح الأرمني المصدر السابق .. ح ٣٢.

١٣٠ نلسون المعلم ، حن

٦٢٠ - ورقة ١٩ - ج ٢٠ - العيني : المصدر السابق

وأنحيازهم لبني ملتهم ، ووجههم الشروط بطرق غير مشروعة ،
أو بسبب ترفعهم وشكوى الرأى العام الإسلامي منهم .

وقد امتلك أهل الديمة - وبخاصة الآتية - الرقيق ، ليحملوا
خدمًا في القصور . فقد وجد في تركه ابن كثير أربعة آلاف عبده
ومملوك (٦١) ، كما امتلاك قصورهم بالجواري والقيّنات ، وكان
اليهود المشغلون في تجارة الشرق يشترون الجوواري لاتخاذهم خدماً
لهم (٦٢) ، ومن الجدير بالذكر أن زوجة العزيز بالله أم سنت الملك
كانت جارية رومية (٦٣) ، كما كانت أم المستنصر بالله جارية لأبي
سعید التسترى أهدافها لل الخليفة الظاهر لاعتزاز دین الله (٦٤) ،
وكان من نتيجة اختلاط أقباط مصر بغيرهم من طوائف الشعب أن
تهافت الأقباط - وبخاصة الموظفين منهم - على تعدد السراري في
بيوتهم بلون عقد شرعى ، مما يتنافى مع روح الديانة المسيحية (٦٥) .

ونتيجة لهذا الشراء وتلك المكانة الاجتماعية ، كان أهل الديمة
يلبسون الملابس الجليلة ، وكان عمال النصارى يلبسون أثواباً
كاثواب عظام المسلمين ، ويركبون البغال ويمطرون الخيول (٦٦) .
على أن الكثرين من أهل الديمة كانوا يجعلون لأنفسهم مقاماً
عالياً أمام الطبقة الدنيا ، وكانت مفاسدهم وترفعهم على هذه الصورة
أمام جمهور المسلمين تؤدى إلى ارتفاع أصوات المسلمين

(٦٢) القومى : المرجع السابق ، ص ٢١٣ .

(٦٣) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، رقم ٥١ .

(٦٤) ابن ميسير : المصدر السابق ، ج ٢ ، من ٣١ .

(٦٥) بقشر : تاريخ الأمة القبطية وكنيستها ، ج ٢ ، من ٦١ .

(٦٦) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، من ٣٦٦ .

بالاستثنكار (٦٧) ، فتصدر أوامر الخلفاء الفاطميين بفرض قيود اجتماعية ضدهم – سنوسمجها فيما بعد . وكانت هذه القيود تطبق بمنتهى الصراوة في حينها ، ثم لا تثبت أن تخفف شيئاً ، ولذلك كان الأمر يستلزم تكرار فرض تلك القيود في صورة مراسيم متتالية صادرة من دار الخلافة .

وقد أعم الخلفاء الفاطميون على كبار رجال دولتهم من أهل النعمة بالألقاب تكريماً لهم ، ودلالة على مكانتهم في الدولة . فابن كلس الوزير لقب « بالوزير الأجل » (٦٨) ، ولقب عيسى بن نسطور بـ « بسيطنا الأجا » (٦٩) ، أما ابن عبليون فقد منحه الخليفة الحاكم بأمر الله لقب « الكافى » (٧٠) ، كما أنعم على زرعة بن عيسى ابن نسطور بـ « الشاففى » (٧١) ، ولقب أخيه صاعد بن عيسى ابن نسطور « بالأمير الظاهر شرف المناك تاج المعال ذوالجلدين » (٧٢) . أما المستنصر بالله الفاطمي فقد منح أبو نصر صدقة بن يوسف الفلاحي اليهودي الأصل لقب « الوزير الأجل تاج الرياسة فخر الملك مصطفى أمير المؤمنين » (٧٣) ، كما منح أبو علي الحسين بن أبي سعد ابن ابراهيم بن سهل التسترى لقب « العميد علم الكفافة » ، وخطب أبو سعد منصور بن زنبور الوزير النصرانى الأصل – في خلافة

٠ بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية ، ترجمة حمزة طاهر ، ص ٢٤

(٦٧) ————— : نفس المرجع والمصفحة

(٦٨) المقرizi : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٥

(٦٩) المناوى : المرجع السابق ، ص ٢٤٤

(٧٠) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٩٦

(٧١) ابن القلنسى : المصدر السابق ، ص ٦٤

(٧٢) المناوى : المرجع السابق ، ص ٢٥٠

(٧٣) المقرizi : العافظ الجنقا ، ج ٢ ، ص ١٩١

المستنصر - بلقب «الأجل الواحد المكتين السيد الأنضول الأمين شرف
الكتابة عميد الخلافة محب أمير المؤمنين » (٧٤) .

وعلى الرغم من أن هذه الألقاب تدل على نفوذ هؤلاء الوزراء
والوسطاء إلا أن في الألقاب الأخيرة ما يشير إلى ازدياد نفوذهـم ،
واستفحـال أمرـهم ، وعلـو مكـانتـهـم الـاجـتمـاعـيـة وبـخـاصـة فـي عـهـد
المـسـتـنـصـرـ بالـلـهـ خـامـسـ الـخـلـفـاءـ الـفـاطـمـيـينـ فـيـ مـصـرـ ..

- القيود الاجتماعية التي فرضت على أهل الـلـهـ :

التزم أهل الـلـهـ في الـدـوـلـةـ الـاسـلـامـيـةـ منـ النـاحـيـةـ الشـرـعـيـةـ
بعدـةـ قـيـودـ تـعـلـقـ بـالـمـظـهـرـ الـاجـتمـاعـيـ ، وـتـشـكـلـ جـانـبـاـ مـاـ اـصـطـلـحـ عـلـىـ
تـسـمـيـتـهـ «ـ بـالـعـهـدـ الـعـمـرـيـ »ـ أوـ «ـ الشـرـوـطـ الـعـمـرـيـةـ »ـ ، الـمـسـوـبـةـ إـلـىـ
الـخـلـفـاءـ عـمـرـ بـنـ الـخـطـابـ .

وـتـمـثـلـتـ تـلـكـ الـقـيـودـ الـاجـتمـاعـيـةـ فـيـ الزـامـ أـهـلـ الـلـهـ بـلـبـسـ
الـغـيـارـ فـانـ كـانـ يـهـودـيـاـ وـضـعـ عـلـىـ كـتـفـهـ خـيـطاـ أحـمـرـ أـوـ أـصـفـرـ ، وـانـ
كـانـ نـصـرـانـيـاـ شـدـ فـيـ وـسـطـهـ زـنـارـاـ وـعـلـقـ فـيـ عـنـقـهـ صـلـيـباـ ، وـانـ
كـانـ اـمـرـأـ لـبـسـتـ خـفـيـنـ أـحـدـهـمـ أـيـضـ وـالـآخـرـ أـسـوـدـ ، وـاـذـ دـخـلـ

(٧٤) المـناـوىـ :ـ المـرـجـعـ السـابـقـ ،ـ هـنـ ٢٦٢ـ .ـ ٢٦٦ـ .

الذمئى الحمام ينبعى أن يكون فى عنقه طوق من حديد أو نحاس أو رصاص تمييزا له من المسلم (٧٥) .

كما اشترط على أهل الذمة لا تعلو أصوات نواقيسهم وتلاوة كتبهم ، وألا تعلو أبینتهم فوق أبینية المسلمين ، وألا يتغافروا بشرب الخمر واظهار الصلبان والخنازير ، وأن يخفوا دفن موتاهم وألا يجاهرو بالندب عليهم ولا نياحة وإن يتمتعوا من ركوب الخيل (٧٦) .

تلك هي بعض الشروط التي وردت « بالمعهد العمرى » أو « الشروط العمرية » التي تنظم تصرفات أهل الذمة في المجتمع الإسلامي . ولم يكن أغلب الحكماء المسلمين يلتجأون إلى الزام أهل الذمة بهذه الشروط إلا في حالات الاضطهاد والحرروب (٧٧) . ويرى البعض أن تلك الشروط المشار إليها والتي عرفت باسم « الشروط المستحبة » إنما هي من وضع الفقهاء في مرحلة متأخرة ،

(٧٥) الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة . ص ١٠٦ .

دروى أن نصارى الشام شرطوا على أنفسهم في كتابهم إلى عمر بن الخطاب أن لا يتشبهوا بال المسلمين في شيء من ملابسهم من قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا ينقشوا على خواجههم بالغربيّة ، وأن يلزموا زيهم حيثما كانوا ، وأن يشددوا الزثار على أوساطهم ، ويرى أصحاب الإمام الشافعى أن أهل الذمة يلزمهم أن يتغافروا في اللباس عن المسلمين ، وأن يلبسو قلنس تمييزهم عن قلنس المسلمين بالحمرة ويشددوا الزثار على أوساطهم ، ويكون في رقابهم خاتم من نحاس أو رصاص أو جرس يدخلون به الحمام ، وليس لهم أن يلبسو العمام أو الطيلسانات . وأما المرأة فأنها تشد الزثار تحت الأزار ، وقبيل فوق الأزار ، وهو الأولى ، ويكون في عنقها خاتم تدخل به الحمام ، ويكون أحد خفيتها أسود والآخر أبيض (الا بشيء) المستطرف في كل فن مستطرف ، ج ١ ، من ١١٢-١١٠) .

(٧٦) فقسم عبده : المرجع السابق ، من ٢٠ ، ٢١ (نقلًا عن ابن قيم الجوزية : حكم أهل الذمة ، ج ١ ، من ٧٣٦) .

(٧٧) ماجد : الحكم بأمر الله ، من ٩٥ . ٩٦ .

مغالة منهم في فرض القيود على أهل الذمة لم تفرض عليهم هذه الشروط في عهد النبي صلى الله عليه وسلم (٧٨) .

وفي بداية العصر الفاطمي الأول لم يلغا الخليفتان المعز لدين الله وولمه العزيز بالله إلى فرض آية قيود على أهل الذمة وبخاصة فيما يتعلق بالملابس ، والركوبات ، والختامات ، واستخدام المسلمين لدى أهل الذمة ، فلما تسامح كان أساساً لسياسةهما تجاه أهل الذمة ..

لكن الخليفة الحاكم بأمر الله بعد عدة سنوات من توليه الخلافة أصدر عدداً من المراسيم والسجلات التي نصت على فرض قيود اجتماعية على أهل الذمة – باستثناء الخيابرة – (٧٩) ، وتلزمهم بالتمييز عن المسلمين بعلامات عرفت بالغيار ، وذلك تنفيذاً لما اصطلاح على تسميته « بالشروط العمرية » ولكن الحاكم بأمر الله بالغ في هذه الشروط وزاد عليها ، لذا اعتبر أهل الذمة عودة الحاكم إلى تطبيق هذه الشروط فزيادته عليها امتحاناً لهم من قبل الله يذكرهم بما عانوه في عهود الأضعفاء السابقة (٨٠) . ذلك أن الحاكم بأمر الله قد أخذهم بالشدة في تطبيقها بالدرجة التي فاقت احتمال الكثريين منهم (٨١) .

ففي التصنف الأول من شهر المحرم سنة ٣٩٥ هـ أصدر الحاكم بأمر الله سجلاً ألزم النصارى ، واليهود – دون الخيابرة – بشدة الزناير في أوساطتهم ، ووضع العمامات السود على رؤوسهم – إذ كان التشواد هم شعار المباصيين وهم العصبة في نظر

(٧٨) قاسم عبد : الترجمة السابقة ، جزء ٢١ .

(٧٩) وهم يهود يرجع أصلهم إلى حتىين وما يشار إليها ، الذيق أثر عمر بن الخطاب بتقليله من شبه الجزيرة العربية إلى مصر ، وذلك جرياً على السنة الأولى

منذ أيام النبي صلى الله عليه وسلم (ماجد : الحاكم بأمر الله ، ص ٩٦) .

(٨٠) ماجد : ظهور خلالة الفاطميين وسقوطها في مصر ، ص ٣٥٤ .

(٨١) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٢ . ورقة ٥٩ .

الفاطميين - وأعلن هذا السجل في جوامع مصر ، فامتثل لأمر الخليفة سائر أهل الذمة في أنحاء الدولة (٨٢) .

وفي سنة ٣٩٧ هـ / ١٠٠٦ م اشتندت القيود صرامة ، ففي هذا العام أمر النصارى ، واليهود - دون الخيابرة - بلبس السواد ، وأن يحمل النصارى الصليبان في أعناقهم ، وأن يحمل اليهود في أعناقهم قرامي الخشب والجلاجل (٨٣) .

وفي العام التالي أخذ الحاكم بأمر الله أهل الذمة بالشدة فيما يتعلق بالغيار ، واشترط على من يقيم في دولته منهم في مصر أن يتزلم بما شرط عليهم من الشروط التي زاد فيها على الشروط العمرية ، فشرط على النصارى تعليق الصليبان ظاهرة ، وعلى اليهود قرامي الخشب على هيئة رأس العجل . فاتخذ النصارى صليبان الذهب والفضة ، فأنكر الخليفة ذلك ، وأمر المحتسبي أن يأخذوا النصارى بتعليق صليان الخشب واليهود بتعليق القرامي ، كما أمر بالنداء في أهل الذمة بأنه من أراد الدخول في الإسلام فله ذلك ، ومن أراد الانتقال إلى بلاد الروم كان آمناً إلى أن يخرج ، ومن أراد المقام بمصر فعلية بلبس الغيار والالتزام بما شرط عليه ، فاضطر كثير من أهل الذمة تحت وطأة تلك القيود الصارمة إلى الدخول في الإسلام (٨٤) .

كما نودى في سنة ٣٩٩ هـ / ١٠٠٨ م بأن لا يمشي اليهود والنصارى إلا بالغيار والا ضربوا على ذلك . ويذكر المقريزي أنه في

(٨٢) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٨٧ .

- المقريزي : اتعاظ الحنطا ، ج ٢ ، ص ٥٣ .

(٨٣) التويري : المصدر السابق ، ج ٣٦ ، ورقة ٥٣ .

(٨٤) ابن العبرى : المصدر السابق ، ص ٣١٣ .

- ابن الجوزى : المنتظم ، ج ٧ ، ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م اشتد الأمر على أهل الذمة في الزامهم لبس الغيار (٨٥) . وفي العام التالي أمر الحكم بأمر الله أن تؤخذ الذمة الزامهم لبس الغيار (٨٥) . وفي العام التالي أمر الحكم بأمر الله أن تؤخذ الذمة من النصارى واليهود بتغيير الزنانير الملونة التي يلبسونها والاقتصار على لبس الزنانير السود فقط دون غيرها من الألوان مع وضع العمامات السود على رؤوسهم (٨٦) .

وفي سنة ٤٠٢ هـ / ١٠١١ م أمر النصارى واليهود - دون الخيابرة - بلبس العمامات السود ، وأن تحمل النصارى في عناقهم الصليبان ما يكون طوله ذراعاً ووزنه خمسة أرطال ، وأن تحمل اليهود في عناقهم عند خروجهم إلى الأسواق قرامي الخشب على وزن صليبان النصارى (٨٧) .

ويذكر ابن ايس أن الخليفة الحكم بأمر الله ألزم النصارى أن تكون الصليبان من حديد بطول ذراع وأن يلبسوا المازر الفسيحة ، فاقاموا على ذلك مدة ثم أعادهم إلى ما كانوا عليه (٨٨) .

وجدد الحكم بأمر الله هذا المرسوم في سنة ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م ، فأمر أن تلبس النصارى واليهود - دون الخيابرة - طيالسة سود ، وعمائم شديدة السود وأن يعلق النصارى في عناقهم صليبان

(٨٥) المقريزى : اعتراض الحنفأ ، ج ٢ ، ص ٧٦ ، ٨١ .

(٨٦) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٠٠ .

- المقريزى : اعتراض الحنفأ ، ج ٢ ، ص ٨٥ .

(٨٧) القضايعى : المصدر السابق ، ورقة ١٨٠ .

- ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣٨٠ .

- العينى : المصدر السابق ، ج ١٩ ، ورقة ٦٧٨ .

(٨٨) ابن ايس : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٢ ، ٥٣ .

الخشب مضانًا إلى الزنار في أوساطهم ، فلبسوه صلبانا طولها فتر ، ثم أمر بعد شهر وجعلها قدر شبر في شبر . فلما كان يوم الأحد النصف من شهر ربیع الآخر من نفس العام أمر النصارى بتعظيم الصلبان التي في رقابهم ، وأن يكون طولها ذراع في عرض مثله ، وفتحها ثلاثة شبر وسمكتها أصبع (٨٩) ، غير أن الأنبا ميخائيل ذكر أن طول الصليب كان ذراعاً ونصفاً على أن يكون وزن كل صليب خمسة أرطال مختوم بخاتم رصاص عليه اسم الخليفة ، وأن يعلقه في رقابهم بحبال من ليف (٩٠) . كما نووى على اليهود بأن يعلقوا في رقابهم قرامي الخشب على هيئة رأس عجل زنة كل منها خمسة أرطال تعلق في رقابهم بحبال من ليف وتحتم بخاتم من رصاص عليه اسم الخليفة الحاكم (٩١) ، وعلى أن تكون هذه الصلبان والقرامي ظاهرة فوق ثياب أهل الذمة عند خروجهم إلى الأسواق بحيث يراها الناس (٩٢) وأذن للناس في البحث عن المخالفين وتبיע آثارهم (٩٣) ، مما أثار الفزع بين النصارى وكثرت مخاوفهم ، وخلت الطرقات أيامًا لم ير فيها نصارى (٩٤) ، وإذا وجد واحد من أهل الذمة عليه صليب أو قرمة وغير ختم كان يتعرض للإهانة والغراوة ، مما أدى إلى أن ضيق أهل الذمة ذرعاً بتلك القيود التي فرضت على الملابس . ويروى الأنبا ميخائيل أن نصارى مدينة تنيس ذاقوا الأمرتين من تلك القيود ، ومن مضائقات المسلمين لهم ،

(٨٩) الانطاكي : المصدر السابق ، من ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

(٩٠) الأنبا ميخائيل ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٥٦ .

(٩١) ——— : نفس المصدر ، من ٥٦ .

— الانطاكي : المصدر السابق ، من ٢٠٣ .

(٩٢) المقريزى : الخطط : ج ٢ ، من ٢٨٧ .

(٩٣) عنان : المرجع السابق ، من ١٣٩ .

(٩٤) الانطاكي : المصدر السابق ، من ٢٠٤ .

فإذا نسي نصراني منهم صليبه ومشى في طرقات المدينة بلا صليب
تعرض للأذى ولقي كثيرا من الإهانة والسخرية (٩٥) .

غير أنه قد خف من تلك القيود تصريح الحاكم بأمر الله
لرعاياه من أهل الذمة في صفر سنة ٤٠٤ هـ بالانتقال إلى بلاد
الروم أو التوبه أو العيشة ، أو النزام الغيار اذا رغبوا في
البقاء (٩٦) ، كما لجأ الكثير من النصارى تحت وطأة تلك القيود
وصرامتها إلى نزع الغيار والصلب والزار والتشبه بال المسلمين ،
والظاهر بالاسلام ليظن من يراهم قد اعتنقوا الاسلام (٩٧) .
كما شملت سجلات الخليفة الحاكم بأمر الله التي أصدرها
بشأن أهل الذمة عدة قيود فرضت عليهم عند دخولهم الحمامات (٩٨) .

ففي سنة ٣٩٨ هـ و ٣٩٩ هـ / ١٠٠٧ م و ١٠٠٨ م ، أمر
الحاكم بأمر الله أن يتميز أهل الذمة عند دخولهم الحمامات بعلامات
تمييزهم عن المسلمين وذلك بأن يتميز النصارى بصلب يعلقونه
في رقبتهم ، وأن يتميز اليهود بجلجل مكان الصليب ، كما نوبي
ألا يدخل أحد الحمام إلا بمئزر ، وأخذوا بالشدة والضرب في تنفيذ
تلك الأوامر ، كما كbisـت الحمامات للتأكد من مراعاة ما جاء بذلك
السجلات . غير أنه لم تلبث تلك الأوامر أن زالت بعد مدة ، ولم
يعد أهل الذمة يكترون بتنفيذها (٩٩) .

(٩٥) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٥٧-٥٩ .

(٩٦) الانطاكي : المصدر السابق ، من ٢٠٧ .

(٩٧) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٥٧ .

- المقريزي : اتحاط الحنفاء ، ج ٢ ، من ٩٤ . ويدرك المقريزي تاريخ هذه
الرسوم في ربيع الأول سنة ٤٠٣ هـ .

(٩٨) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٩٥ .

- ابن الجوزي : المنتظم ، ج ٧ ، من ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

- المقريزي : اتحاط الحنفاء ، ج ٢ ، من ٧٦ .

وفي المرسوم الذى أصدره الحاكم سنة ٤٠٢ هـ / ١٠١١ م أكد ما سبق أن أصدره من أوامر بشأن حمامات ، ثم أفرد حمامات اليهود وحمامات النصارى من حمامات المسلمين . وأمر لا يدخل أحد من أهل الذمة حماما مع المسلمين وأصبحت لهم حمامات خاصة - كذلك الحمام الذى أنشأه ابن أبي الدم اليهودي كاتب الانشاء فى عهد الحاكم - ، ووضع على حمامات النصارى الصليبان الخشب وعلى باب حمامات اليهود القرامي الخشب ، كعلامات مميزة تعرف بها ، مع التزامهم بتعليق الصليبان والقرامي الخشب فى رقابهم عند دخولهم الحمامات (٩٩) . وتاكد ذلك مرة أخرى فى المرسوم الذى أصدره فى سنة ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م ، كما تكررت تلك القيد فى المرسوم الصادر من دار الخلافة فى شهر المحرم من السنة التالية (١٠٠) .

أما فيما يتعلق بالركوبات ، فإنه طوال خلافة المعز لدين الله وابنه العزيز لم تفرض على أهل الذمة أية قيود تتعلق بذلك ، كما نعموا بحرية استعمالها فى بداية خلافة الحاكم بأمر الله ، فقد كانوا يركبون الخيل وخاصة أثناء الاحتفال بعيادهم (١٠١) ، واهتم الأثرياء وكبار رجال الدولة من أهل الذمة باقتناص الخيول والبغال ، وكانت لهم الأصطبلات المعدة لتربيتها . ويدرك المقريزى أن فهد ابن ابراهيم النصرانى كان يمتلك العشرات من الخيول والبغال ، وأنه حمل إلى الخليفة الحاكم بأمر الله هدية منها ثلاثون بغلة ملونة الأجلال ، وعشرون فرسا منها عشرة مطهمة باللجم والسروج المخلة وعشرة خيول تكسوها أجلال ملونة فاخرة . كما أن الحاكم بأمر الله صرخ

(٩٩) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٥٥ .

- ابن خلkan : المصدر السابق ، ج ٤ ، من ٢٨٠

- التورى : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٥٦

(١٠٠) المقريزى : اقطاع الحنطا ، ج ٢ ، من ٩٤ .

(١٠١) — الخطط ، ج ١ ، من ٦٨ .

لأولاد فهد في شعبان سنة ٣٩٢ هـ باسترداد ما أخذ منهم من سروجهم المحلاة بالذهب ، وأمرهم بالركوب (١٠٢) ، وعندما خلع الحاكم بأمر الله في ربيع الأول سنة ٣٩٤ هـ على أبي يعقوب ابن نسطاس الطبيب ، حمله على بغلين ومعه الشياب الفاخرة ، وما توفي ابن نسطاس استطاع الحاكم بأمر الله صقر اليهودي (ت ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م) وخلع عليه في سنة ٣٩٨ هـ / ١٠٠٧ م ، وحمله على بغلة محلاة بالسرج واللجام الفخمة ، وأهداه ثلاث بغلات بسروج ولجم تقال (١٠٣) .

غير أن سجلات الحاكم بأمر الله التي أصدرها لفرض بعض القيود على أهل الذمة شملت أيضاً قيوداً على الركوبات ففي سجلاته الصادرة في سنتي ٤٠٢ هـ و ٤٠٣ هـ و ٤٠١١ هـ / ١٠١٢ م و ١٠١٣ م منع أهل الذمة من ركوب الخيل ، وأمر أن تكون ركوبهم البغال والعمير وبسروج ولجم غير محلاة بالذهب والفضة ، وأن تكون من جلود سود ، وألا يركب أحد منهم بركب حديد بل تكون ركب سروجهم من خشب الجميز ، وأمر أيضاً أن يضرب بالجرس في القاهرة ومصر (الفسطاط) ألا يركب أحد من المكارية المسلمين ذمياً ، كما منع الملحين وأصحاب السفن المسلمين أن يحملوا على سفنهم أحداً من أهل الذمة (١٠٤) .

ولما كان الأغنياء من أهل الذمة يتهاقون على تعدد السراري في بيوتهم – مخالفين بذلك شريعتهم – (١٠٥) ، وشراء الجوادى ،

(١٠٢) المقريزى : اتعاظ الحنف ، ج ٢ ، ص ٤٤ .

(١٠٣) _____ : اتعاظ الحنف ، ج ٢ ، ص ٧٣ .

(١٠٤) الأنبا بيشائىل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٥ ، ٥٦ ، ٢٠٢ .

– الانطاكنى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٩٤ .

– المقريزى : اتعاظ الحنف ، ج ٢ ، ص ٩٤ .

(١٠٥) تبشر : تاريخ الأمة القبطية ، ج ٣ ، ص ١٥ .

وتخاذل الرقيق واستخدامهم فان الحاكم بأمر الله أمر في السجل الذي أصدره في سنة ٣٩٥ هـ / ١٠٠٤ م بمنع بيع العبيد والآماء لأهل الذمة ، ثم جاء في المرسوم الذي أصدره في سنة ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م لا يستخدم الذميين مسلماً وألا يقتنوا عبداً مسلماً أو جارية مسلمة ، وقد تتبع آثار المخالفين لأوامره (١٠٦) .

وأمام اقبال نصارى مصر على تربية الخنازير وأكل لحومها ، أمر الحاكم بأمر الله بقتل الخنازير التي في أقليم مصر ، فقتلتها جميعها ، وكانت خنازير كثيرة لاسيما التي كانت في منطقة البشمور (١٠٧) .

ولكن اذاء صرامة القيود التي فرضها الحاكم على أهل الذمة ، وتشدده في تنفيذها ، فقد جاروا بالشكوى ، بل بلغ بهم الأمر أن تشبهوا بال المسلمين وظاهروا بالإسلام فراراً من قسوة القيود المفروضة عليهم . ثم كان قرار الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٤ هـ / ١٠١٣ م بالتصريح لهم المضى إلى بلاد الروم أو الجبشة والنوبة دون التعرض لهم (١٠٨) ، وبهذا القرار وضع أهل الذمة موضع الخيار : أما الالتزام بما فرض عليهم من قيود . أو الإسلام . أو الهجرة (١٠٩) . ثم كانت مجموعة السجلات التي أصدرها الحاكم بأمر الله لأهل الذمة قبيل اختفائه سنة ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م ، وحملت في مضمونها التخفيف من غلواء سياسته التي اتبعها إزاءهم (١١٠) .

(١٠٦) التويري : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٥٦ .

- المقريزى : اقطاع العنقا ، ج ٢ ، من ٥٣ - ٩٤ .

(١٠٧) الآبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٥٥ .

(١٠٨) ——— : نفس المصدر ، ج ٣ ، ورقة ٥٧ .

- الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٠٧ .

(١٠٩) ماجد : الحاكم بأمر الله ، من ١٠١ .

(١١٠) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٢٩ - ٢٣٣ .

وفي خلافة الظاهر لاعزاز دين الله نعم أهل الذمة بقدر كبير من التسامح فخفقوا من الغيار الذي عليهم ، واقتصر الأكثرون منهم على لباس الزنار وعمامة سوداء (١١١) . كما أن كبار أهل الذمة لم يلتزموا بتلك القيود في خلافة المستنصر بالله الفاطمي ، اذ يذكر أبو صالح الأرمني أن العلم سرور الجلال كان يخرج للقاء الخليفة المستنصر للسلام عليه ، وعليه الشاب الفخرية « وعمامة صقل مثبود الوسط بشملة دبiqي مذهبة » (١١٢) .

وكيفما كان الأمر فلم يكن يطلب من أهل الذمة الالتزام بهذه الشروط حرفيًا حسبما ورد في عهد عمر المشهور ، فكان موظفو الدولة من أهل الذمة يلبسون الشاب الفخرية ، كأئمَّة كبار رجال الدولة من المسلمين ، وفي الوقت نفسه يجعلون لأنفسهم مقاماً عالياً إمام الرعية ، غير أن مخالفاتهم واستعلاؤهم على هذه الصورة كانت تسبب من وقت لآخر ارتفاع أصوات المسلمين بالاستنكار ، وبالتالي العودة إلى الزامهم بهذه الشروط (١١٣) .

(١١١) الانطاكي : المصدر السابق ، من ٢٢٨ .

(١١٢) أبو صالح الأرمني : المبادر السابق ، من ٣٦ .

(١١٣) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٧٥ .

- المقريزى : الخطط ، ج ١ ، من ٣٦٦ .

- پارتوليد : المرجع السابق ، من ٢٤ .

(ب) أعياد أهل الذمة

أخذت معظم الأعياد الدينية لأهل الذمة في مصر في عصر الفاطميين طابعاً فريداً؛ ذلك أن الخلفاء الفاطميين شاركوا في الاحتفال بأهم هذه الأعياد بتنصيبه وافر، وصيغوا تلك الاحتفالات بالصيغة الرسمية الاجتماعية، كما اشترك المسلمون في مصر في الجانب الاجتماعي المسلح من تلك الأعياد (١١٤).

لكن أهل الذمة انتهزوا حسن معاملة الفاطميين لهم والمعروفة التي منحوها إليهم، فأظهروا شعائرهم الدينية وخاصة في الأعياد الدينية في جلبة وضوضاء وبطريقة صارخة (١١٥) وإذا كانت هذه الأعياد قد حفلت بمظاهر الفرح والابتهاج إلا أنه في بعضها قد شابها الكثير من مظاهر الفساد والانحلال والمجون، مما دعا الخلفاء الفاطميين إلى فرض القيود على بعض هذه الأعياد الدينية ..

(١١٤) متر : المرجع السابق ، ج ٢ ، من ٢٢٦ .

- جاك تاجر : المرجع السابق ، من ١٤٦ ، ١٤٧ .

(١١٥) ماجد : ظهور خلالة الفاطميين وسقوطهم في مصر ، من ٣٥٤ .

أعياد النصارى :

وكان لقبط مصر الذين يحتفلون مناسبة أربعاء عشر عيدا شرعيا سبعة أعياد يسمونها أعيادا كبارا ، وسبعة يسمونها أعيادا صغارا (١٦)، وهناك أعياد أخرى ليست عندهم من الأعياد الشرعية لكنها من المواسم العادية ، هذا بجانب إقامتهم الاحتفالات بذكرى الآباء والقديسين (١٧) ، وفيما يلي عرض لهذه الأعياد الكبار .

١ - عيد البشارة :

هذا العيد يحتفل به قبط مصر في اليوم التاسع والعشرين من شهر برمهات ، ويعتقد النصارى أنه في هذا اليوم نزل جبريل عليه السلام على السيدة مريم يبشرها بميلاد السيد المسيح (١٨) .

٢ - عيد الزيتونة :

ويعرف « عيد الشعانين » ومعناه التسبیح ، وهو ذكرى اليوم الذي دخل فيه السيد المسيح مدينة القدس راكباً علينا ، فاستقبله أهلها بالترحاب وبأيديهم أغصان الزيتون ، وهم يسبحون بين يديه إلى أن دخل الهيكل . وكان قبط مصر يحتفلون به في اليوم الثاني والأربعين من الصوم (سابع أحد من الصوم) (١٩) .

(١٦) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، من ٢٦٣ .

(١٧) القلقشندي : المصدر السابق ، ج ٢ ، من ٦٣٩ - ٤٢٥ .

(١٨) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، من ٢٦٣ .

- القلقشندي : المصدر السابق ، ج ٢ ، من ٤٢٥ .

(١٩) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ١ ، من ٩٦ .

- القلقشندي : المصدر السابق ، ج ٢ ، من ٤٢٥ .

وفي هذا العيد تزين الكنائس بأغصان الزيتون وقلوب النخيل ، ويفرق منها على الناس على سبيل التبرير (١٢٠) .

وكان نصارى الإسكندرية يشقون شوارع المدينة في الليل يوم الزيتونة حاملين أغصان الزيتون وسعف النخيل ، ويبتهلون بالدعاء والقراءة والتمجيد والصلبان في أيديهم (١٢١) . كما كان من عادة نصارى مدينة أخيم في يوم الزيتونة أن يخرج القسس والشمامسة بالجامور والماياخ والصلبان والأناجيل والشموع ، ويقفون على باب القاضي ، فيبخرموا ويقرعوا فصلا من الانجيل ، ويمدحونه ، ثم يكرروا ذلك المشهد على أبواب أعيان المسلمين (١٢٢) .

على أن الحاكم يأمر الله في العاشر من رجب سنة ٣٧٨ هـ منح النصارى في عيد الشعانين من تزيين الكنائس . وحمل الخوص وأغصان الزيتون كما جرت به العادة ، وأنذر كل من يحمل شيئاً منها في هذا العيد ، ثم أمر بالقبض على جماعة من لم يتمثلوا لامرها (١٢٣) . وفي سنة ٣٩٨ هـ ١٠٧ م منع نصارى بيت للقبس من الاحتفال بالشعانين ، وكذلك سائر نصارى مصر ، وأمر بـ لا تحمل ورقة من ورق الزيتون ولا من سعف النخيل ، وألا تزين كنيسة من الكنائس بها ، وألا يلحظ شيء منها في يد مسلم ولا نصراني ؛ والا تعرض لإشد العقوبات (١٢٤) .

(١٢٠) الانطاكي : المصير السابق ، ص ١٩٤ .

(١٢١) الأنبا ميقائيل : المصير السابق ، ج ٣ ، ورقة ٧٧ .

(١٢٢) جاك تاجر : المرجع السابق ، ص ١٥٠ .

(١٢٣) المقربني : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٦٣ .

(١٢٤) الانطاكي : المصير السابق ، ص ١٩٤ .

على أن نصارى مصر عادوا إلى الاحتفال بهذا العيد في خلافة الظاهر وكذلك في خلافة المستنصر ، ويروى الأنبا ميخائيل أن نصارى مدينة الإسكندرية في خلافة المستنصر كانوا يقيمون شعائر هذا العيد كما جرت به العادة في أمن وسلام ، وإذا اعترضهم المسلمون بها ، ساروا في حماية والى المدينة (١٢٥) .

٣ - عيد الفصح :

وهو ما يسمى « بعيد القيمة » ، وهو العيد الكبير عند النصارى ، وهو يوم الفطر من صومهم الأكبر ، ويعتقد النصارى أن المسيح عليه السلام قام بعد صلبه ، ودخل على تلاميذه ، وسلم عليهم ، وأكل معهم ، وأوصاهم وأمرهم بأمور قد تضمنها العجائب (١٢٦) .

وكان نصارى مصر يحتفلون بالفصح احتفالاً عظيماً ، وقد شاركهم المسلمون وكذلك الخلفاء الفاطميون مظاهر الاحتفال بهذه العيد . ويلقى المقريزى بعض الضوء على احتفالات النصارى بالفصح فى حوادث سنة ٤١٥ هـ / ١٠٢٤ مـ ، فيذكر أنه لخمس بقين من المحرم فى هذا العام كان الاحتفال بفصح النصارى فاجتمع بقسطرة المقس جماهير غفيرة من النصارى والمسلمين فى الخيام المنصوبة وغيرها ، وقضوا طول نهارهم فى لهو ومجون وتهتك قبيح ، واختلط الرجال بالنساء وهم يعاورون الخمر ، واستشرى الفساد فى هذا اليوم بالدرجة التى حملت النساء فى قفاف العمالين من شدة السكر . كما يذكر المقريزى - أيضاً - أن الخليفة الظاهر

(١٢٥) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٧٧ .

(١٢٦) ابن الوردي : تربية المختصر فى أعياد البشر ، ج ١ ، ص ٨٠ .
- القلقشندي : المصدر السابق : ج ٢ ، ص ٤٢٦ .

لاغزار دين الله شاهد الاحتفال بهذا العيد اذ ركب في هذا اليوم في موكب رائق الى المقصس عليه أفسر الشاب وأجملها ، فت فقد مكان الاحتفال ودار هناك طويلا ثم عاد (١٢٧) .

٤ - خميس الأربعين :

ويعرف أيضا « عيد الصعود » ويعتقد النصارى أن المسيح عليه السلام بعد أربعين يوما من القيام ، خرج مع تلاميذه حيث باركهم ثم صعد الى السماء ، وقد أكمل ثلاثة وثلاثين سنة وثلاثة أشهر ، فرجع التلاميذ الى اورشليم « بيت المقدس » ، وقد وعدهم باشتئار أمرهم (١٢٨) .

٥ - عيد الخميس :

ويسمى أيضا « عيد العنصرة » ، وكان المسيحيون يحتفلون به في السادس والعشرين من شهر بشنس بعد خمسين يوما من قيامة المسيح كما يقولون . ويعتقدون أنه في هذا اليوم اجتمع الحواريون في علية صهيون فتبجل لهم روح القدس ، وتكلمت ألسنتهم بجميع اللغات ثم تفرقوا في البلاد يدعون الناس الى دين المسيح (١٢٩) .

٦ - عيد الميلاد :

ويعتقد المسيحيون أنه اليوم الذي ولد فيه المسيح ببيت لحم ،

(١٢٧) المقريزى : اتفاظ الحنف ، ج ٢ ، ص ١٣٧ .

(١٢٨) القلقشندى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٦ .

- المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ٢٦٤ .

(١٢٩) القلقشندى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٦ .

- المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٦٤ .

ويحتفل به قبط مصر في التاسع والعشرين من كهيف ، وتنزين الكنائس في هذا العيد ، فيقد النصارى المصايب في الكنائس عشية ليلة الميلاد (١٣٠) .

وكان هذا العيد من الأعياد المشهورة في مصر الفاطمية ، فكان يفرق فيه على كبار رجال الدولة والأمراء وسائر الكتاب وغيرهم سائر أنواع الحلوي ، والسمك المعروف بالبورى ، وكان من عادة النصارى في عيد الميلاد اللعب بالنار ، ومن أحسن ما قيل :

ما اللعب بالنار في الميلاد من سفه
وانما فيه للاسلام مقصود

ففيه بہت النصارى أن ربهم
عيسى بن مریم مخلوق ومولد

وفي هذا العيد تباع الشموع المزهرة بالأصباغ والالوان الزاهية ، والتماثيل البدعة ، ولا يبقى أحد من الناس على كافة مستوياتهم الا ويشتري منها لأولاده وأهله ، وكان الناس يسمونها الفوانيس ، ويعلقون منها الكثير في الأسواق والحوانيت ، ويتنافسون في المغالة في الإنفاق على تزيينها ، وكان ذلك يعد نوعا من البذخ والتصرف في هذا العصر ، وكان عليه القوم من الأغنياء يتصدقون على الفقراء في هذا العيد بضياع الفوانيس (١٣١) .

(١٣٠) التقشندى : المصدر السابق ، ج ٢ ، من ٤٦٦ .

(١٣١) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، من ٣٦٤ .

— متى : المرجع السابق ، ج ٢ ، من ٢٤٠ .

٧ - عيد الغطاس :

ويحتفل به في اليوم الحادى عشر من شهر طوبه ، وفيه يغطس قبط مصر في النيل ، وأصله عند النصارى أن يحيى ابن زكريا - عليهما السلام - المعروف عندهم بيوحنا المعمدانى عمد المسيح - أى غسله - في مياه الأردن . وعندما خرج من الماء اتصل به روح القدس ، ورغم شدة البرد فان النصارى في هذا اليوم يغمسون أولادهم في الماء (١٣٢) .

وكان لليلة الغطاس في مصر شأن عظيم ، اذ لا ينام الناس فيها فهى أحسن الليالي سورا وبهجة ، ولا تغلق فيها الدروب ، ويغطس أكثر أهل مصر في النيل ، ويزعمون أن في ذلك وقاية من الأمراض (١٣٣) .

وفي ليلة الغطاس يركب متولى الشرطة بالفسطاط في أول الليل في موكب كبير وهو يرتدي الملابس الفخمة ، وبين يديه الشموع والمشاعل ، ويطوف شوارع الفسطاط والقاهرة ، وينادي في الناس بألا يختلط المسلمون مع النصارى في تلك الليلة ، وألا يأتوا بما يعكر صفو الاحتفال ، حيث يخرج النصارى في سحر تلك الليلة إلى شاطئ النيل ، ويغطس الكثيرون منهم في مياهه ، وكان من عادة النصارى الملكيين أن يخرجوا من كنيسة القديس مكائيل بقصر الشمع في جموع غفيرة بالقراءة الملحة والنغمات المعلنة ، حاملين الصليب والشموع المضيئة ، حتى اذا وصلوا إلى

(١٣٢) الطلقشندى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٣٦ .

(١٣٣) المغريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٦٤ .

شاطئ النيل وقف الأسقف يخطبهم باللغة العربية ويدعو للخليفة ولن شاء من خواصه ، ثم تعود الجموع الى كنيستهم على الطريقة التي خرجوا بها ، ليتمموا الصلاة (١٣٤) .

وكان الناس في هذا العيد يتجاهرون بشرب الخمر ، ويجتمع أرباب الملأى والملاعب من كل فن ، ويخرج الناس في تلك الليلة عن الحد في اللهو والخلاعة والفحotor مما أدى إلى أن فرض بعض الخلفاء الفاطميين قيودا على هذا العيد (١٣٥) .

ومن ذلك أن الخليفة المعز عندما شاهد الاحتفال بليلة الغطاس بعد مدة قصيرة من إقامته في مصر ، ووقف على ما يحدث في تلك الليلة من مظاهر البغى والفساد ، أمر بالغاء الاحتفال بليلة الغطاس في سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٢ م ، ومنع النصارى من النزول في المراكب وضرب الخيم على شاطئ النيل ، وهدد المخالفين لأمره بالاعدام (١٣٦) .

وأغلبظن أن نصارى مصر لم يتزموا بالقيود التي فرضها الخليفة المعز على بعض أعيادهم ، واستغلوا سياسة العزيز بالله التسامحة ، وعادوا إلى الاحتفال بليلة الغطاس ، مما أدى إلى أن يصدر أمره في سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م بمنع الاحتفال بهذا العيد ، وهدد المخالفين بابعادهم عن القاهرة (١٣٧) .

(١٣٤) الانطاكي : المصدر السابق . ص ١٩٦ .

(١٣٥) المقريزى : الخطبا . ج ١ . ص ٢٦٤ .

(١٣٦) ابن اياس : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٧ ، ٥٨ .

(١٣٧) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ١ ، ص ٢٤٢ .

وفي خلافة الحاكم بأمر الله ، لم يمنع أهل الذمة من الاحتفال باعيادهم في أول الأمر ، فعاد النصارى إلى الاحتفال بليلة الغطاس ، ويدرك المقريزى أنه في شهر المحرم سنة ٣٨٨ هـ كان الاحتفال بتلك الليلة ، فضررت الخيام والأسرة في عدة ماضع على شاطئ النيل . ونصبت أسرة للرئيس فهد بن ابراهيم النصرانى ، وأوقدت له الشموع والمشاعل ، وبين يديه أهل الغناء والملاهى والطرب فجلس الرئيس فهد مع أهله يشرب إلى أن كان وقت الغطاس فغطس وانصرف (١٣٨) .

وكان اشتراك فهد في هذا العيد الذي حفل بمظاهر الأبهة والعظمة دليلاً على اشتراك الدولة بصورة رسمية في الاحتفال به . هذا ويدرك الأنطاكي أن الحاكم بأمر الله كان يحضر احتفالات النصارى بليلة الغطاس في كثير من الأعوام في صورة متبنكرة يشاهد ما يقوم به النصارى من شعائر دينية ، وما يحدث فيها من مظاهر اللهو والطرب ، وما يشوبها من مظاهر الانحلال والفساد . ولذلك أمر الحاكم بأمر الله في سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م بمنع جميع الطوائف النصرانية في سائر أنحاء الدولة من الاحتفال بليلة الغطاس . وعدم الاستبعاد له في السنوات القادمة ، وصرف النظر عن الاحتفال بهذا العيد كلية (١٣٩) ، كما جدد الحاكم الأمر بمنع الاحتفال بالغطاس في ثامن عشر جمادى الأولى سنة ٤١١ هـ ، فلم يغطس أحد من نصارى مصر في النيل (١٤٠) .

وإذا كان الحاكم بأمر الله قد أصدر مرسوماً في شعبان سنة ٤١١ هـ بالعفو الشامل والتسامح المطلق في سياسته إزاء أهل الذمة (١٤١) ، فإن الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله .

في سنة ٤١٥ هـ / ١٠٢٤ م بإقامة عيد الغطاس ، ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل شارك فيه بنفسه مع أهله وحرمه وكبار رجال دولته . وينظر المغريزي أنه في ليلة الأربعاء رابع ذي القعدة من تلك السنة ، كان غطاس النصارى فأمر الخليفة الظاهر بأن تجري مظاهر الاحتفال كما كان يحتفل به ، على الأرجح لخبط المسلمين مع النصارى عند غطاسهم في النيل ، وركب الخليفة لنظر الغطاس ومعه الحرم والحاشية ، وأمر بأن توقد النار والمشاعل في الليل ، وحضر الرهبان والقسوس بالصلبان والنيران فأدوا مراسم الاحتفال ثم غطسوا وانصرفوا (١٤٢) .

وفي هذه الليلة كانت المراكب النيلية والزوارق تمثل بالسوداد الأعظم من المسلمين والنصارى على اختلاف طبقاتهم ، وتزين المراكب بالقناديل والشموع المضيئة ، كما تكثر المشاعل على ضفاف النيل ، وكان يشغل على جانبيه ما يزيد على ألف مشعل وألف فانوس ، كما كان ينزل رؤساء القبط في المراكب النيلية ويخرج الناس في تلك الليلة عن الحد في اللهو والفرحة والمجون ، ولا يغلق في تلك الليلة دكان ولا درب ولا سوق ، وتتجاهز الناس بشرب المسكرات (١٤٣) ، وكان اقبال الناس على عادة شراء أصناف الفاكهة والضمان وغيره من أصناف الطعام والشراب (١٤٤) ، حيث تصرف الأموال الطائلة في المأكل والمشابر ، وترسل الهدايا إلى رؤساء الأقباط في تلك الليلة بأطنان القصب والسمك البورى والحلوى والكمثرى والتفاح والسفرجل والأثরج والنارنج والليمون المراكبى وباقات الترجس وغير ذلك من الهدايا القيمة (١٤٥) ، كما

(١٤٢) المغريزي : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٦٥ ، ٤٩٤ .

— : اتعاظ العنقا ، ج ٢ ، ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

(١٤٣) ابن ابياس : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٨ .

(١٤٤) المغريزي : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٦٥ ، ٤٩٢ ، ٤٩٤ .

(١٤٥) ابن ابياس ، " .

جرت العادة أيضاً في ليلة الغطاس أن يضيء سوق الشماعين كأعظم ما تكون الإضاءة، وتظل الحوانيت تعمل إلى منتصف الليل (١٤٦) .
وأما الأعياد الشرعية الصغار فعددها سبعة أيضاً وهي : -

١ - الختان :

وهو السادس من شهر بؤنة ، ويعتقدون أن المسيح ختن في هذا اليوم وهو الثامن من الميلاد (١٤٧) ، وكان من أهم الأعياد المائية عند قبط مصر ، حيث أنه يختنون أولادهم بخلاف غيرهم من النصارى (١٤٨) .

٢ - الأربعون :

وهو عند النصارى في الثامن من شهر أمشير ، ويعتقد النصارى أنه في هذا اليوم دخل الكاهن سمعان الهيكل وببارك السيد المسيح بعد أربعين يوماً من ولادته (١٤٩) .

٣ - خميس الفهد :

وهو الخميس الذي يحتفل فيه النصارى بانجليهم وذلك قبل الفصح بثلاثة أيام ، وستتهم فيه أن يقوم البطريرك بغسل أرجل النصارى اعتقاداً منهم أن السيد المسيح فعل هذا مع تلاميذه ليعلمهم التواضع وكان عامة أهل مصر يسمونه « خميس العدس » حيث يطبع فيه النصارى العدس على ألوان شتى (١٥٠) ، كما كان يباع

(١٤٦) متر : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٤٢ .

(١٤٧) القلقشندى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٧ .

(١٤٨) متر : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٥٠-٢٥١ .

(١٤٩) القلقشندى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٧ .

- المريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٦٥ .

(١٥٠) القلقشندى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٧ .

في أسواق القاهرة من البيض المصبوغ ما يتجاوز حد الكثرة ، ويهدى النصارى بعضهم بعضا ، ويهدون إلى المسلمين أنواع السمك مع العدس المصفى والبيض (١٥١) . وكان أهل الاسكندرية يخرجون في هذا اليوم إلى المئارة ، ومعهم مأكلهم - ولابد أن يكون العدس من بينها - فيفتح باب المئار ويدخله الناس ، فمنهم من يذكر الله ، ومنهم من يصلى ، ومنهم من يلهو ويلعب ، وكانتوا يستمرون على هذه الحال حتى منتصف النهار ثم ينصرفون (١٥٢) .

وأجرت العادة في خلافة الفاطميين أن رؤساء القبط كانوا يضربون في يوم الخميس العدس خمسماة دينار ذهبا عشرة آلاف خروبة ، تفرق على أرباب الدولة على سبيل التبرك (١٥٣) .

٤ - سبب النور :

ويحتفل به قبل الفصح بيوم واحد ، ويعتقد النصارى أن النور في هذا اليوم يظهر على قبر المسيح ، ومنه تستمد مصايف كنيسة القيامة كلها نورها (١٥٤) .

٥ - حد الحدود أو « الأحد الجديد » :

وهو بعد الفصح بثمانية أيام ، وهو مناسبة عند المسيحيين لتجديف الآلات والأثاث والملابس ، وفيه تنشيط المعاملات التجارية ، ويجعلونه بدءا للأعمال ، وتاريحا للشروط والقبالات (١٥٥) .

(١٥١) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، من ٢٦٥ .

(١٥٢) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ١٥٦ .

(١٥٣) ——— : نفس المصدر ، من ٥٩٤ .

(١٥٤) القلقشندي : المصدر السابق ، ج ٢ ، من ٤٢٧ .

(١٥٥) ابن الفدا : المصدر السابق ، ج ١ ، من ٩١ .

— القلقشندي : المصدر السابق ، ج ٢ ، من ٤٢٨ .

٦ - عيد التجلي :

ويحتفل به في ثالث عشر شهر مصري ، ويعتقد النصارى أن المسيح عليه السلام تجل لتلמידه بعد ما رفع ، فتمنوا عليه أن يحضر لهم « ايليا وموسى » عليهما السلام ، فأحضرهما إليهم بمصل بيت المقدس ثم صعد إلى السماء وهما معه (١٥٦) .

٧ - عيد الصليب :

وهو في اليوم السابع عشر من شهر توت ، في هذا اليوم من عام ٣٢٨ م وجدت الملكة هيلانة – أم الامبراطور قسطنطين – الصليب الذي صلب عليه السيد المسيح ، فأمرت بأن يكون على خشبات الصليب غلاف من ذهب وأن تبني الكنيسة المعروفة بكنيسة القيامة ببيت المقدس على قبر المسيح (١٥٧) ..

وكان هذا العيد من أجل أعياد مصر ، وكان فيه النصارى يلبسون الملابس الفخمة ، ويظهرون زينتهم ، كما كانوا يقيمون الشعائر بالكتائس (١٥٨) .

ولما كان المحتفلون بعيد الصليب يتظاهرون بالملكتارات من جميع أنواع المحركات ، ويغسلون ما يتجاوز الحد في الطرقات عند خروجهم إلى بنى وائل بظاهر الفسطاط فإن العزيز بالله الفاطمي أصدر أمره في رابع شهر رجب سنة ٣٨١ هـ يمنع الناس من الخروج إلى بنى وائل ، وضبط الطرقات والدروب وتشديد الرقابة عليها خوفاً من تفشي الملكتارات والفسوق (١٥٩) ، على أن العزيز

(١٥٦) ——— نفس المصدر ، ونفس الصفحة .

(١٥٧) القلقشندي : المصدر السابق ، ج ٢ ، من ٤٢٨ ، ٤٢٩ .
— المقريزى : الخطط ، ج ١ ، من ٢٦٦ .

(١٥٨) ——— : نفس المصدر ونفس الصفحة .

(١٥٩) ——— : انتظام الحنطا ، ج ١ ، من ٢٧٢ .

بالة الذى عرف بعطفه على النصارى بوجه خاص أعاد الاحتفال بهذا العيد فى سنة ٣٨٢ هـ / ٩٩٢ م ، واحتفل به فى الرابع عشر من شهر رجب من تلك السنة جرياً على سياسة المتسامحة ازاء أهل الذمة (١٦٠) .

وفي خلافة الحاكم بأمر الله كان سجله الصادر فى شهر صفر سنة ٤٠٢ هـ والذى قرئ بجامع عمرو بالقسطاط وفى الطرقات يتضمن أمر الخليفة بمنع النصارى من الاحتفال بعيد الصليب ، مع عدم الخروج الى بني وائل ، وألا يقيموا مظاهر الزينة والملاهي فى هذا العيد ، وألا يقربوا كنائسهم لاقامة الشعائر (١٦١) ، نظراً لما كان يشوب مظاهر الاحتفال بهذا العيد من فسق ومجون .

كما كان هذا العام (٤٠٢ هـ / ١٠١١ م) والعام الذى يليه من أكثر الأيام قسوة وصرامة بالنسبة للقيود التى فرضها الحاكم بأمر الله على أهل الذمة (١٦٢) ، واستمر الأمر كذلك الى أن كان مرسومه الصادر فى شعبان سنة ٤١١ هـ بالغفو الشامل والتسامح المطلق فى سياسته ازاء أهل الذمة (١٦٣) .

وكان لنصارى مصر بعض الأعياد والمواسم الخاصة بهم التى اتخذت طابعاً شبهاً قومي ، اذ شاركهم المسلمين فى الاحتفال بتلك الأعياد . وقد ارتبطت بعض هذه الأعياد بنهر النيل ، وفي ذلك

(١٦٠) ————— : نفس المصدر ونفس الجزء ، من ٢٧٦ .

———— : الخطط ، ج ٢ ، من ٢٦٦ .

(١٦١) ————— : اتحاظ الحنفاء ، ج ١ ، من ٢٧٢ .

———— الخطط ، ج ١ ، من ٢٦٦ .

(١٦٢) الانطاكي : المصدر السابق ، من ٢٠٢ .

(١٦٣) ————— : المصدر السابق ، من ٢٢٢ .

دلالة على امتداد جذورها الى أيام قدماء المصريين (١٦٤) ، ومن هذه الموارس والأعياد :

عيد الشهيد :

وكان عيد الشهيد في الثامن من شهر بشنس ، وكان واحداً من أعظم الأعياد النصرانية ، ويعتقد قبط مصر أن النيل لا يزيد في موسم الفيضان في كل سنة حتى يلقوا فيه في عيد الشهيد تابوتاً من خشب ، فيه أصبح من أصابع أحد أسلافهم المولى (القديسين والشهداء) ، ويخرج النصارى من جميع القرى والمدن للاحتفال بهذا العيد ، كما كان يخرج عامة أهل القاهرة والفسطاط على اختلاف طبقاتهم ودياناتهم ، وينصبون الخيام على شاطئ النيل وفي الجزر المقابلة للشاطئ ، حيث يحتفلون بعيد الشهيد ، وفي هذا اليوم « لا يبق مغن ولا مغنية ، ولا صاحب لهو ، ولا رب ملعوب ، ولا بغي ، ولا مخنث ، ولا ماجن ، ولا خالع ، ولا فاتك ، ولا فاسق الا ويخرج لهذا العيد (١٦٥) » .

ففي هذا العيد تصرف الأموال الكثيرة ، ويتجاهر الناس بما لا يتحمل من المعاصي والفسق ، وتثور الفتنة ، ويقتل أناس ، ويقبل الكثير على شرب الخمر التي يباع منها في ذلك اليوم ما يزيد على مائة ألف درهم فضة وخمسة آلاف دينار ذهباً في جهة شبرا وحدها . ذلك أن اجتماع الناس لعيد الشهيد كان دائماً بناحية شبرا من ضواحي القاهرة ، وكان اعتماد فلاحي شبرا دائماً في وفاء الخراج على ما يبيعونه من الخمر في هذا العيد . ففي يوم

(١٦٤) قاسم عبده : المرجع السابق ، ص ١٩٦ .

(١٦٥) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٦٨ - ٧٠ .

واحد باع نصراني - حسبما يذكر المقريزى - بائنى عشر ألف درهم
فضة من الخمر (١٦٦) .

عيادة الغرروج :

وكان من الأعياد الكبرى عند نصارى مصر ، والتى كان يشارك المسلمين فى الاحتفال به . وهو عيد الخروج لسجن يوسف بالجيزة ، وكانت عادة العامة والسوقة أن يطوفوا فى هذا العيد - قبل الخروج للسجن - أسواق المدينة بالطبلول والبوقات ليجمعوا من التجار ما ينفقونه فى خروجهم وحدث فى عام ٤١٥ هـ / ١٠٢٥ م أن اشتتد الغلاء ، فامتنع التجار عن الدفع ، ولما علم بذلك الخليفة الظاهر لاعز الدين الله أمرهم بأن يدفعوا ما جرت به العادة ، وبأن يطلق للمحتفلين ضعف ما أطلق لهم فى السنة الماضية ، فخرجوا إلى سجن يوسف بالجيزة ، ومعهم التماثيل والمضاحك والخيال والسماجات . وخرج الخليفة إلى الجيزة ، وأقام يومين لشاهدة جماعة المحتفلين ، فضحك منهم وأعجب بهم واستظرفهم (١٦٧) .

عيادة النيروز :

وهو أول السنة القبطية فى مصر ، وموعده اليوم الأول من شهر توت ، ومعنى النيروز أو « التوروز » : اليوم الجديد (١٦٨) .

(١٦٦) ————— : نفس المرجع ، من ٦٧ ، ٦٨ .

- متن : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٤٤٥ .

(١٦٧) المقريزى : اعتقاد الحنفاء ، ج ٢ ، ص ١٤٤ - ١٤٥ .

- متن : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٤٤ .

- صرور : مصر فى عصر الدولة الفاطمية ، ص ٢١٦ .

(١٦٨) القلقشندي : المصدر السابق . ج ٢ ، ص ٤٢٩ .

وكان الاحتفال بهذا العيد يأخذ طابع الاحتفالات القومية بمصر ، لأنه في أغلبظن من الأعياد والمواسم التي أخذت عن قدماء المصريين (١٦٩) ، وفي هذا اليوم تعطل الأسواق وتقل الحركة التجارية ، ويستعد الناس للاحتفال بالنیروز (١٧٠) .

ومن مظاهر احتفال العامة بمصر بیوم النیروز ، أنهم كانوا ينتخبون رجلاً يسمونه « أمیر النیروز » يطلي وجهه بالدقيق أو الجير ، ويوضع لحية مستعارة ، ويرتدى ثوباً أحمر أو أصفر ، ومعه جمع غفير من العامة ، فيتسلط على الناس في طلب رتبة وفي يده دفتر المحتسب ، فمن لم يدفع الرسم يرش بالماء ممزوجاً بالأقدار . وفي هذا اليوم يجتمع المغنون وأصحاب الملاهي تحت قصر الخلافة وبأيديهم الملاهي ، وترتفع الأصوات ، ويشرب الناس الخمر والمزر في الشوارع والطرقات شرباً ظاهراً دون حياء ، وال العامة يتراشون بالماء ، وبالماء ممزوجاً بالأقدار ، وان أخطأ مستور وخرج من بيته لقيه من يرشه بالماء ، ويفسد ثيابه ، ويستخف بحرمةه ، فاما أن يفدي نفسه واما أن يلقى ما لا يرضيه ، كما يرتكب أهل المنكر في هذا اليوم كثيراً من المعاصي ، ويخرجون عن حد الحياة والخشمة الى الغاية من الفجور والعنور ، وقلماً كان ينقضي يوم نیروز الا وقتل فيه قتيل او أكثر لخروج الناس عما هو مأمور ، كما أن رجال الشرطة كانوا لا يعترضون عما يحدث في هذا اليوم (١٧١) .

(١٦٩) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، من ٢٦٦ .

(١٧٠) ——— : نفس المصدر ، ج ١ ، من ٢٦٨ .

(١٧١) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، من ٣٦٧-٣٦٨ .

- مقرن : المرجع السابق ، ج ٢ ، من ٢٤٦ .

ولما كان الاحتفال بيوم النيروز يشوبه من المكررات والفسق ما يخرج عن الحد ، ويغوص ما يحدث ليلة الغطاس من مجون وخلاعة ، فان الخليفة العز لدين الله أصدر أمره سنة ٣٦٣ هـ / ٩٧٢ م بالمنع من وقود النيران ليلة النيروز في الطرقات ، ومن صب الماء يوم النيروز (١٧٢) . الا أنه في سنة ٣٦٤ هـ / ٩٧٤ م ، خرج الناس في الاحتفال بعيد النيروز عن كل ما هو مألف اذ زاد اللعب بالماء ، وكثير وقود النيران وطاف أهل الأسواق ومعهم الملاهي وخرجوها إلى القاهرة بعلبهم وأظهروا السماجات في اللعب بالأسواق ، مما جعل الخليفة العز - بعد ثلاثة أيام من استمرار الاحتفال بهذا العيد - أن يأمر بالنداء بالكف عن كل ما يحدث ، وأنزل العقاب بمن لم يمتثل لندائـه ، فحبس قوم خالفوا أمره ، وأخذ آخرون فطيف بهم كعقاب لهم لخروجهـم عما أمر به (١٧٣) .

الا أنه في خلافة العزيز بالله عاد النصارى للاحتفال بيوم النيروز ويدركـ النويرى أنه لسبع خلون من شهر ربيع الأول سنة ٣٧٢ هـ ، كان الاحتفال بهذا العيد ، فأكل الناس الرطب قبل النيروز على عادتهم (١٧٤) :

وفي بداية خلافة الحكم بأمر الله ، وفي السادس عشر من ربيع الأول سنة ٣٨٨ هـ كان نوروز الفرس فأهدي الآثار وقوادهم وكبار رجال الدولة منهم إلى الحكم بأمر الله كثيراً من الخيـل

(١٧٢) المقريزى : اتعاظ الحنفـ ، ج ١ ، من ٢١٤ .

(١٧٣) المقريزى : الخطـ ، ج ١ ، من ٢٦٧ .

— : اتعاظ الحنفـ ، ج ١ ، من ٢٢٤ .

(١٧٤) الثويرى : المصـر السابـق ، ج ٢٦ ، ورقة ٤٧ ، ٤٨ .

والسلاح ، فقبل بعضاً من هديتهم ورد الباقي إليهم شاكراً
لهم (١٧٥) .

كما يذكر المقريزى أن الحاكم بأمر الله صرخ بالاحتفال بيوم
النيروز فى ذى القعدة من عام ٣٩٥ هـ ، فاحتفل به الناس حسبما
جرت به العادة (١٧٦) .

وإذا كان الظاهر لاعزاز ذين الله قد صرخ باقامة الكثير من
الأعياد الدينية لأهل الذمة ، وكذلك المواسم والأعياد القومية ، الا أنه
فى تاسع عشر جمادى الآخرة سنة ٤١٥ هـ فرض قيوداً على الاحتفال
بهذا العيد ، فأمر بأن يضرب فى هذا اليوم بالأجراس فى آخر
النهار بالا يلعب أحد بالماء فى يوم النيروز فى مدینتى الفسطاط
والقاهرة (١٧٧) ، وربما كان دافعه الى اتخاذ مثل هذا القرار كثرة
ما يحدث فى هذا اليوم من فسق ومجون .

على أن النصارى احتفلوا كذلك بالعديد من المواسم والأعياد
سوى ما تقدم ، لكنها كانت عندهم من المواسم العادية ، وقد أحصى
القلقشندى منها مائة وثمانية وسبعين عيداً وموسمًا موزعة حسب
ترتيب الشهور القبطية . كما انفرد أقباط مصر بالاحتفال ببعض
هذه الأعياد والمواسم حسبما جرت به العادة (١٧٨) .

(١٧٥) المقريزى : اتعاظ الجنفا ، ج ٢ ، ص ١٨ .

النيروز أول سنة الفرس ، وهو الرابع من شهر آذار وجرت فيه العادة
أن يهدى العبيد السادة . (المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٦٧ ،
القلقشندى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٩ .

(١٧٦) المقريزى : اتعاظ الجنفا ، ج ٢ ، ص ٥٩ .

(١٧٧) ————— : نفس المصدر والجزء . ص ١٤٩ .

(١٧٨) القلقشندى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٣٠ - ٤٣٥ .

- أعياد اليهود :

وإذا كان نصارى مصر يحتفلون بالعديد من أعيادهم الدينية ،
فإن يهود مصر قد احتفلوا أيضاً بالعديد من أعيادهم الدينية ومنها :

١ - عيد رأس السنة اليهودية :

ويسمونه بالعبرية عيد « رأس هيسا » أي عيد رأس الشهر ،
وهو في اليوم الأول من شهر تشرى أحد الشهور اليهودية وهو
عندهم منزلة عيد الأضحى عند المسلمين ، ويقولون في ذكراه أن
الله سبحانه وتعالى أمر نبيه إبراهيم عليه السلام بذبح ولده
اسماعيل ، فلما امتنل الاثنان لأمر الله ، فدا الله اسماعيل بذبح
عظيم (١٧٩) ، ويعتبر هذا العيد أيضاً عيد عتق وحرية عند اليهود
لخلاصهم من فرعون ، ويدرك المقريزى أنه عيد البشرة بعتق
الأرقاء (١٨٠) ، ومن مظاهر الاحتفال بهذا العيد عند الربانيين أنهم
ينفحون في الأبواقي أثناء اقامتهم للصلوة في المعابد ، بناء على
تفسيرهم لبعض النصوص الواردة في التوراة . بشأن هذا العيد .
أما القراءون فيقومون بالصلوة والتهليل حمدًا وشكراً لله لأنه يوم
عتق الأرقاء (١٨١) .

٢ - عيد صوماريا :

ويسمونه (الكبور) ، ومعنىه عيد الغفران أو
الاستغفار (١٨٢) . وربما سموه العاشر ، وهو في اليوم العاشر
من شهر تشرين اليهودي ، ويقولون أنه في هذا اليوم فرض الله
الصوم الكبير على اليهود (١٨٣) ، ومدته عند القرائين أربعة وعشرون

(١٧٩) القلقشندي : المصدر السابق ، ج ٢ ، من ٤٣٦ .

(١٨٠) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، من ٤٧٢ .

(١٨١) قاسم عبده : المرجع السابق ، من ١٤٧ .

(١٨٢) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، من ٤٧٢ .

(١٨٣) القلقشندي : المصدر السابق ، ج ٢ ، من ٤٣٦ .

ساعة ، ويبدأ الصوم من اليوم التاسع من شهر تشرين قبل غروب الشمس إلى ما بعد غروبها في اليوم العاشر ، أما الربانيون فيجعلون مدة هذا الصوم خمسة وعشرين ساعة (١٨٤) ، ويشترط لجواز الأفطار رؤية ثلاثة كواكب عند الأفطار (١٨٥) ، وتشدد السامرة في صيام ذلك اليوم ، فلم يستثنوا منه الأطفال الرضع ، ويعتقد اليهود أن هذا الصوم هو تمام الأربعين الثالثة التي صامها موسى عليه السلام (١٨٦) ، ومن لم يصوم منهم هذا اليوم يقتل شرعا طبقا للشريعة اليهودية ، وعند الربانيين لا يجوز أن يقع هذا الصوم في يوم الأحد ، وفي يوم الثلاثاء ، ولا في يوم الجمعة . ويعتقد اليهود أن الله سبحانه وتعالى يغفر لهم في هذا اليوم جميع ذنوبهم ما خلا الزنا بالمحسنة ، وظلم الرجل أخيه ، وجعله ربوبية الله عز وجل (١٨٧) .

وفي هذا اليوم ينقض اليهود عهودهم ومواثيقهم التي قطعواها على أنفسهم لغير اليهود ، كما يأكلون الديون التي عليهم لغير اليهود ، مما أدى إلى معارضة بعض فقهاء اليهود في العصر الحديث لتلك المزاعم (١٨٨) .

٣ - عيد المظلة :

ويكون الاحتفال به في اليوم الخامس عشر من شهر تשרى ، وهو سبعة أيام كلها أعياد عندهم ، وهو فريضة على المقيم دون

(١٨٤) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٧٢ .

(١٨٥) القلقشندي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٣٦ .

(١٨٦) قاسم عبده : المرجع السابق ، ص ١٤٨ .

(١٨٧) القلقشندي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٣٦ .

- المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٧٢ .

(١٨٨) قاسم عبده : المرجع السابق ، ص ١٤٨ .

المسافر (١٨٩) ومن مظاهر هذا العيد أنهم لا يخرجون من بيوتهم - كما هو يوم السبت - ، وفي اليوم الثامن يحتفلون بعيد يقال له عيد الاعتكاف (١٩٠) ، وفي تلك الأيام السبعة التي أولها خامس عشر تشرى يجلسون تحت سعف التخييل الأخضر وأغصان الزيتون ، وسائل الأشجار التي لا ينتابن ورقها ، ويرون أن ذلك تذكاراً منهم لاطلال الله آباءهم في الشهيد بالشمام (١٩١) ، ويصوم القراءون في اليوم الرابع والعشرين من هذا الشهر ، ويعرف هذا الصوم بصوم كذايا ، وعند الربانيين يكون هذا الصوم في ثالثه (١٩٢) .

ويرى البعض أن هذا العيد يرجع إلى أصول زراعية ورعوية ، استناداً إلى أن أسماء هذا العيد بالعبرية « بجع ها اسيف » أي « عيد التخزين » (١٩٣) .

٤ - عيد الفطير :

وهو رابع الأعياد الشرعية عند اليهود ، ويسمى^٤ سـا « عيد الفصح » ، ويكون في الخامس عشر من نـد أجل الأعياد عند اليهود (١٩٤) ، ومدة الاـ سبعة أيام ، وثمانية عند الربانيين ،^٥ أيام (١٩٥) ، وفي أيام هذا الـ ١٩٥ فيها من خبز الخمير (

^٤ (١٨٩)

الله فيه بنى اسرائيل من يد فرعون وأغرقه ، فخرجوا الى التيه (الصحراء) يأكلون اللحم والخبز والقطير ، فأمرروا باتخاذ القطير وأكله في هذه الأيام ، ويعتقدون أنه في آخر هذه الأيام كان غرق فرعون في البحر (١٩٦) ، ويعتبر هذا العيد عند اليهود من أعياد التضحية ومواسم الحج (١٩٧) .

٥ - عيد الأسابيع :

وهو خامس الأعياد الشرعية عند اليهود ، ويسمى أيضاً « عيد العنصرة » و « عيد الخطاب » ، وموعده بعد عيد الفطير بسبعة أسابيع ، في اليوم السادس من شهر سبتمبر من شهور اليهود ، وهو الثالث والعشرون من بشتى من شهور القبط (١٩٩) ، ولا يكون هذا العيد عند الربانيين أبداً يوم الثلاثاء ، ولا يوم الخميس ، ولا يوم السبت (٢٠٠) ، على أن القراءن لا يتقيدون بذلك (٢٠١) ، ويعتقد اليهود أنه في هذا اليوم خاطب الله فيه بنى اسرائيل من طور سيناء مع موسى عليه السلام ، ونزلت على بنى اسرائيل فيه الفرائض (٢٠٢) والوصايا العشرة (٢٠٣) ، كما استمعوا فيه الى كلام الله تعالى من الوعد والوعيد (٢٠٤) .

(١٩٦) أبو الفدا : المصدر السابق ، ج ١ ، من ٨٨ .

(١٩٧) ابن الوردي : قمة المختصر في أخبار البشر ، ج ١ ، من ٧٧ .

(١٩٨) عبد قاسم : المرجع السابق ، من ١٤٩ .

(١٩٩) القلقشندي : المصدر السابق ، ج ٢ ، من ٤٣٧ .

(٢٠٠) المقريزي : الخطط ، ج ٢ ، من ٤٧٣ .

(٢٠١) قاسم عبد : المرجع السابق ، من ١٥٠ .

(٢٠٢) المقريزي : الخطط ، ج ٢ ، من ٤٧٣ .

(٢٠٣) المقلقشني : المصدر السابق ، ج ٢ ، من ٤٣٧ .

(٢٠٤) أبو الفدا : المصادر السابق ، ج ١ ، من ٨٨ .

- ابن الوردي ، المصدر السابق ، ج ٢ ، من ٧٧ .

ومن مظاهر الاحتفال بهذا العيد ، أنهم كانوا يأكلون فيه القطايف ، ويتنافسون في صناعتها ، ويجعلونها بدلاً من الماء الذي أنزله الله عليهم في هذا اليوم ، ويسمى هذا العيد بالعبرية « عشرتا » ومعنىه « الاجتماع » وهو من مواسم حجم (٢٠٥) .

ولليهود أعياد أخرى لكنها مستحدثة ، ويعتقدون أن التوراة نصت عليها ، وهما : عيد الفوز ، وعيد الحنكة (٢٠٦) .

١ - عيد الفوز :

وهو عندهم عيد سرور ولهم خلاعة ، كما يتبعون فيه الهدايا ، ويكون الاحتفال به في اليوم الرابع عشر من شهر آذار ، ويسبّقه في الثالث عشر من هذا الشهر صوم يسمى « صوم أستير » .

ولذلك رواية مؤداها أنه بعد تدمير بيت المقدس على يد بختنصر سنة ٥٨٦ ق.م ، نقل اليهود من فلسطين إلى بابل ، وأثناء إقامتهم هناك وقع كسرى الفرس « اكسر كسيس » المعروف عند المؤرخين العرب باسم « أردشير بن بابك » في غرام فتاة يهودية — من أحسن أهل زمانها وأكمليهم عقلا — ابنة حبر يهودي يسمى مردوخاي ، ولما تزوج كسرى من الفتاة أصبح لليهود مكانة مرموقة ونفوذا كبيرا ، مما أثار حقد هامان الوزير الفارسي الذي صمم على استئصال شأفة اليهود وإنهاء وجودهم في بلاده ، فدبّر مؤامرة ضدهم ، وحدد اليوم الثالث عشر من شهر آذار موعداً لتنفيذها غير أن أستير زوجة كسرى اليهودية علمت بالمؤامرة قبل وقوعها ، ونقلت تفاصيلها إلى كسرى ، وأوزعت إليه بقتل وزيره هامان ، فقتلته ، وأمر بـ « بـ مـ لـ اـ حـ قـة اـ تـ بـ اـعـ الوزـ يـرـ وـ قـتـ لـ هـمـ ، ثـ مـ كـ تـ بـ لـ لـ يـهـودـ عـهـدـاـ بـ الـ أـمـانـ وـ الـ بـرـ وـ الـ اـحـسـانـ فـيـ هـذـاـ الـ يـوـمـ . لـنـاـ اـتـخـذـ لـ يـهـودـ مـنـ الـ ثـالـثـ

(٢٠٥) القلقشندي : المصدر السابق ، ج ٢ ، من ٤٣٧ .

(٢٠٦) ——— : نفس المصادر ونفس الصفحة .

عشر من آذار عيدها ، ويصومون قبله ثلاثة أيام شكرًا لله تعالى . وجعلوا بعده يومين اتخذوهما أيام فرح وسرور ، كما يتبادلون فيها الهدايا ، ومن مظاهر الاحتفال أيضاً بهذا العيد ، انهم كانوا يعملون تماثيل من الورق رمزاً للوزير هامان ، ويملاونها تخالة وملحاً ويلعبون بها ، ثم يلقونها في النار لحرقها (٢٠٧) .

٢ - عيد الحنكة :

و معناه التنظيف ، وهو ثاني الأعياد اليهودية المستحدثة ، ويختلف بهاليهود ثانية أيام أولها الخامس والعشرون من شهر كسميليو اليهودي ، يوتقدون في الليلة الأولى من لياليه على كل باب من أبوابهم سراجاً ، وفي الليلة الثانية سراجين ، وهكذا إلى أن يرسجوا في الليلة الثامنة ثمانية سروج (٢٠٨) ، ومناسبة هذا العيد ترجع إلى سنة ١٦٥ ق.م عندما كانت بلاد الشام تحت حكم البطالمية ، وحاول انتيوخوس آييفانيس ارغام اليهود على عبادة الأصنام ، إلا أن كاهنهم الأكبر المسمى « ماتايا » قاومه مقاومة شديدة مع أبناءه الشمانيه ، واستطاع ابنه الأصغر « يهودا » استعادة الهيكل من جيوش البطالمية ، وفي الخامس والعشرين من شهر كسميليو حطم « يهودا » التماثيل الأغريقية التي كانت بالهيكل ، وزود « ماتايا » وابنه « يهودا » الهيكل بمذبح جديد ، وفتح الهيكل لممارسة الشعائر الدينية (٢٠٩) ، غير أنهم لم يجدوا الزيت الكافي

(٢٠٧) القلقشندي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٣٩

- قاسم عبده : المراجع السابق ، ص ١٥٠ .

(٢٠٨) ابن الصدرا : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٨٩ .

(٢٠٩) قاسم عبده : المراجع السابق ، ص ١٥١ .

لإضافة الهيكل ، فوزعوا ما عندهم من الوقود اليسير على عدد المصابيح التي يوقدونها على أبواب دورهم في كل ليلة إلى تمام ثمان ليال ، فاتخذوا هذه الأيام عيداً وسموه « الحنكتة » وهو كلمة عبرية تعنى التنظيف ، لأنهم نظفوا فيه الهيكل من تماثيل الآلهة الوثنية (٢١٠) . على أن القرائين لا يعترفون بهذا العيد (٢١١) .

(٢١٠) القلقشندي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٣٩ .

(٢١١) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٧٢ .

- وتذكر بعض الروايات أن أحد الحكماء اليونانيين تنبأ على بيت المقدس . وفتك باليهود ، والتفت أبكارهن قبل الامداء إلى أزواجهن ، وكان الرجل من اليهود ثمانية بنين وبينت واحدة ، وخاف اليهودي على ابنته التي سرفت قنوج ، وحرض بناته على قتل ذلك الحاكم ، فاحتلال أمرائهم عليه وقتله ، فخرج يهوه إسرائيل بذلك ، واتخذوا من ذلك اليوم عيداً في ثمانية أيام تذكاراً للأخوة الشامية (أبي الفدا : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٨٩) .

(ب) سياسة الفاطميين الدينية ازاء أهل الديمة

- موقف الخلفاء الفاطميين ازاء رجال الكنيسة المسيحية -

تمتّع أهل الديمة في مصر بسياسة التسامح الديني التي ساد عليها - الخلفاء الفاطميون في العصر الفاطمي الأول - باستثناء فترة من عصر الحاكم بأمر الله - ونعموا بحرية ممارسة شعائرهم الدينية انطلاقاً من مبدأ حرية المقادير الدينية لأهل الديمة .

فالخلفية المعرّف لدين الله الفاطمي - يجمع المصادر النصراوية كان متتسامحاً في سياسته الدينية بوجه عام ازاء أهل الديمة ، ومع النصارى بوجه خاص ، اذ لم يتدخل في الشئون الداخلية الخاصة بالكنيسة ، علّوة على أنه أقام علاقات وطيدة مع رجالها .

فعندما توفي الأنبياء مينا البطريرك العادى والسبعين للكنيسة القبطية ، اجتمع أساقفة الكنيسة وأعيان القبط سنة ٣٦٦ هـ / ٩٦٨ م لانتخاب خلف له من بينهم ، ووقع اختيارهم على تاجر سورى اسمه إبراهيم بن ذرعة - الذي اشتهر بتقواف وعلم - ، ورسموه بطريركاً باسم الأنبياء إبراهيم السوريانى ليكون البطريرك

الثاني والستين للكنيسة القبطية . ولم يعترض الخليفة العز لدين الله على هذا الاختيار . بل نشأت بينه وبين البطريرك الجديد صداقات طيبة وكان يستدعيه الى مجلسه بقصر الخلافة ، ويستقبله باكرام واحترام بالغين ، كما كان البطريرك ابراهام محل تقدير واحترام كبار رجال الدولة الفاطمية ، مما كان له الأثر الطيب في العلاقة بين الدولة والكنيسة ، كما أثار حقد رجال الدولة من اليهود الذين كانت لهم صلة وثيقة بقصر الخلافة (٢١٢) .

وكان الخليفة العز لدين الله يستدعي الى مجلسه بعض كبار الدين المسيحي واليهودي حيث كانت تجري بينهم وبين بقية العجالسين من المسلمين مناقشات دينية ، وفي هذه المجالس التي كان يعقدها في قصره تدعمت العلاقات الطيبة بينه وبين رؤساء الطوائف الدينية من أهل الديمة ، ونشأت صداقات بينه وبينهم دعمتها روح التسامح الديني التي تحلى بها (٢١٣) .

اما العزيز بالله الفاطمي فقد شمل أهل الديمة جميعا برعايته وعطفه (٢١٤) فضلا عن أنه قدل المناصب العليا في الدولة لكيبار رجال أهل الديمة من اليهود والنصارى دون أن يكره أو يستريط على أحد منهم اعتناق الاسلام ، كما كانت علاقته برؤساء الطوائف الدينية لأهل الديمة ، وخاصة المسيحية ، في أحسن حالاتها ، اذ كان للعزيز بالله — وكما سبق أن أوضحنا — زوجة نصرانية على

(٢١٢) ابن الراهب : تاريخ ابن الراهب ، بيروت ١٩٠٣ ، من ١٢٢ .
ساوريون : تاريخ بطاركة الذهيبة المصرية ، نشرة عزيز سوريال وآخرون ،
المجلد الثاني ، ج ٢ ، من ١٠٠ .

(٢١٣) الأنبا ميخائيل (أسقف الرب) : السرينسارى ، ج ١ ، من ١٣٧ .

(٢١٤) الغريوطلى : مصر العربية الإسلامية ، من ٦٠ .

المذهب الملكاني ، أنيج مهنا ابنته المعروفة بست الملك ، وكان لهذه الزوجة النصرانية وابنتها نفوذ كبير في قصر الخلافة ، فقد كان العزيز بالله يعمل بمشورتها مما أدى إلى استفحال نفوذ رجال الكنيسة الملكانية واتباع المذهب الملكاني في مصر ، فقد تدخل العزيز بالله في الشئون الخاصة بالكنيسة الملكانية ، وأصدر قراراً في رمضان سنة ٣٧٥ هـ بتعيين صهره أريستيس خال ابنته سنت الملك بطريركاً على بيت المقدس ، كما عين صهره الثاني أرسانيوس (أرسانيوس) بطريركاً للملكية على القاهرة ومصر . وطبعي أنه كان للرجلين نفوذاًهما المؤثر في دار الخلافة وإدارة الدولة ، فازدهر حال الكنيسة الملكانية في عهده ، واستبدل أهل تلك الطائفة بشئون البلاد ، كما عانى التنصاري اليعاقبة والكنيسة القبطية من استفحال هذا النفوذ فقد حاول أرسانيوس مستغلًا قرابته للعزيز بالله الاستيلاء على كنيستى المعلقة والسيدة العذراء بقصر الشمع بالفسطاط ، وحدث نزاع خطير بين رؤساء الكنيستين ، أنهad الخليفة العزيز بالله لصالح الملكانيين ، لأن أخذت الملكانية كنيسة السيادة العذراء وتسللها أرسانيوس ، بينما بقيت كنيسة المعلقة للأقباط اليعاقبة (٢١٥) ، غير أن الأقباط استطاعوا استرداد كنيسة السيادة العذراء من الملكانية بعد وفاة العزيز بالله (٢١٦) .

ولم يتدخل الخليفة الحاكم بأمر الله في الشئون الداخلية الخامسة بالكنيسة القبطية ، مثال ذلك أنه لم يتدخل في عام ٣٩٣ هـ / ١٠٠٢ م في انتخاب بطريرك اليعاقبة (٢١٧) . الا أنه

(٢١٥) الأنبا ميخائيل : من البيعة المقدسة ، ج ٢ ، ٤١ ، ورقة ٥١ .

- الانطاكن : المصدر السابق ، من ١٦٤ ، ١٦٥ .

- المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، من ٤٩٤ .

(٢١٦) رقوق حبيب : كتاب القاهرة القبطية القديمة ، ص ٤٤ .

(٢١٧) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، من ٤٩٥ .

اتخذ موقفاً متشدداً من الأنبا زخاريا البطريرك الرابع والستين ،
اذ أمر بحبسه واعتقاله لمدة ثلاثة شهور ، ثم رميته للسباع الجائعة
التي لم تضره - طبقاً لما ذكرته الرواية الكنسية - وكان ذلك بسبب
وشایة أحد الرهبان القبط - ويدعى يوئس الراهب - ، كان حاقداً
على البطريرك زخاريا الذي رفض أن يرسمه أسقفاً ، فقابل الراهب
المذكور الخليفة الحاكم بأمر الله ، وشكى إليه سوء سياسة البطريرك
فيما يتعلق بأمور الكنيسة الخاصة ، وبيعه للوظائف الدينية ،
وما يتمتع به البطريرك من النفوذ والجاه والسلطان على أبناء ملته ،
وما تحت يديه من الثروة والأموال الطائلة ، ثم عرض على الحاكم
بأمر الله رسالة قال فيها : « أنت ملك الأرض ، ولكن للنصارى
ملك لا يعبأ بك ، لكتلة ما كنزاً من الأموال الجزيلة ، لأنك تبيع
الأسقفية بمال (٢١٨) وعد الراهب للحاكم مثالب البطريرك ،
وميساوية معاونية من رجال الكنيسة مما أوغر صدر الحاكم بأمر الله
على البطريرك ، وأثار غضبه ، ودفعه إلى اتخاذ موقف متشدد إزاء
أهل الذمة الذين استفحلاً أمرهم في الدولة (٢١٩) . فأصدر ضدهم العديد
من القرارات والقيود التي اتسمت بالصرامة والعنف في المدة من
٣٩٥ هـ إلى ٤٠٥ هـ / ١٠١٤ - ١٠٠٤ م . وفي تلك الفترة لحق
بالكثير من أهل الذمة ضرر بالغ لم يألفوه من قبل (٢٢٠) .

أما بالنسبة لموقف الحاكم بأمر الله من رؤساء الطائفة الملكانية ،
فإن الانطاكي يذكر أن ارسانيوس بطريرك الملكانية قد قتل سراً في
ذى القعدة سنة ٤٠٠ هـ ، دون أن يشير إلى قاتله أو إلى ظروف
الحادث (٢٢١) . وقد ظل منصب بطريرك الملكانية بمصر شاغراً
طوال بقية خلافة الحاكم بأمر الله (٢٢٢) .

(٢١٨) الأنبا ميخائيل : المبادر السابق ، ج ٢ ، ورقة

(٢١٩) ————— : نفس المصدر : ج ٣ ، ورقة

(٢٢٠) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٩٧ .

(٢٢١) ماجد : الحاكم بأمر الله ١٠٢ .

الا أن الحكم بأمر الله كان له يد في اختيار بطريرك الروم الملكانية ببيت المقدس ، وبعد وفاة ثاويفيلس بطريرك الملكانية بالقدس في رمضان سنة ٤١٠ هـ ، تقدم إليه قس من طائفة الروم الملكانية اسمه نقولور - وكان يعمل نجاراً بقصر الخلافة - ، والخمس منه تعينه بطريرك على بيت المقدس . فأجابه إلى ملتمسه (٢٢٢) . كما أعطاه بعد ذلك سجلاً في جمادى الآخرى سنة ٤١١ هـ بحماية الكنائس والأديرة الباقية هناك مع اطلاق الحرية الدينية في كافة دور العبادة في بيت المقدس (٢٢٣) .

ولم يتعرض الخليفة الظاهر لاعتزاز دين الله لرجال الدين من أهل الذمة بما يسيء إليهم ، كما لم يتدخل في الاجراءات الخاصة بانتخاب البطاركة فعند خلاة كرسى بطريركية الروم الملكانية بالاسكندرية بوفاة أرسانيوس سنة ٤٠٠ هـ ١٠٠٩ م وظل المنصب شاغراً إلى أن اجتمع قساوسة وأساقفة الكنيسة الملكانية بمصر ورسموا في ذي الحجة سنة ٤١١ هـ الأنبا جورجيوس - أحد رهبان دير طور سينا - بطريركاً لهم ، وباركه سنت الملك - ذات الفرود القوى في قصر الخلافة - هذا الاختيار ، وأرسلت إلى بطريرك الجديد هدايا قيمة من الثياب الدينية والمصاحف والتحف الفضية الشمينة التي كانت عندهما لخلالها أرسانيوس البطريرك السابق (٢٢٤) .

كما أنه بعد وفاة الأنبا زخاريا البطريرك الرابع والستين للكنيسة القبطية ، طمع بعض كبار رجال الكنيسة في اعتلاء كرسى البطريركية . وحاولوا أن يتولوا هذا المنصب الدينى الرفيع عن طريق تسلخ الدولة ومساعدتها ، الا أن الوزير على بن أحمد

(٢٢٢) الانطاكي : المصدر السابق ، من ٢٨

(٢٢٣) ——— : نفس المصدر السابق ، من ٣٣٠

(٢٢٤) ——— : نفس المصدر ، من ٣٧٧

الجرجائى (ت ٤٣٦ هـ / ١٠٤٤ م) ، الذى كان يسيطر على أمور الدولة والذى كان يحب النصارى ويعطف عليهم ، رفض التدخل فى اختيار بطريرك اليعاقبة الجديد – كما قرر أن تتنازل الدولة عن مبلغ الثلاثة آلاف دينار الذى كان يدفعها البطريرك الجديد رسماً إلى بيت المال – كرامة للنصارى – ، غير أنه اشترط على أساقفة الكنيسة القبطية وأعيان القبط أن تسير اجراءات انتخاب البطريرك الجديد فى نزاهة وحيدة تامتين وفقاً لما هو متبع فى هذا الشأن . ولقد تم اختيار الأنبا سابونين البطريرك الخامس والستين للكنيسة القبطية سنة ٤٢١ هـ ، بدون أدنى تدخل من دار الخلافة (٢٢٥) .

كما كانت العلاقات الطيبة بين قصر الخلافة والكنيسة القبطية هي السمة الغالبة فى السنوات الأولى من عهد المستنصر بالله ، إلى أن كانت وزارة اليازوري

ففي أثناء وزارته ساءت العلاقات بينهما ، حينما اتهم البطريرك خريستودولوس البطريرك السادس والستين بتحريض ملك النوبة على عدم الوفاء بالتزاماته نحو الخليفة المستنصر بالله ، فألقى القبض على البطريرك ورحل إلى القاهرة مع الزمامه بدفع غرامة مالية كبيرة . غير أن « عبد الدولة » متولى منطقة مصر السفلی توسيط لدى اليازوري للإفراج عن البطريرك ، وأخذ منه تصريحًا باطلاق سراحه في الحال (٢٢٦) .

ومرة أخرى تعكر صفو العلاقة بين الدولة والكنيسة القبطية ، عندما ترافق إلى مسامع اليازوري – عن طريق أبي الحسين الصيدفى الذى كان قاضياً بالاسكندرية – أن الأنبا خريستودولوس قد اتخذ من بلدة « دمرو » مقرًا له ، وأن تلك البلدة أصبحت بمثابة

(٢٢٥) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٣ ، ورقة ٦٣ .

(٢٢٦) جاك تاجر : الرجع السابق ، ص ١٢٨ .

قسطنطينية ثانية ، وأن البطريرك شيد فيها قصرا رائعا لنفسه ، وأحاط نفسه بمظاهر العظمة والأبهة ، بجانب كثرة الكنائس التي استحدثها وجدد عمارتها في القرى المحيطة بها ، وأنه كتب على أبواب تلك الكنائس عبارات سب لالإسلام والمسلمين . فيما كان من اليازورى الا أن أرسل من رجاله من يتقصد الحقيقة ، ثم فرض على البطريرك والأساقفة غرامات مالية فادحة ، طولبوا بسرعة سدادها ، فاضطر البطريرك إلى طلب المساعدة المالية من ملك التوبه الذى استجاب لمساعدته (٢٢٧) .

(٢٢٧) الأنبا ميخائيل : الم moden السابق ، ج ٣ ، ٧٩ ، ورقة ٨٠ .
 (وانظر فيما بعد المباب الرابع ، ص ٦)

القيود التي فرضت على دور العبادة لأهل الديمة

الكنائس المسيحية

يرى السير توماس أرنولد في كتابه « الدعوة إلى الإسلام » في معرض حديثه عن سياسة التسامح الديني التي نعم بها أهل الديمة في مصر في عصر الفاطميين أن « السلطة المدنية أباحت للقبط أن يبنوا كنائس في القاهرة - العاصمة الجديدة - . كما سمح للمسيحيين أن يؤسسوا في بعض المدن الأخرى كنائس وأديرة جديدة » (٢٢٨) . هذا فضلاً عن السماح لهم بتجديده عمارة الكنائس القديمة .

فتحت مظلة التسامح الديني ، انتهز البطريرك إبراهام السنورياني - البطريرك الثاني والستون للكنيسة القبطية - صداقته الوظيدة بال الخليفة المعز لدين الله ، والشمس منه تجديده عمارة كنيسة القديس مرقوريوس المعروف بأبي سيفين بالفسطاط ، وكذلك الكنيسة المعلقة بقصر الشمع ، فاذن له المعز ببناء الكنيستين ، كما

(٢٢٨) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة جستن إبراهيم وعبد المجيد عابدين ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٧ م ، من ٨٤ .

قام البطريرك المذكور ببناء وترميم كثير من الكنائس بالاسكندرية وسائر أنحاء مصر . ولما اعترض بعض مشايخ المسلمين وعامتهم على قيام النصارى ببناء الكنائس الجديدة وترميم غيرها ، أمر الخليفة المعز بتوفير الحراس لحماية وحراسة العمال والبنائين الذين يعملون في البناء حتى يستكملا ما بدأوه . وكان هذا تحدياً لظاهر الغضب والسطخ لشاعر عامة المسلمين (٢٦٩) .

لكن المصادر النصرانية استغلت هذا التسامح الديني الذي أغدقه المعز لدين الله أول الخلفاء الفاطميين بمصر على النصارى ، وتصريحة لهم ببناء وتجميد وتعمير وترميم الكنائس والأديرة ، فذهب بها الادعاء إلى أن تزعم أن المعز لدين الله في أواخر أيامه ، ارتد عن الاسلام ، واعتنق النصرانية ، ولبس زي الرهبان وظل على نصرانيته إلى أن دفن في كنيسة أبي سيفين بالفسطاط (٢٣٠) .

وتروج تلك المصادر النصرانية هذا الزعم إلى أسطورة خلاصتها : أنه حدث في مجلس الخليفة المعز لدين الله جدل ديني بين البطريرك إبراهام السوريانى ومن معه ، وبين بعض اليهود يؤازرهم يعقوب بن كلس ، انتهى لصالح البطريرك وجماعته . فيما كان من ابن كلس إلا أن أوعز إلى الخليفة المعز بأن يمتحن ايمان النصارى قائلاً له : إن الجيلهم يقول : « لو كان لكم ايمان مثل حبة خردل ، لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا إلى هناك فينتقل » . فيما كان من المعز إلا أن طلب من البطريرك نقل جبل المقطم ، وتبعي الأسطورة فتتوടد أن الرهبان والقسيس اجتمعوا على جبل المقطم ، وقاموا بالصلوات والابتهالات فحدثت زلزلة شديدة

(٢٦٩) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٤٣ ، ٤٤ .

(٢٣٠) عنان : مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية ، الطبعة الأولى

تشقق لها جبل المقطم ، فأكرم الخليفة المعز البطريرك وأجابه إلى طلبه بشأن التصریح له بتجدد وتعمیر وترمیم ما التمسه من كنائس وأدیرة (٢٣١) .

ولقد تصدى الأستاذ عبد الله عنان للرد على تلك الأسطورة ، وفندها فنقضها من أساسها ، وأثبتت بطلان دعواها (٢٣٢) .

وفي خلافة العزيز لدين الله استغل أهل النمة تسامحة وعطفه عليهم ومساندته زوجته النصرانية - الملكانية المذهب - لهم ، فقام بطريرك الأقباط باصلاح الكنائس المهدمة وبناء غيرها (٢٣٣) . بل ان العزيز بالله أمر بتوفير الحماية للبنائين النصارى الذين يقومون بعمليات تعهید وترمیم الكنائس من يعرض عليهم من المسلمين (٢٣٤) .

غير أن بعض الكنائس تعرضت في سنة ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م لغضب عامة المسلمين بعاصمة الخلافة ، ففي هذا العام قرر الخليفة العزيز الخروج لجهاد الروم ، وبينما الجيش على أهبة الاستعداد للتحرك ، اذا بقطع الاسطول الفاطمي الراسية في ميناء المقس تعرض لحريق مدمّر ، أتى على معظمها ، فاتهنت الرغبة تجار الروم الواردين بالبضائع إلى مصر ، فقتلوا منهم حوالي مائة وستين ، ثم هاجمت العامة والمغاربة كنيسة القديس ميخائيل التي للملكانية بقصر الشمع كما نهبت كنيسة النسطورية . الا أن العزيز أنزل العقاب الضارم

(٢٣١) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٣ ، رقم ٤١ ، ٤٤ .

- الأنبا ميخائيل : (أسقف اذريب) المستકسان ، ج ١ ، من ١٣٧ ، ١٣٨ .

- سميك : المرجع السابق ، ج ١ ، من ١٨٨ .

(٢٣٢) عنان : مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية ، ص ٧٨ - ٨٥ .

(٢٣٣) أبو صالح : المصدر السابق ، ص ٣٤ ، ٣٥ .

(٢٣٤) أبو صالح الامني : المصدر السابق ، ص ٣٦ .

بالمسلمين الذين اشتراكوا في قتل الروم ونهب الكنائس ، وامر برد ما أخذ من ممتلكات الكنائس اليها . (٢٣٥) *

وهكذا يتضح مما سبق أن الخليفتين العز والعزيز قد صرحا بترميم الكنائس ، وهذا ما يتفق مع ما يسمى بالشروط العمرية فيما يتعلق بالكنائس ، الا أنهما صرحا أيضا باقامة وبناء الكنائس الجديدة بالقاهرة وبالاقاليم ، وهذا ما لا يتفق مع الشروط العمريه التي حرمته بناء الكنائس الجديدة لأهل الذمة ، فخالفتا بذلك ما اتفقا عليه جمهور المسلمين .

لأن الخليفة الحاكم بأمر الله كان صارما في تنفيذ ما جاء بالشروط العمرية فيما يتعلق بدور العبادة الخاصة بأهل الذمة ، بل زاد عليها ، فأمر بهدم الكثير من الكنائس في فترة سياساته المتشددة ازاء أهل الذمة .

ففي سنة ٣٩٣ هـ / ١٠٠٢ م كان الاحتكاك الأول بين الخليفة الحاكم بأمر الله وبين النصارى فيما يتعلق بتجديد الكنائس . ففي تلك السنة شرع أبو منصور الزيات الكاتب النصراني - اليعقوبي المذهب - في تجديد كنيسة قديمة من درسة بظاهر الفسطاط ، في الموضع الذي عرف بعد ذلك براشدة ، مما أثار غضب عامة المسلمين . ولما علم الحاكم بأمر الله بذلك أمر بهدم الكنيسة فهدم عامه المسلمين ما بني منها ، وأمر الحاكم بأمر الله بان ينشأ مكانها مسجد جامع عرف بجامع راشدة ، وبقيت في عمارته في ربيع الآخر سنة ٣٩٣ هـ ، ولما زار توسيعة الجامع أزيلا مقابر اليهود والنصارى التي كانت ملاصقة له لاستكمال بنائه (٢٣٦) . كما هدمت في

(٢٣٥) الانطاكي : المصدر السابق ، أصل ١٧٨ ، ١٧٩ .

(٢٣٦) العزيزى : المصدر السابق ، بـ ٢٦ ، برقه ٣٥ .

سنة ٣٩٤ هـ / ١٠٠٣ م كنيستان كانتا بجوار الجامع (٢٣٧) أحدهما لليعقوبة والأخرى للنسطورية ، وبنى الحاكم بأمر الله في موضعهما مسجدين لل المسلمين . وشمل الهدم أيضًا كنيستان للملكانية كانتا بحارة الروم بالقاهرة (٢٣٨) .

وفي رجب سنة ٣٩٧ هـ ، أمر الحاكم بأمر الله بمصادرة كل ما هو محبس على الكنائس من أملاك وعقارات وجعله في الديوان ، وكتب إلى سائر الأعمال بذلك ، كما أحرق العديد من الصليبان على باب الجامع العتيق بالفسطاط (٢٣٩) ثم تلاه مرسوم آخر في رجب سنة ٣٩٨ هـ بمصادرة أوقاف الكنائس العديدة والعتيقة بمصر خاصة دون غيرها من أقاليم الدولة وجعلها باسمه في الديوان (٢٤٠) .

ثم كان أخطر مرسوم أصدره الحاكم بأمر الله ، وهو الخاص بهدم كنيسة القيامة ببيت المقدس . وعلى الرغم من أن بعض المصادر العربية ترجع تاريخ هدم كنيسة القيامة إلى أواخر عام ٣٩٨ هـ / ١٠٠٨ م (٢٤١) ، إلا أن الرواية النصرانية المعاصرة تحدد سنة ٧٢٧ للشهداء وهي توافق سنة ٣٩٩ هـ / ١٠٠٩ م تاريخاً لهذا السجل الخطير (٢٤٢) .

(٢٢٧) المريزى : اتعاظ الحنطا ، ج ٢ ، ص ٤٨ .

Stern : Op. cit., p. 15-17.

(٢٢٨) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٨٦ .

(٢٢٩) المريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٦٣ ، ٢٨٦ .

(٢٤٠) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٩٤ .

(٢٤١) القلاتسي : (الذيل ، ص ٦٦) ، ابن الجوزي (المنتظم ، ج ٧ ،

ص ٢٢٩) . سبط بن الجوزي (مرأة الزمان ، ج ١١ ، ورقة ٣٠٤) ، المريزى

(اعظ الحنطا ، ج ٢ ، ص ٧٥) العيني (عقد الجمعة ج ١٩ ، ورقة ٥٤٤) .

عنان (الحاكم بأمر الله ، ص ١٣٦) .

(٢٤٢) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة

- الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٩٦ .

ولقد ألمت تلك الرواية النصرانية المعاصرة الضوء على ظروف الحادث والأسباب التي دفعت الخليفة الحاكم بأمر الله إلى اتخاذ هذا القرار ، ويروى الأنبا ميخائيل أنه عندما غضب الحاكم بأمر الله على الأنبا زخاريا بطريرك اليعاقبة أمر بإغلاق الكنائس أولاً ، ثم القبض على البطريرك واعتقاله وحبسه ، كما سبق أن أوضحتنا ... وفي ثانٍ يوم لاعتقاله أمر الخليفة كاتب السجل النصراوي النسطوري المعروف بابن شترن ، بأن يكتب إلى الشام بهدم كنيسة القيامة بالقدس ، وجاء في السجل « خرج أمر الإمامة اليك ، فاهدم قمامته ، فاجعل سمائها أرضًا ، وطولها عرضاً » (٢٤٣) ، فقام إلى الرملة (فلسطين) بارسال رجاله وأمرهم بمصادرة كل ما في الكنيسة من الذخائر والتroph و الآنية المقدسة ، واحتاطوا على كل محتوياتها ، كما هدمت مباني الكنيسة الا ما تعدد هدمه ، وأذيلت كنيسة ماري قسطنطين وكل ملحقاتها ، ولم يبق من الآثار المقدسة بكنيسة القيامة سوى أثر الصخرة التي شيد عليها القبر المقدس ، وقد أصيبت بالتلف من جراء ضربها بالمعاول ، كما هدم دير السري وكان خاصاً بالراهبات ، وصودرت جميع أملاك الكنيسة وأوقافها وأموالها ، وأخذت جميع محتوياتها من تحف وذخائر ، ويؤرخ الانطاكي الخامس من صفر سنة ٤٠٠ هـ تاريخاً لابتداء هدم الكنيسة (٢٤٤) .

أما معظم المصادر الإسلامية ، فقد تعرضت هي الأخرى لهذا الحادث الخطير ، وأسباب حدوثه . وتؤرخ له بعام ٣٩٨ هـ ، وتذكر أنه في هذا العام خرج نصارى على عادتهم في كل عام إلى بيت المقدس لحضور احتفالات عيد الفصح ، وهم في أجمل مظاهر العظمة والأبهة كما يخرج المسلمين إلى الحج فاستدعي الخليفة

(٢٤٣) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٣ ، ورقة ٥٦ .

(٢٤٤) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٩٦ .

الحاكم بأمر الله ختكين الضيف العضدي أحد قواده ، وسألة عن أمر كنيسة القيامة لمعرفة بها ، وما يحدث في هذا العيد هناك ، فأخبره بأنها بيعة تعظمها النصارى ، ويحيى إليها من جميع البلاد ، ويأتي إليها الملوك وحكام الدول المسيحية حاملين إليها التذور والأموال الكثيرة والثياب الديباج والستور والفروش والقناديل والشموع والصلبان ، وأواني الذهب والفضة والتحف النادرة ، فإذا كان يوم الفصح زينت الكنيسة بالأضواء الباهرة ، وعلقت القناديل المضيئة والمملوءة بدهن البليسان في المذبح ، وقد اجتمع النصارى لاقامة الصلوات والشعائر الدينية ، في مواكب دينية صاخبة ، ورفعوا أصواتهم يرددون الأدعية والابتهاles ، حاملين المبادر والصلبان الفضخمة ، وقد علق خدم الكنيسة بها القناديل المملوءة بدهن البليسان مع دهن الزبيق ، فتنبعث منها الأضواء الساطعة التي تخطف البصر ، وبطريقة تخيل للناظرين إليها أنها نزلت من السماء ، فيكثر تهليلهم وتكبيرهم . فأنكر الحاكم بأمر الله ذلك ، وتقدم إلى أبي المنصور بشر بن سورين كاتب الانشاء بأن يكتب رسالة إلى الداعي أحمد بن يعقوب بأن يقصد بيته المقدس ، ومعه والي الرملة ، فيهدم كنيسة القيامة ، ويأخذ محتوياتها ، ويبيع لعامة المسلمين نهبها ومحوا أثرها (٢٤٥) . فقام والي الرملة ومعه الأشراف والقضاء والشهدود ووجوه المسلمين ، وقصدوا كنيسة القيامة . الا أن نصارى مصر عندما علموا بذلك بطريرك بيت المقدس علما بمضمون السجل ، فأخفى البطريرك

(٢٤٥) المقريزى : اتعاظ الحنطا ، ج ٢ ، من ٧٥ .

(٢٤٦) ابن القلانسى : المصدر السابق ، من ٦٧ .
- على أن المقريزى يذكر أنه في صفر سنة ٤٠٠ م كتب من انشاء ابن سيرين لهم قيامة بالقدس (اتعاظ الحنطا ، ج ٢ ، من ٨١) .

كثيراً مما كان فيها من الفضة والذهب والجواهر والثياب والتحف قبل وصول أصحاب الحكم بأمر الله الذين أحاطوا على ما تبقى فيها من موجودات وكان شيئاً عظيماً ، فتمت مصادرته ، كما هدموا مباني الكنيسة ، و « قلعت حبراً حبراً » . وتعرضت للنهب والتخريب (٢٤٦) .

وأغلب الظن أن تخريب الكنيسة « لم يكن تخريباً كلياً » ، وأن الهدم امتد فقط إلى أغلب منشآتها (٢٤٧) .

ونتيجة لهذا الحادث اهتز العالم المسيحي ، وارتفعت الأصوات في أنحائه تطالب بحماية القبر المقدس ، وأخذت البابوية على عاتقها الترويج لهذه الدعوة (٢٤٨) .

ولقد اتبّع الحكم بأمر الله قراره بهدم كنيسة القيامة بقرار آخر يقضي بهدم جميع الكنائس والبيع في جميع أقاليم الدولة ، الا أنه أمسك عن هدم كثير منها خوفاً من أن تقوم شعوب العالم المسيحي بهدم ما في بلادها من مساجد المسلمين (٢٤٩) .

الآن في تاسع عشر ذي الحجة سنة ٣٩٩ هـ أمر الحكم بهدم كنائس القنطرة التي في طريق القدس ، وكذلك كنائس حارة الروم ، ونهب جميع ما فيها (٢٥٠) وفي السنة التالية أمر بهدم كنيسة العجوز بدبياط ، وكانت واحدة من أعظم كنائس الملائكة بمصر ، فشرع في هدمها يوم الجمعة في الثاني عشر من شهر رمضان سنة ٤٠٠ هـ . كما نبشت مدافن بالكنيسة كانت لنصارى دبياط

(٢٤٧) مجير الدين الحنبلي : الانس الجليل بتاريخ القدس والمخليل ، ج ١ ، ص ٣٠٣ .

(٢٤٨) عنان : الحكم بأمر الله من ١٣٨ .

(٢٤٩) المقريزي : اتعاظ الحنظا ، ج ٢ ، ص ٧٥ .

(٢٥٠) النويري : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٥ .

من الملكانية وأزيلت معالمها ، وأخذت محتوياتها وما بها من آنية الذهب والفضة ، وصودرت أملاك الكنيسة وعقاراتهما وكل ما حبس عليها ، وبني في موضعها مسجد للمسلمين (٢٥١) . وفي صفر سنة ٤٠٢ هـ أمر الحاكم بأمر الله ، بآلا يضرب بناقوس ، والا يظهر صليب بأية كنيسة ولا تقع عليه عين ، فنزع الصليبان من الكنائس ومحيت معالمها من ظاهر البيع والكنائس (٢٥٢) .

وفي ربيع الأول سنة ٤٠٣ هـ وقع الأمر بهدم جميع الكنائس في الديار المصرية (٢٥٣) ، فسأل جماعة من النصارى الحاكم بأمر الله أن يتولوا هدم كنائسهم بأيديهم ، وأن يبنوها مساجد للمسلمين ، وأنقطع الحاكم ما للكنائس من رباع وأملاك لجماعة من الخدم الصقالبة ، وووهب لهم ما في الكنائس من التحف والذخائر وأوانى الذهب والفضة وغيرها من الحاصل والمأكمل ، كما أقطع كثيرا من الكنائس لكل من التمسها ، ولم يرد من سأله شيئا منها (٢٥٤) . ثم أصدر أوامره إلى ولاته بالأقاليم وسائر أعمال الدولة بأن يهدم كل وآل ما في ولايته من كنائس (٢٥٥) ، فهدم كثير منها ، ومحيت معالمها وأزيلت آثارها ، وقلعت أساساتها من الأرض ، وأخذت أنقاضها ، وأنشئ مكان البعض منها عدد من المساجد (٢٥٦) . كما تحول بعض هذه الكنائس إلى مساجد للمسلمين (٢٥٧) ، ويروى الأسطوكي أنه قد أخرجت عظام الموتى من

(٢٥١) الانطاكي : المصدر السابق ، من ١٩٧ .

(٢٥٢) ——— : نفس المصدر ، من ٢٠٢ .

(٢٥٣) المقريزى : اقطاع الحنطة ، ج ٢ ، من ٩٤ .

(٢٥٤) التورى : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٥٧

(٢٥٥) ——— : نفس المصدر ، ونفس الورقة .

— المقريزى : اقطاع الحنطة ، ج ٢ ، من ٩٤ .

(٢٥٦) الانطاكي : المصدر السابق ، من ٢٠٤ .

(٢٥٧) المقريزى : اقطاع الحنطة ، ج ٢ ، من ٩٤ .

الكنائس في عدة بلدان ، وأحرقت الكتب الموجودة بها ، كما ألم الحاكم بأمر الله نصارى كل بلدة بأن يدفعوا أجور العمال الذين قاموا بهدم ونقض ما بها من كنائس (٢٥٨) ، ويدرك المقرizi أن كنيسة أبي شنودة - كبرى الكنائس القبطية بمصر - وكنيسة العلاقة بالفسطاط قد تعرضتا لنهب ما فيها من الأموال والمصاغ وثياب الديباج وغير ذلك من التحف والذخائر وكان شيئاً كثيراً (٢٥٩) . هذا بجانب ما نهب من أموال الكنائس والديارات فيسائر أنحاء الدولة ، قباع الناس بأسواق مصر كل ما وصلت إليه أيديهم من تلك الثروات والتحف وتصرفوا في أحباس وأملاك وعقارات الكنائس باليبيع والشراء (٢٦٠) .

ولقد تتابع هدم الكنائس في جميع أنحاء الدولة ، وطبقت القرارات الخاصة بهدمها في متهى الحرم والصرامة لمدة ما يقرب من ثلاثة سنوات من ربیع الآخر سنة ٤٠٣ هـ إلى أواخر سنة ٤٠٥ هـ . وهدم في تلك الفترة من الكنائس والأديرة التي بناها الروم حوالي ثلاثة ألف - حسب قول المقرizi - ، ونهب من أموالها وذخائرها ما يصعب حصره ، وأخذ من أوقافها وأملاكها الشيء الكثير (٢٦١) .

وعلى الرغم من أن الانطاكي بالغ في وصف قسوة الأساليب التي اتبعت في هدم الكنائس . وعلى الرغم من مبالغة المقرizi في تقدير ما هدم من كنائس وأديرة الروم ، إلا أن واقع الأمر يؤكد

(٢٥٨) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٠٤ .

(٢٥٩) المقرizi : اقطاع المقا ، ج ٢ ، ص ٩٤ ، ٩٥ .

(٢٦٠) ——— : الغلط ، ج ٢ ، ص ٤٩٤ ، ٤٩٥ .

(٢٦١) ——— : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٤٩٥ .

أن الحكم بأمر الله اتبع سياسة غاشمة متعصبة أزاء دور عبادة أهل الذمة في تلك الفترة ، وليس هناك ما يبرر اتخاذ مثل تلك القرارات والإجراءات المنافية لروح التسامح الإسلامي ، بل إن تلك القرارات تعكس روح التعصب الديني - لدى الخليفة الحاكم بأمر الله - التي غذتها كثرة حروبه من الروم .

ولقد حاول الراهب يوتس - السابق الاشارة اليه - والحاقد على البطريرك زخاريا ، أن يشعل نار الفتنة مرة أخرى بين الخليفة الحاكم بأمر الله وبين رجال الكنيسة الذين أتوا على الراهب يوتس تبعه تصرفات الحكم الغاشمة أزاء هدم الكنائس ، إلا أن الخليفة الحاكم بأمر الله كان قد قرر اتباع سياسة معتدلة أزاء أهل الذمة (٢٦٢) .

ففي جمادى الآخرى سنة ٤١١ هـ ، أصدر سجلا إلى نقفور بطريرك بيت المقدس بحفظ دور العبادة الخاصة باهل الذمة في بيت المقدس ، والمنع من تقادها ، وأنعم على كنائس بيت المقدس برد أو قافها اليها ، « وانفتح حينئذ باب رجعة الكنائس ورد أو قافها » (٢٦٣) . كما صرخ الحكم بأمر الله لبطريرك الروم بالقاهرة بتعمير كنيسة القسطنطينية بالفسطاط ، ثم توالت التماسات الآتيا سليمون رئيس دير طور سيناء والشماسات غيره من النصارى إلى الحكم برد كل كنيسة من كنائسهم وعمارتها ورد أو قافها .

(٢٦٢) الآnya ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٦٠ .

(٢٦٣) الانطاكي : المصدر السابق ، من ٢٢١ .

كما كتب الأنبا سلمون رقاعاً رفعها إلى الحاكم بأمر الله عن أهل البلدان البعيدة التماساً لبناء وتجديده ما هدم من الكنائس فأجاب الحاكم كل إلى ملتمسه ، وأطلق عمارة جميع الكنائس التي يستدعي الأمر منه الأذن فيها ، وإعادة أو قافتها إليها . إلا ما كان قد بيع في وقت القبض عليها (٢٦٤) ، هذا بجانب تصريح الحاكم بأمر الله بأن يعاد إلى الكنائس الأخشاب والعمد والطوب والحجارة المأخوذة منها (٢٦٥) ، وجد النصارى في عمارة كنائسهم فعادت إلى أحسن مما كانت عليه (٢٦٦) .

زد على ذلك أن الحاكم بأمر الله أمر باعفاء كثير من أملاك الكنائس وأوقافها من دفع ما عليها من الخراج والرسوم ، وما فرض عليها من غرامات سابقة (٢٦٧) .

وفي بداية خلافة الظاهر لاعزار دين الله ، سمح للنصارى الذين تؤازرهم ست الملك – ببناء الكنائس ، إلا أن ست الملك – التي كان لها نفوذ كبير في الدولة – أخذت الخراج والرسوم التي سبق للحاكم بأمر الله اعفاء أوقاف وأملاك الكنائس منها (٢٦٨) .

وفي عهد الظاهر أيضاً أعيد تجديد عمارة كنيسة القيامة ببيت المقدس كما استمر النصارى في تعمير وتتجديد كنائسهم في سائر أقاليم الدولة (٢٦٩) ، « حتى أعيادت لما كانت عليه

(٢٦٤) ————— : نفس المصدر ونفس الصيغة .

(٢٦٥) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٦٠ .

(٢٦٦) الأنبا ميخائيل (أسلف أثرب) : السنكسار ، ج ١ ، من ١٠٦ .

— العينى : المصدر السابق ، ج ١٩ ، ٥٤٨ ، ورقة .

(٢٦٧) الانطاكي : المصدر السابق ، من ٢٢٩ ، ٢٣٧ .

(٢٦٨) ————— : نفس المصدر ، ٢٢٨ .

(٢٦٩) ————— : نفس المصدر ، ٢٤٣ .

وأفضل « (٢٧٠) »، وردت أوقاف للكنائس لم تكن قد ردت إليها في خلافة الحاكم (٢٧١) .

وفي عهد وزارة اليازوري في الخلافة المستنصرية تعرضت الكنائس لبعض القيود ، بسبب الخلاف الذي نشب بين اليازوري والبطرييرك خريستودولوس لأنه أنشأ كثيراً من الكنائس المستحدثة مما أدى إلى اغلاق الكنائس وهدم ما استجد منها وفرض غرامات مالية على ما استحدث من تلك الكنائس .

على أن حصن الدولة والاسكندرية في ذلك الوقت والذي كان يعطف على النصارى ، أرسل خفية إلى بعض خواصه من رجال الكنائس بالاسكندرية ليجردوا كنائسهم سراً من الأواني والمحل وكل ثمين من محتوياتها ، قبل أن تصل إليها يد المكلفين بالاستيلاء عليها من قبل السلطة (٢٧٢) .

ولما رفض الروم سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م أن يخطب لل الخليفة المستنصر بالله بجامع القدسية ، أمر الخليفة المستنصر بمصادرة أملاك كنيسة القيامة بالقدس مع مصادرة أموالها ونفائسها (٢٧٣) .

ومع هذا قام النصارى في خلافة المستنصر بترميم وبناء بعض الكنائس اذ يذكر أبو صالح الأرمني في تاريخه أن كنيسة القديس جرجيوس بالحمراء - والتي كانت قد تصدعت - قد أصلحت وجددت على يد المسلم سرور الجلال الذي كان من أغنىاء

(٢٧٠) الأنبا ميخائيل : سر البيعة المقدسة ، ج ٣ ، ورقة ٦١ .

(٢٧١) الانطاكي : المصدر السابق ، من ٢٢٨ .

(٢٧٢) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٣ ، ورقة .

- جاك تاجر : المرجع السابق ، من ١٤٠ .

(٢٧٣) العيني : المصدر السابق ، ج ٢٠ ، ورقة ١٩٢ .

النصارى (٢٧٤) ، كما كان هناك كثير من رجال الدولة - فى خلافة المستنصر - من شملوا برعايتهم وتسامحهم كنائس النصارى ودور عبادتهم (٢٧٥) .
الأديرة :

وكانت أديرة النصارى منتشرة فى أنحاء مصر والشام ونعم رهبان تلك الأديرة بسياسة التسامح الدينى ازاء أهل السنة التى كانت سمة من سمات عصر الفاطميين ، باستثناء فترة من عهد الخليفة الحاكم بأمر الله .

فعندما أقىم جوهر الصقلى على بناء مدينة القاهرة لتكون عاصمة للفاطميين قام بتعمير دير الخندق بظاهر القاهرة من شمالها ، عوضا عن دير هدمه كان موضعه بالقرب من الجامع الأقمر ، وكان يعرف بدير العظام . كما نقل رفات موتى النصارى إلى دير الخندق احتراماً لمشاعر النصارى في مصر (٢٧٦) .

ولما قدم الخليفة المعز لدين الله إلى مصر واستقر بها ، شمل برعايته وعطفه ديارات النصارى ورهبانها ، وصرح للطبرى أن إبراهام السوريانى رئيس الكنيسة القبطية آنذاك بتزويج الأديرة القديمة وبناء ما تمسّه من الأديرة الجديدة في سائر أقاليم الدولة (٢٧٧) .

وفى خلافة العزيز بالله كانت ديارات النصارى في حمايته ، ونعم الرهبان بالأمن والطمأنينة طوال عهده ، كما قام النصارى

(٢٧٤) أبو صالح الارمني : المصدر السابق ، ص ٢١ .

(٢٧٥) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٧٧ .

(٢٧٦) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٥٠٦ .

(٢٧٧) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٣ ، ورقة ٤٤ ، ٤١ .

يبناء بعض الأديرة دون الاستئذان منه (٢٧٨) ، وعلى سبيل المثال فأن أرسانيوس البطريرك الملكاني صهر العزيز بالله أحاط دير القصدير بالملقطم بسور عظيم ، وعمر الدير وجده ، وأنشا فيه أبنية كثيرة (٢٧٩) .

و قبل أن تهب العاصفة ويتشدد الحاكم بأمر الله في سياساته تجاه أهل الذمة ، قام النصارى بتجديف عمارة بعض الأديرة ، فقد اهتم أبو نصر ابن عبدون – وكان آنذاك يتولى ديوان الشام ، بتجديف عمارة دير ماريونينا (٢٨٠) ، وكان على جانبى هذا الدير بساتين أنشأ بعضها الأمير تميم بن المعز وكانت من مواضع النزهة والطرب (٢٨١) .

وعندما هبت العاصفة ضد أهل الذمة في خلافة الحاكم ، وصل ذرها إلى الأديرة والرهبان ، فهدم الكثير من الأديرة ، ولم يبق منها إلا القليل (٢٨٢) .

ففي العاشر من زحب سنة ٣٩٨ هـ ، أمر بوضع اليد على أوقاف الديارات الهدبية والعتيقية بمصر دون غيرها من البلدان ، وجعلها باسمه في الديوان (٢٨٣) ، وفي مرسومه الصادر في ذي الحجة سنة ٣٩٩ هـ ، كان هدم كنيسة القيامة بالقدس وشتم الهدم والتخريب دير للراهبات بجوارها يعرف بدير السري ، وتنهب ما فيه من تحف وذخائر (٢٨٤) . كما صودرت أملاك الأديرة

(٢٧٨) جاك تاجر : المرجع السابق ، من ١٢٥

(٢٧٩) الانطاكي : المصدر السابق ، من ١٩٧

(٢٨٠) أبو صالح الارمني : المصدر السابق ، من ٥١

(٢٨١) المقريزي : الخطط ، ج ٢ ، من ٥٠٥

(٢٨٢) ——— : نفس المصدر ، من ٥٠٦

(٢٨٣) الانطاكي : المصدر السابق ، من ١٩٤

(٢٨٤) ——— : نفس المصدر ، من ١٩٦

وأوقافها في أنحاء الدولة وامتدت إليها معاول الهدم لتفصيلها (٢٨٥) .

وفي يوم الثلاثاء ثامن شهر رمضان سنة ٤٠٠ هـ ، أصدر الحاكم بأمر الله مرسوماً بهدم دير القصیر بجبل المقطم ، ونهب جميع ما فيه ، وكان أرسانيوس بطريرك الملكانية يومئذ مقينا فيه مع الرهبان ، فاخرجوه جميعاً من الدير ، وأخذت تنقضه معاول الهدم ، ولعل السبب في ذلك تشدد الحاكم بأمر الله في سياسته إزاء أهل النوبة عامة ، وإزاء النصارى الملكانية بوجه خاص ، هذا بجانب أن البطريرك استحدث بالدير عدة مبانٍ ومنشآت جديدة ، وعمر وجد في بيته ، مما اضطرب الحاكم بأمر الله تمشياً مع سياسته وتشدده في تطبيق الشروط العمرية إلى هدم الدير وجميع ملحقاته المستحدثة ، واستمر الهدم فيه عدة أيام . وكان للنصارى الملكانية خارج الدير مقابر ومدافن لموتاهم ، ففتح الرعاعيا والعيبيه جميعها ، ونبشوها ، وأخذوا توابيت الموتى ، ولما علم الحاكم بذلك ، أمر بالكف عن فتح القبور وترك التعرض لرفات الموتى وما تحويه المدافن (٢٨٦) . وفي تلك السنة الغيت جميع الأحباس المرصودة على الأديرة بمصر وضمت للديوان (٢٨٧) . وفي صفر سنة ٤٠٢ هـ نزعت الصليبان وطمسمت آثارها من ظاهر الأديرة ، وفي جمادى الآخرى سنة ٤٠٣ هـ أقطع الحاكم بأمر الله معظم الأديرة العتيقة والحديثة بمصر وسائر أقاليم الدولة لكل من التمسها (٢٨٨) .

(٢٨٥) المقريزى : الخطط جـ ٢ . ص ٤٩٥.

(٢٨٦) الانطاكي : المصبن الشابق ، جـ ٢ . ص ٤٩٧ .

أبو صالح الأرمي : المبادر الشابق ، جـ ٢ . ص ٦٢ .

(٢٨٧) عنان : الحاكم بأمر الله ، ص ١٢٥ .

(٢٨٨) المقريزى : اقطاع الحنف ، جـ ٣ ، ص ٨١ .

وأحرق بعضها (٢٨٩) ، ووهدب لهم أملاكها وما هو موقوف عليها . وسمح لهم بنهب محتوياتها ، وكتب إلى عماله في سائر أعمال الدولة بهدم الأديرة ونقضها ومحو آثارها ، فاتى على أكثر الأديرة بالأقاليم ، الا الدير الكبير المعروف بدير ابن مقار – في ترنيط من أعمال الاسكندرية – وما حوله من الأديرة القريبة منه ، اذ بلغ الحاكم بأمر الله أن هذا الدير في حماية قبيلتينبني قرة وبني كلاب العربين ، وأن عرب هاتين القبيلتين لا يمكنون أحدا من الوصول إليه والتعرض له ، فأمسك الحكم عن هدمه أو الحاق الفرور به (٢٩٠) ، مما أتاح للرهبان المقيمين فيه حرية العبادة واقامة الشعائر الدينية في الفترة التي ضيق فيها الحكم بأمر الله الخناق على الكنائس والأديرة بمصر (٢٩١) .

هذا بينما أقطع الحكم بأمر الله دير راية ، ودير طور سيناء ، لربيل عربى يعرف بابن غيات ، فهدم أحدى كنائستى دير راية ، وأخذ جميع ما فيه من تحف وذخائر ومحفوظات . ويدرك الأنطاكي أن الخليفة الحكم أوعز إلى ابن غيات المسير إلى دير طور سيناء لهدمه وبناء مستجد مكانه ، الا أن الأنبا سلمون بن إبراهيم أحد الكتاب النصارى الذين اتخذوا من الرهبانية طريقاً لهم ، وكان على قدر كبير من الذكاء والسياسة ، أحسن استقبال ابن غيات هذا ، وأكد له أن أسقف الدير ورهبانيه على استعداد تام للمساعدة في هدم الدير ل ساعته وغير مانعين له منه ، وسلم إليه جميع محتويات الدير من التحف والذخائر وما به من الذهب والفضة ، وقال له قوله علينا . وأوضح الأنبا سلمون لابن غيات صعوبة هدم الدير لحصانته مبنائه وضخامة جدرانه وأسواره ، وكثرة ما يلزم

(٢٨٩) أبو صالح الأرمني ، ص ٧٧ .

(٢٩٠) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٠٤ .

(٢٩١) ابن الراهب : المصدر السابق ، ص ١٢٥ .

من الأموال والنفقات لهدم الدير ، والتمس الراهب من ابن غياث عدم التعرض للدير مقابل مبلغ من المال تقرر دفعها إليه ، فرضى ابن غياث بما تم الاتفاق عليه ، وانصرف دون أن يهدم الدير أو يلحق بهبهانه الأذى^(٢٩٢) .

لكن الحاكم بأمر الله قبل اختفائة سنة ٤١١ هـ / ١٠٢٠ مـ كان قد خفف من مطاردته لأهل النمة ، فاتهزم الأنبا سلمون رئيس دير طور سيناء تحول الخليفة عن سياسته السابقة وتسامحه مع أهل النمة ، وشكى إليه سوء حالة رهبان دير طور سيناء ، وما هم عليه من الضر والفاقة ، وتوسل إليه في اطلاق الأوقاف الخاصة بالدير والتي سبق مصادرتها ليستعين الرهبان بريعها في احتياجاتهم ومتطلبات اعاشتهم ، فأجابه الحاكم بأمر الله إلى ملتمسه ، وأعاد ما كان للدير من أوقاف وأملاك^(٢٩٣) .

وعندما التقى الأنبا سلمون بالحاكم بأمر الله شكره إليه ما أصاب دور العبادة الخاصة بالنصارى من خراب ، وما تعرضت له أوقافها من المصادرنة والتمس منه الإذن بتتجديف عمارة دير القصير ، والسماح بعوده الرهبان إلى سكناه ، واجتماع النصارى فيه للصلة مع رد ما سبق مصادرته من أملاك وأوقاف الدير إليه واعفائه واعفاء ما يستجده له من أوقاف مما يجب من « خراج وعشرين وغرم ورسم » فيسائر دواوين الدولة ، فأجابه الحاكم إلى ما التمسه وكتب له سجلا بذلك في دبيع الآخر سنة ٤١١ هـ . ثم كتب الحاكم سجلا إلى نقولور بطريرك بيت المقدس بحماية أديرة

(٢٩٢) الانطاكي : المصدر السابق ، من ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

(٢٩٣) ————— : نفس المصدر ، من ٢٢٨ .

بيت المقدس ورد أوقافها اليها واطلاق حرية التعبد لرهبانها ، وحضر كل من تسول له نفسه مخالفة أوامره (٢٩٤) . وبعد ذلك أطلق الحكم عمارة جميع الديارات فيسائر أنحاء الدولة وأمر برد أوقافها وأملاکها اليها ، الا ما كان قد بيع ابان مصادرتها ، وأعطي لكل من سأله سجلا في معنى سجل دير القصير (٢٩٥) .

ثم كان قرار الحكم بالغفو الشامل بمقتضى مرسوم أصدره في شهر شعبان سنة ٤١١ هـ قبيل اختفائه (٢٩٦) . كما تعاطف الحكم بأمر الله مع الرهبان ونشأت صدقة وطيدة بينه وبين بعض الرهبان ، ومنهم بر بن الراهب الذي كان قد اعتنق الاسلام ثم ارتد إلى النصرانية في خلافته ، وعاد صاحبا له ، وكان واحدا من الذين التمسوا من الحكم بأمر الله إعادة فتح الكنائس والأديرة ، والغاء الكثير من القيود التي فرضت على النصارى ، كما أن الحكم بأمر الله صرخ له بتتجديد عمارة أحد الأديرة ، وأطلق ما سبق مصادرته من أوقاف هذا الدير (٢٩٧) .

وزار الخليفة الحكم بأمر الله في أواخر أيامه الرهبان في أديرتهم وقد لبس زى الرهبان . فكثيرا ما كان يقصد دير القصير أثناء تجديد عمارته ، ويبحث الصناع والعمال على الانتهاء منه ، كما أطلق الأموال للصرف على بنائه ، ودفع للرهبان المقيمين فيه الأموال الجزيلة للمساهمة في نفقات معيشتهم وسد احتياجاتهم ،

(٢٩٤) الانطاكي : المصدر السابق ، من ٢٢١-٢٢٩ .

(٢٩٥) ——— : نفس المصدر ، من ٢٢١ .

(٢٩٦) ——— : نفس المصدر ، من ٢٢٢ .

(٢٩٧) أبو صالح الأرمني : المصدر السابق ، من ٦٠ .

كما ساعد في دفع أجور العمال ، وكافاً البنائين العاملين في بنائه ،
تشجعوا لهم للسراع في عمارته (٢٩٨) .

هذا ولم يقتصر الحكم بأمر الله على زيارة دير القصیر الخاص
بالروم الملكانية ، بل انه كان يقصد الديارات التي جددتها النصارى
اليعاقبة للوقوف على ما تم في عمارتها ، مما دفع عوام المسلمين الى
اطلاق الاشاعات المغرضة ضده ، واتهامه بأنه قد تتمدد على يد الأنبا
سلomon الراهب ، وأنه قد انحاز اليه وامثل لأوامره (٢٩٩) .

وهكذا أعاد الحكم بأمر الله سياسة التسامح الديني باطلاق
الحرية الدينية لأهل الذمة ، فصرح لهم بحرية اقامة شعائرهم
الدينية ، والتعبد علانية في الكنائس والأديرة ، وحثهم على اعادة
بنائها ، وسمح للرهاة بالعودة الى أديرتهم ، والسكن بها ، مع
توفير الأمن والحماية لهم ، وشملهم بعطفة ورعايته ، وزارهم في
أديرتهم ، وأطلق لهم ما كان موقعاً عليهم من أملاك وأموال
وعقارات ، وأجاب النصارى لكل ما يتحقق صلاح أمرهم (٣٠٠) .

وفي تلك الأثناء ، أذن الحكم بأمر الله لمن دخل في الإسلام
كرهاً أن يرتد إلى دينه ، فارتدى آلاف من النصارى من كانوا قد
تظاهروا بالإسلام إلى المسيحية . ويروى عن الحكم قوله في هذا
الประเด ❁ « نزه مساجدنا عن لا نية له في الإسلام » (٣٠١) ،
كما صرخ بأن تضرب التواقيس في البيع والكنائس (٣٠٢) ، ايذاناً
منه باطلاق الحرية الدينية لأهل الذمة .

(٢٩٨) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٣٣ .

(٢٩٩) ——— : نفس المصدر ونفس الصفحة .

(٣٠٠) ——— : نفس المصدر ونفس الصفحة .

(٣٠١) العيني : المصدر السابق ، ج ١٩ ، ورقة ٥٤٨ .

(٣٠٢) الأنبا ميخائيل (أسقف أنتيبي) : السنكتاري ، ج ١ ، ص ١٠٦ .

اما عن الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله ، فقد أعلن أنه سيتوخى العدل في سياسته مع كافة الناس على اختلاف وطائفهم ودياناتهم . ولقد انعكس ذلك السياسة على أهل الذمة ، اذ استمرت سياسة اعادة بناء الأديرة ، وبذل رؤساء الكنيسة جهودا كبيرة لتعمير ما خرب منها (٣٠٣) ، هذا فضلا عن أن الخليفة الظاهر أصدر مرسوما عاما يؤكّد استمرار سياسته في اطلاق الحرية الدينية لأهل الذمة ، وبأنه لا اكراه في الدين . فمن آثر منهمبقاء على يهوديته أو نصرانيته فعل ذلك ، ولهم جميعا الحماية والأمان والطمأنينة « على نفوسهم ودمائهم ، وأولادهم ، وأموالهم ، وأحوالهم ، ما سلکوا الطريق المستقيمة ولم يقصدوا المقاصد الذميمة » (٣٠٤) .

كما أصدر الخليفة الظاهر في المحرم سنة ٤١٥ هـ مرسوما للرہبان اليعاقبة بتجديده ما سبق أن أقره الخلفاء الفاطميون الأوائل من توفير الحماية لهم ، وصيانة ممتلكات أديريتهم ، وعدم المساس بأوقافها (٣٠٥) .

بل أن الظاهر لاعزاز دين الله سمح بعودة جماعة من النصارى سبق لهم الهجرة إلى بلاد الروم ، إلا أنه أخذ منهم الجزية من السنة التي انتهت استخراجها منهم إلى السنة التي عاد فيها كل واحد منهم (٣٠٦) .

(٣٠٣) الأنبا ميقائيل : سر البيعة المقدسة ، ج ٢ ، ورقة ٦٦ .

(٣٠٤) الانطاكي : المصدر السابق ، من ٢٣٦ .

Stern : Op. Cit., p. 15-17.

(٣٠٥)

(٣٠٦) الانطاكي : المصدر السابق ، من ٢٣٩ .

وفي خلافة المستنصر بالله الفاطمي نعم الرهبان بحرية ممارسة شعائرهم الدينية في الفترة الأولى من خلافته (٤٢٧ هـ - ٤٤٧ هـ) أى حتى منتصف القرن الخامس الهجري / منتصف القرن الحادى عشر الميلادى . ولم تتعرض الأديرة لما يسمى إليها أو إلى رهبانها ، إذ سار المستنصر بالله على سياسة أسلافه التي تميزت بالتسامح الديني وحرية العبادة لأهل الذمة . والرحلة ناصرى خسرو الذى زار مصر وفلسطين فى خلافته ، يذكر أن كنيسة القيامة « يقيم بها كثير من القسسين والرهبان ، يقرأون الانجيل ، ويصلون ، ويشتغلون بالعبادة تيل نهار » (٣٠٧) .

على أن أديرة النصارى فى الوجه البحري امتدت اليها يد السلب والنهب ، أثناء تلك الغزوات التى قامت بين قوات المستنصر ، وبين القائد التركى نصر الدولة الذى شق عصا الطاعة ، كما شوهدت زخارف ورسوم تلك الأديرة ومبانيها ، وتعرض رهبانها للأذى والقتل والتشريد ، مما أدى إلى هروب من نجا منهم إلى الأرياف فرارا من البطش والموت (٣٠٨) .

ومع انتشار المجاعة ، وازدياد الفتن ، واضطراب الأمن وعجز الخليفة المستنصر عن استرجاع هيبته وسلطانه ، وتدھور الأوضاع بوجه عام فى جميع أنحاء الدولة ، اضطر المستنصر إلى استدعاء بدر الجمالى إلى مصر ، لعله يعيد الأمور إلى حالتها الطبيعية (٣٠٩) .

(٣٠٧) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، ص ٣٧ .

(٣٠٨) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٣ ، ورقة ٧٩ ، ٨٧ .

(٣٠٩) - ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر ، ص ٢٨٣ ، ٣٩٢-٣٩٢ .

الكنائس اليهودية :

وإذا ما انتقلنا إلى الحديث عن كنائس اليهود في مصر ، فإن المقريزى يذكر أنه كان لليهود عدة كنائس منتشرة في الديار المصرية ويتناول في حديثه أحدي عشرة كنيسة منها : كنيسة دموه بالجيزة ، وكنيسة جوجر بالقرى الغربية (٣١٠) ، وفي مدينة الفسطاط كان لليهود ثلات كنائس هي : كنيسة المصاصة (٣١١) ، وكنيسة الثنائيين (٣١٢) ، وكنيسة الربانيين (٣١٣) .

كما كان لليهود عدة كنائس في مدينة القاهرة . فكان بحارة الجوردنية كنيسة عرفت بها ، ويروى المقريزى أنها خراب منذ أن أحرق الخليفة الحاكم بأمر الله تلك الحارة على اليهود (٣١٤) . أما حارة زويلة وحدها فقد وجد بها خمس كنائس (٣١٥) هي : كنيسة القرائين ، وكنيسة دار الحدرة ، وكنيسة الربانيين ، وكنيسة السامرة . وجميع تلك الكنائس المذكورة – على حسب قول المقريزى – محدثة في الإسلام (٣١٦) .

وكان معظم هذه الكنائس مكانة خاصة عند اليهود ، فهم يعتقدون أن كنيسة دموه – أعظم المعابد اليهودية بمصر – كانت الموضع الذي لجأ إليه موسى عليه السلام ، حينما كان يبلغ رسالة

(٣١٠) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٦٢ .

(٣١١) ——— : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٤٧٠ .

(٣١٢) الثنائيين التطيلي : المصدر السابق ، ص ١٧٠ ، ١٧١ .

(٣١٣) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٧١ .

(٣١٤) ——— : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٤٧٠ .

(٣١٥) ——— : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٤٦٣ .

(٣١٦) المقريزى : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٤٧١ .

الله عز وجل الى فرعون ، مدة اقامته بمصر ، منذ أن قدم من مدين الى مصر ، الى أن خرج بنى اسرائيل منها وكان بتلك الكنيسة شجرة زيزلخت في غاية الضخامة ، لا يشكون من أنها ترجع الى ذمن موسى عليه السلام . كما كان لهذه الكنيسة عيد يرحل اليهود بآهاليهم اليها ، في عيد الخطاب ، وهو في شهر سيوان ، ويجعلون ذلك بدل حجتهم الى القدس (٣١٧) .

اما كنيسة جوجر ، فيزعمون أنها الموضع الذي ولد به نبى الله الياس (٣١٨) ، كما يزعمون أن كنيسة المصاصة كانت مجلسا له (٣١٩) . كذلك يعتقد اليهود أن في كنيسة الشاميين نسخة من التوراة لا يشكون في أنها بخط عزرا أحد أنبيائهم (٣٢٠) . لكننا علينا أن نتساءل : هل تعرضت معايد وكنائس اليهود لآلية أضرار أو قيود في العصر الفاطمي الأول ؟ ثم لماذا تركت معظم الكنائس اليهودية في حارة زويلة بالقاهرة ؟

والواقع أن يهود مصر كغيرهم من أهل الذمة ، قد نعموا بسياسة التسامح الدينى التي سار عليها الخلفاء الفاطميين فى العصر الفاطمى الأول اذ تولوا أرقى مناصب الدولة ، وكانتوا على صلة وثيقة بقصر الخليفة (٣٢١) ، فتمتعوا بحرية ممارسة شعائرهم الدينية فى أمن وطمأنينة . كما أن كنائسهم لم تتعرض طوال خلافة المعز لدين الله وابنه العزيز بالله ، لما ينال منها أو يلحق الضرر بها .

وفي بداية خلافة الحاكم بأمر الله مارس اليهود شعائرهم الدينية في حرية تامة ، بل ان بعض الوثائق تمتداحه بسبب

(٣١٧) المقريزى : المصدر السابق ، ج ٢ ح ٤٦٤ .

(٣١٨) ——— : المصدر السابق ، ج ٢ ، ح ٤٦٩ .

(٣١٩) ——— نفس المصدر ، ج ٢ ، ح ٤٧٠ .

(٣٢٠) ——— نفس المصدر ، ج ٢ ، ح ٤٧٠ .

Goitein : A Mediterranean Society. The Jews Community of the Arab World as Portrayed in the Documents of the Cairo Geniza, Vol. I, p. 33-34.

« اصلاحاته العظيمة » ، كما أن كنائس اليهود في أوائل خلافة الحاكم لم تتعرض لآية أضرار ، فكان اليهود يجتمعون بها لاقامة الاحتفالات الدينية الخاصة بهم (٣٢٢) .

الا أن اليهود الذين كانوا يسكنون حارة الجودرية أثاروا سخط الحاكم عليهم ، فصب عليهم جام غضبه ، اذ بلغه أن اليهود يجتمعون بها أوقات خلواتهم ويفتنون :

وأمة قد ضلوا ، ودينهم معتل

قال لهم نبيهم نعم الا دام الخل

ويسخرون بذلك من المسلمين ، ويستهزئون بنبي الاسلام وييخوضون في الديانة الاسلامية ، ويتعرضون الى ما لا ينبغي سماعه ، مما اضطر الحاكم بأمر الله الى الانتقام منهم (٣٢٣) ، فسد عليهم حارتهم ليلاً وأحرقها . فامتد الحرير الى كنيستهم بذلك الحارة فسموها وأصبحت خراباً (٣٢٤) ، ثم منعهم من السكن بحارة الجودرية او المبيت فيها ، وأفرد لهم حارة زويلة للاقامة بها (٣٢٥) ، وأمرهم بعدم مغادرتها والا يخالفوا المسلمين في حاراتهم (٣٢٦) ، مما أدى الى تمركزهم في حارة زويلة ، وبالتالي الى اهتمامهم بانشاء معظم كنائسهم الحديثة في تلك الحارة .

(٣٢٢) قاسم عبده : المرجع السابق ، ص ٥٩ .

(٣٢٣) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤ .

(٣٢٤) المقريزى : نفس المصدر ونفس الصفحة .
Goitein : Op. Cit., p. 84.

(٣٢٥) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤ .

— : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٤٧٠ .

(٣٢٦) ابن ایاس : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥١ .

ولقد تعرض اليهود في مصر لصرامة القيود التي فرضها الحاكم بأمر الله على أهل الذمة ، وتشدده في تطبيق الشروط العصرية التي زاد عليها ، مما اضطر كثير من اليهود في هذه الفترة إلى الهجرة إلى بلاد اليمن ، وإلى تظاهر بعضهم بالاسلام (٣٢٧) وذلك إما حفاظاً على وظائفهم في الدولة ، وأما هرباً من قسوة القيود الصارمة التي ضيق الخناق على أهل الذمة بوجه عام .

وإذا كانت بعض كنائس اليهود قد تعرضت للنهب والتخريب في هذه الفترة من خلافة الحاكم فإنه قد عاد وصرح لهم باعادة بنائها (٣٢٨) ، كما أنه لم يكره أحداً على اعتناق الاسلام ، والدليل على ذلك أنه عندما انتهي سياسته متسامحة مع أهل الذمة قبيل اختفائه سنة ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م ، وسمح لهم بالعودة إلى دينهم ، ارتد أكثر أهل الذمة منهم كانوا قد تظاهروا بالاسلام (٣٢٩) ، وفي يوم واحد ارتد سبعة آلاف يهودي إلى اليهودية (٣٣٠) .

Goitein : Jews and Arabs, p. 84. (٣٢٧)

Goitein : The Mediterrean Society. Vol. I, p. 84. (٣٢٨)
: Jews and Arabs, p.84.

(٣٢٩) العينى : المصدر السابق ، ج ١٩ ، ورقة ٥٤٨ .

(٣٣٠) ابن ایاس : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٨ .

الباب الرابع

(علاقـة الـدولـة الفـاطـمـيـة بـالـدـوـلـ الـمـسـيـحـيـة)

وأثر ذلك على أهل الذمة

الفاطميون والبيزنطيون

استوجبت الأحوال التي تعرضت لها بلاد الشام قبيل الفتح الفاطمي لمصر ، أن يعمل الفاطميون على فتح الشام بمجرد أن انتهوا من فتح مصر .

فالجيوش البيزنطية في عهد الامبراطور نقولاوس (٣٥٢ - ٣٥٩ هـ / ٩٦٣ - ٩٦٩ م) كانت تواصل هجماتها بعنف على الشام ، وبخاصة في النصف الثاني من عام ٣٥٥ هـ / ٩٦٦ م وتبالغ في تخريب الأراضي الزراعية بالشام تميداً لغزو المدن الهامة بها ، وقد تمكن هذه الجيوش من الاستيلاء على بعض الحصون والراكز الرئيسية التي في حوزة المسلمين ، وساقت أمامها الآلاف من أسرى المسلمين (١) .

ثم كانت وفاة سيف الدولة الحمداني أمير حلب في صفر ٣٥٦ هـ فرصة كبيرة أمام البيزنطيين ليستعدوا لتجهيز حملة أخرى على الشام في أواخر ٣٥٧ هـ / ٩٦٨ م ليبدأ بها الامبراطور نقولاوس هجومه الكبير على الشام ضد المسلمين هناك في أوائل

(١) ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطهم في مصر ، ص ١٢٩ .

العام التالي . وقد نجحت القوات البيزنطية في الاستيلاء على كثير من الحصون والقرى وبعض المدن في شمال الشام ، كما تكرر حصارها لبعض المدن الهامة كأنطاكية (٢) .

وأمام خطر البيزنطيين في بلاد الشام التي أصابها الضعف ، وانهكت قواها الحروب في ظل ظروف سياسية بالغة السوء ، بالإضافة إلى ضعف العباسيين وعجزهم عن التصدي للهجمات البيزنطية ، بدا واضحاً أنه لا بد من وجود قوى إسلامية قوية ونشطة ، تتمكنها قوتها العسكرية والسياسية والاقتصادية من التصدي لخطر البيزنطيين الداهم ، وكان ذلك من نصيب الفاطميين الذين كانوا يحلمون باسقاط الخلافة العباسية وتوحيد العالم الإسلامي تحت ظل خلافتهم وكان تحقيق ذلك يقتضي منهم الاستيلاء على الشام ونشر مذهبهم الشيعي هناك ، وجعل مصر والشام قاعدة للجهاد ضد الروم (٣) .

كما قضت الضرورة السياسية والحربية على الفاطميين أن يوجهوا جيوشهم نحو الشام لتأمين حدود مصر من ناحية الشمال الشرقي من خطر القرامطة القادم إلى مصر بزعامة الحسن بن أحمد القرمطي ، ولصد هجمات الروم في شمال الشام (٤) ، ولكن يكتسبوا ثقة الرأي العام الإسلامي كخلافة قوية قادرة على دفع الآثار عن المسلمين الذين فقدوا الثقة من قبل في الخلافة العباسية الضعيفة ، والدولة الحمدانية التي أصابها الضعف بعد وفاة سيف الدولة (٥) .

(٢) عمر كمال توفيق : الامبراطور نقفور فوكاس واسترجاع الأرضي المقدسة ، ص ٢٧ إلى ص ٣٧ .

(٣) ماجد : ظهور خلافة الفاطميين ، ص ١١٩-١٢٣ .

(٤) سرور : النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ، ص ١٦ ، ١٧ .

(٥) ماجد : المرجع السابق ، ١٢٥ .

ولم تكد جيوش الفاطميين تستقر في مصر ، حتى قام البيزنطيون في عهد الامبراطور نقولاوس فوكاس بهجوم مفاجئ على مدينة أنطاكية وتمكنوا من الاستيلاء عليها في ذي الحجة سنة ٣٥٨ هـ/أكتوبر ٩٦٩ م . وكان سقوطها في يد البيزنطيين حدثاً ضخماً ، فهى المدينة التي كان يطمع نقولاوس في الاستيلاء عليها منذ توليه عرش الامبراطورية ، لأنها مدينة البطاركة والقديسين ، والتي كانت تعتبر منافسة لبيزنطة على حدود الشام لمدة مائة وخمسة عشر عاماً حتى استردها المسلمون في سنة ٤٧٧ هـ/١٠٨٤ م (٦) .

وما لبث البيزنطيون بقيادة بطرس فوكاس - قائد قواتهم بالشام - أن تقدموا نحو مدينة حلب أهم المدن الشامية ، ودام حصارهم لها سبعة وعشرين يوماً ، تمكنوا خلالها من التقدم في الجانب الشمالي منها ، وشددوا الحصار عليها ، مما اضطر أهالى المدينة إلى التوصل بين بطرس فوكاس وحاكم المدينة قرعية - الذى كان قد ثار على سعد الدولة بن سيف الدولة الحمدانى - في عقد معاهدة صلح بينهما في سنة ٣٥٩ هـ/٩٧٠ م . وفي هذه المعاهدة فرض البيزنطيون شروطهم التي تدعم نفوذهم بالشام ، وكان من أهمها التعاون مع الروم ضد المسلمين ، وأن يدفع جزية سنوية كبيرة إلى بيزنطة (٧) .

على أنه بعد استيلاء الفاطميين على دمشق ، رأى جعفر ابن فلاح قائد جند الفاطميين ، أن في استيلاء الروم على أنطاكية ،

(٦) عمر كمال توفيق : المرجع السابق ، ص ٤٠ .

- سرور : النفوذ البيزنطي في بلاد الشام والعراق ، من ٢١ ، ٢٢ ، ٢٦ .

(٧) عمر كمال توفيق : المرجع السابق ، ص ٤٠ ، ٤١ .

- ماجد : ظهور خلافة المظليين ، ص ١٢٠ .

وازدياد نفوذهم في حلب مما يهدد حكم الفاطميين في الشام ، ومن ثم أعد جيشاً كبيراً ضم جنوداً من أعمال دمشق وفلسطين ، وصار يرسل الحملة تلو الحملة إلى أنطاكية لاجلاء الروم عنها ، لكن هذه الحملات منيت بالفشل (٨) .

غير أن الفاطميين أرجأوا مواصلة حملاتهم على أنطاكية ، وسحبوا قواتهم التي كانت تحاصرها ، ليواجهوا خطر القرامطة الداهم ، بزعامة الحسن بن أحمد القرمطي ، الذي نجحت قواته في سنة ٣٥٩ هـ / ٩٦٩ م في الاستيلاء على دمشق وقتل جعفر بن فلاح ، واقامة الدعوة للخليفة العباسي ، ثم توجهت جيوشه في أواخر العام التالي لمهاجمة الفاطميين في مصر (٩) .

ومع أن الفاطميين نجحوا في رد هجوم القرامطة عن مصر ، ودخلوا دمشق في عام ٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م ، وأرسلوا قواتهم لحصار أنطاكية ل القيام بالجهاد (١٠) . إلا أن الأمور زادت تعقيداً بالنسبة للحكم الفاطمي في الشام ، ذلك أن الامبراطور هنا زيميسكس الذي كان مثل سلفه نقوله تحركه الأطماع لمساعدة المسلمين في شن هجوم على الشام في ذلك العام ، متهرزاً أضطراب أحواله ، وبخاصة أنه كان يعتقد باستحالة الحياة بينه وبين الفاطميين . وكان هدفه ليس فقط الاغارة على الشام ، وإنما الوصول إلى بيت المقدس مزار النصاري الذي يرتبط بذكريات المسيح (١١) .

(٨) سرور : النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ، ص ٢٩ .

——— : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٣٩ .

(٩) ——— : مصر في نصر الدولة الفاطمية ، ص ١٤٠ .

(١٠) ماجد : ظهور خلافة الفاطميين ، ص ١٣١ .

(١١) ——— : المصدر السابق ، ص ١٣٣ .

وفي تلك الظروف التي كان يعاني منها الحكم الفاطمي في بلاد الشام وصل إلى القاهرة في رمضان سنة ٣٦٣ هـ ، رسول الامبراطور البيزنطي حاملاً رسالة إلى الخليفة المعز ، الذي تسلمها ، ورأى أنه من حسن السياسة أن يعقد هدنة مع الروم بسبب الظروف البالغة السوء التي تواجه الفاطميين في الشام ، فاحسن استقبال الرسول البيزنطي ، رغم احتراض بعض كبار رجال دولته . الا أن الرسول البيزنطي توفي في القاهرة في شهر ذي الحجة من نفس العام ، وعملاً على تهدئة حالة التوتر في العلاقات البيزنطية الفاطمية ، أمر المعز بإعادة جثمانه إلى بلاد الروم (١٢) .

غير أنه في تلك الأثناء عممت الغوضى بلاد الشام بسبب الأضطرابات التي أثارها أفتکين التركى (١٣) ، الذي استولى على بعلبك في شعبان سنة ٣٦٤ هـ (١٤) ، ثم دخل دمشق في نفس الشهر من العام نفسه (١٥) . ولم يلبث البيزنطيون أن انتهوا هذه الأضطرابات واستولوا على بعلبك في رمضان سنة ٣٦٤ هـ ، ونهبوا وأحرقوا كل ما وصلت إليه أيديهم ، ثم هددوا مدينة دمشق ، ولما كان أفتکين قد دخل دمشق ، فإنه طلب عقد هدنة مع الامبراطور البيزنطى حنا زيمسكيس ، مقابل مبلغ من المال ، فجربى له أفتکين ثلاثين ألف دينار جمعها بالعنف ، فرحل الامبراطور إلى بيروت ، وبها نصیر الخادم والى المدينة من قبل المعز ، ولم يزل محاصراً لمدينته حتى سلم أهلها نصیر الخادم للامبراطور الذى ولى عليها حاكماً من قبله مع حامية من مائة رجل ، وبعد ذلك بقليل

(١٢) المقريزى : انتظام الحكم ، ج ١ ، من ٢٠٨-٢١٤ .

(١٣) المتفکين : قائد جند الاتراك في بغداد في عهد عز الدولة بختيار أمير بيروه في العراق (٢٥٦ - ٢٦٧ هـ) . وتوجه إلى الشام بعد هزيمته أمام جند الدليم .

(الثانوى ، المرجع السابق ، من ١٩١) .

(١٤) المقريزى : انتظام الحكم ، ج ١ ، من ٢٢٠-٢٢١ .

(١٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٧ ، من ٦٣-٦٥ .

نبع ريان الخادم أحد قواد المعز في أن ينزل هزيمة بقوات الروم (١٦) ، غير أن زيمسكيس توجه إلى فلسطين حيث تحصن الجيش الفاطمي بالقدس مدافعاً عنها ومانعاً الروم من السيطرة عليها، فاضطر الامبراطور إلى العودة إلى القسطنطينية (١٧) .

ومع هذا لم تنقطع الاتصالات الدبلوماسية بين البلدين ، فقد وصل إلى القاهرة رسول آخر للإمبراطور البيزنطي في المحرم سنة ٣٦٥ هـ ، لمقابلة الخليفة المعز . ولم يكتب لهذه المفاوضات الثانية النجاح ، أما بسبب عدم الوصول إلى اتفاق حول شروط الصلح ، أو بسبب استمرار الهجمات البيزنطية المتكررة على مدن الشام بالدرجة التي جعلت المعز يقرر أن يجهز جيشه للمسير إلى القسطنطينية في هذا العام ، لكنه توفي في شهر ربيع الآخر قبل أن ينفذ خطته (١٨) .

وقد انشغل العزيز بالله - في بداية عهده - بمحاربة أفتاكين التركى الذى تحالف مع القرامطة ، واستطاع أن ينزل بهذا التحالف هزيمة منكرة عنده الرملة فى المحرم سنة ٣٦٧ هـ ، وأسر أفتاكين ، بينما عاد القرامطة منهزمين إلى الأحساء (١٩) وبذلك تخلص العزيز بالله من خطر القرامطة ، واتجه إلى فلسطين ، حيث ثار أحد زعماء العرب المسمنى المفرج بن دغفل بن الجراح الذى استولى على الرملة ، وأعلن العصيان على الفاطميين سنة ٣٧١ هـ ، حينما قلد العزيز الرملة

(١٦) المقريزى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٢٢ .

(١٧) ماجد : ظهر خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر ، ص ١٣٤ .

(١٨) المقريزى : اتعاظ الحتفا ، ج ١ ، ص ٢٢١ .

(١٩) سبط بن الجوزى : المصدر السابق ، ج ١١ ، ورقة ٩١ .

- ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٧ ، ج ٦٤ ، ٦٥ .

- المقريزى : اتعاظ الحتفا ، ج ١ ، ص ٢٤٢ - ٢٤٤ .

الفضل بن صالح (٢٠) ، ونشبت الحرب بين ابن الجراح والفاتميين، واستطاع بلتكين - قائد جيش مصر - أن ينزل هزيمة بابن الجراح الذي فر إلى إنطاكية سنة ٣٧٢ هـ ، مستجراً بالامبراطور البيزنطي الذي زحفت جيشه على الشام . ومن إنطاكية دخلت جيشه حمص، ثم زحف إلى طرابلس ، غير أنه عاد إلى حمص فنهبها وأحرقها في جمادى الأولى سنة ٣٧٣ هـ ، عندما امتنع أهاليها عن دفع الأموال له (٢١) .

على أن ابن الجراح عاد إلى الشام والتمس الأمان من العزيز بالله فغدا عنه ، وما لبثت جيشه العزيز أن دخلت قنسرين وحمص مرة ثانية ، وأقامت المذعورة له بها في ربيع الأول سنة ٣٧٣ هـ (٢٢) . وفي العام نفسه استطاع بكجور - إلى دمشق - أن يحاصر حلب ، غير أن الروم أسرعوا لنجدته سعد الدولة - طبقاً لسياستهم في الدفاع عن الحمدانيين - وحاولوا تطويق عسكر الفاطميين ، مما اضطر بكجور إلى فك حصاره لحلب ، بينما سار الروم ونزلت قواتهم حمص (٢٣) وبهذا وقف البيزنطيون حائلاً أمام الفاطميين ولم يمكنهم من افتتاح حلب ، وعاد بكجور إلى دمشق ليتولى إمارتها ، إلا أنه ما لبث أن عزل من الولاية لسوء سياساته ولغضب ابن كلس عليه لتنكيله باتباعه ، مما دفعه إلى أن يوكل إلى العزيز بزعمه . فرحل بكجور إلى الرقة (على نهر الفرات) وأرسل إلى سعد الدولة التماساً بأن يعيده إلى ولاية حمص ، فلم يستجب لطلبه (٢٤) .

(٢٠) المناوي : المرجع السابق ، ص ١٩٤ .

(٢١) المقريزى : المصدر السابق ، ص ٢٥١ ، ٢٥٦ - ٢٥٨ .

- المناوي : المرجع السابق ، ص ١٩٤ .

(٢٢) النميرى : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٤٧ ، ٤٨ .

(٢٣) المقريزى : أتعاظ الحنف ، ج ١ ، ص ٢٥٨ .

(٢٤) سرور : التنفيذ الظاهري في بلاد الشام والعراق ، ص ٤٩ .

وقد واصل العزيز بالله سياساته التي ترمي الى تدعيم مركز الفاطميين بالشام ، فجهن أسطولاً حربياً للسيطرة على سواحلها ، وليقف في وجه الروم ، الا أن حريقاً شعب في الأسطول الفاطمي قبل اقلاعه ، فدمر معظم قطعه ، وعطل سير الحملة . هذا بينما وصلت الى مصر في العام نفسه (٣٧٧ هـ / ٩٨٧ م) ، رسول الامبراطور باسيل الثاني تحمل هدية الخليفة العزيز وتطلب عقد صلح بين الدولتين فأجابهم العزيز ، واشترط عدة شروط التزموا بها كلها ، وهي :

- ١ - أن يطلق البيزنطيون سراح جميع الأسرى المسلمين .
- ٢ - أن يخطب للعزيز في جامع القدسية كل جمعة .
- ٣ - أن تعود العلاقات التجارية بين مصر وبيزنطة ، وأن يصدروا إلى مصر كل ما تحتاج إليه من بضائع الروم .
- ٤ - أن تكون مدة هذه الهدنة سبع سنين (٢٥) .

وظل بكجور أثناء اقامته يواصل جهوده للاستيلاء على حلب من الحمدانيين ، ونجح في استئصال مماليك سعد الدولة إليه ، كما أرسل إلى العزيز ليحصل على تأييد الفاطميين له ، وأطعمه في حلب ، وقال في رسالته عن حلب « أنها دهليز العراق ، ومتى أخذت كان ما بعلها أسهل منها » (٢٦) .

وطلب إمداده بالجنده والمؤن ، فأمر العزيز والييه بطرابلس بمساعدة بكجور في حصار حلب . ولما علم سعد الدولة بذلك ،

(٢٥) أبو المحسن : المصادر السابق ، ج ٤ ، من ١٥٢-١٥١.

(٢٦) ابن القلansي : المصادر السابق ، من ٣٤.

استنجد بالامبراطور باسيل الثاني الذى أمر واليه بانطاكية بمعاونه سعد الدولة والتصدى للفاطميين ونشبت اخرب بين الطرفين (٢٧) . فانهزم بکجور وسيق اسيرا الى سعد الدولة فضرب عنقه فى ثانى صفر سنة ٣٨١ هـ وصلبه ، ثم سار فاستولى على الرقة ونهبها (٢٨) . بعد أن أعطى الأمان لأولاد بکجور . بينما هرب على بن الحسين المغربي کاتب بکجور واجتمع بالعزيز بالله فى القاهرة واقنعه باهتممه الاستيلاء على حلب كما هون عليه فتحها (٢٩) . فارسل العزيز الى سعد الدولة يسأله أن يسير أولاد بکجور الى مصر وهدده بقوله له : « إنك متى خالفتنا فى ذلك واحتتججت فيه . كنا الخصم لك . وجهزنا العسكر اليك ، فأهان سعد الدولة رسول العزيز وقال له : « قل لصاحبك اننى سائر اليه » ، غير أن سعد الدولة توفى فى شهر رمضان سنة ٣٨١ هـ ، بعد أن عهد الى والاه أبي الفضائل وأوصى لمؤذن الخادم به (٣٠) . هنا فى الرقة الذى سار منجوتين قد نجى جيش الفاطميين صوب حلب ، فكتب أبو الفضائل الى باسيل امبراطور الروم – وكان اذ ذاك يقاتل البيغار – يحثه على تجريدته ، كما يعث إليه بالهدايا والتحف ، فأمر باسيل واليه على أنطاكية أن يمسارع إلى نجدة أبي الفضائل ، وعلى ضفاف نهر العاصي داهمت القوات الفاطمية الروم وأنزلت بهم هزيمة ساحقة سنة ٣٨١ هـ . فازداد الروم الى أنطاكية ، وواصل منجوتين هجومه فنهب أنطاكية وقرأها وأحرقها ، ثم عاد فحاصر حلب (٣١) . وبعد مدة وجيزة أرند منجوتين الى دمشق بحججه نفاذ المؤن (٣٢) .

(٢٧) سرور : التقوى الفاطميين فى بلاد الشام والعراق ، ص ٥٠ .

(٢٨) المقريزى : اعتراض الحنفاء ، ج ١ ، ص ٢٦٩ .

(٢٩) بيرس الدوادار : المصدر السابق ، ج ٦ ، ورقة ٢٧٨ .

(٣٠) ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٣٨ ، ٣٩ .

(٣١) ——— : نفس المصدر ، ص ٤١ .

(٣٢) بيرس الدوادار : المصدر السابق ، ج ٦ ، ورقة ٢٧٨ .

استمرت العلاقات متواترة بين الفاطميين والبيزنطيين في أواخر عهد العزيز بالله ، وحدثت تحرشات بين القوات المتحاربة في البحر سنة ٣٨٣ هـ / ٩٩٣ م وكانت الغاية فيها لقوات العزيز ، كما فشل الروم في محاولتهم مهاجمة الاسكندرية بحراً ولتأمين سواحل مصر أمر العزيز بتدعيم الاسطول الفاطمي ليستطيع رد الهجمات البحرية البيزنطية المتكررة (٣٣) .

وعاد منجوتين إلى حصار حلب بعد أن زوده العزيز بالله الفاطمي بكل ما يلزميه ، ولما ضيق الخناق على حلب ، استنجد أبو الفضائل بالإمبراطور بأسيل الثاني ، وأرسل إليه يوضح الأخطار التي قد يتعرض لها إذا نجح الفاطميين في الاستيلاء على حلب ، وقال له : « متى أخذت حلب ، أخذت أنطاكية ، ومتى أخذت أنطاكية أخذت القسطنطينية » (٣٤) .

وانزعج بأسيل الثاني لهجوم الفاطميين على حلب ، وما أن رأى أن الخطر يتهدد بلاده ، حتى سار بقواته - من بلاد البلغار - إلى الشام لنجدة المحسانيين تنفيذاً للمعاهدة التي سبق أن أبرمها معهم (٣٥) ، ولفك الحصار عن جبل الطوي كادت تقع في يد الفاطميين ، ولحماية أنطاكية التي تعرضت لغارات الفاطميين (٣٦) .

وقد اضطر منجوتين إلى ذلك الحصار عن حلب والعودة إلى دمشق عندما علم بزحف قوات بأسيل نحو الشام ، تلك القوات التي نزلت حلب ، وواصلت تقديمها بقيادة الإمبراطور ، واستولت

(٣٣) المقريزى : اتعاظ الحنف ، ج ١ ، ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ :

- أبو الحاسن : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٢١ .

(٣٤) بيبرس الدوادار : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢٧٩ .

(٣٥) — : نفس المصدر ، ونفس الصفحة .

(٣٦) المقريزى : اتعاظ الحنف ، ج ١ ، ص ٢٨٥ .

على حصن شيزر - على مقربة من حماة - تم حاصرت مدينة طرابلس، غير أنها فشلت في الاستيلاء عليها لاستبسال أهلها في الدفاع عنها (٣٧) . فانسجمت القوات البيزنطية إلى انتصاراتهن ثم انتقاماً لهم كر الامبراطور راجعاً إلى القسطنطينية سنة ٣٨٥ هـ / ٩٩٥ م (٣٨) . بعد أن بسط سلطان البيزنطيين على معظم ساحل الشام (٣٩) .

ولما تخرج موقف الفاطميين بالشام قرر العزيز باهته الخروج بنفسه على رأس قواته لاستعادة هيبة الفاطميين ، وأمر بإعداد حملة بحرية وأخرى بحرية لهذا الغرض ، فبذل عيسى بن نسطورس جهوداً كبيرة في إعداد الحملة غير أن حريقاً مروعًا شب في قطع الأسطول المصري قبل اقلاعه من ميناء المقس ففسر معظمه في ربيع الثاني سنة ٣٨٦ هـ (٤٠) . وثار عاملاً المسئولين بالقاهرة ومصر (القطاطط) لهذا الحادث الجلل ، واتهموا تجار الروم الواردین بالبضائع إلى مصر (٤١) ، كما اتهموا الإساري الروم بتدارير مؤامرة لآخرها (٤٢) ، وعممت القاهرة موجة من الانضطرابات العنيفة ، قتل فيها حوالي مائة من الروم ، ونهب العلامة الحنفي الذي يقيمون به ، وكان على مقربة

(٣٧) ابن القلansي : المصدر السابق ، ص ٤٢ ، ٤٤ .

(٣٨) بيبرس الدوالار : المصدر السابق ، ج ٦ ، ورقة ٢٧٩ .

- أبو الحسن : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٢١ .

(٣٩) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤١ .

(٤٠) المقريزى : اتحاظ الحلنا ، ج ١ ، ص ٢٩٠ .

(٤١) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٧٨ .

(٤٢) المقريزى : اتحاظ الحلنا ، ج ١ ، ص ٢٩٠ .

من دار الصناعة . الا أن الخليفة العزيز بالله أمر عيسى بن نسطور س باتخاذ اجراءات أمن صارمة للقضاء على الفتنة ، فضرب بيد من حديد على أيدي مثيري الشغب من العامة ، وقتل بعضهم ، كما سجن واعتقل الكثير منهم ^(٤٣) .

وعلى الرغم من غضب عامة المسلمين لهذا الحادث ، فإن اليهود ونصارى مصر لم يتعرضوا لأية أضرار ، بل ان العزيز بالله أمر برد ما أخذ من أموال الروم إليهم ، رغم اعتراضاتهم بارتكابهم لحادث حرق الأسطول ^(٤٤) وليس لنا من تعليق على ذلك الا أنه عهد العزيز بالله الذى تميز بالتسامح التام والمطلق . . .

وفي بداية عهد الحاكم بأمر الله لم يقم الفاطميون والبيزنطيون باتخاذ أية اجراءات استفزازية تسبّ إلى العلاقات فيما بينهما . وببدأ البيزنطيون هذه الفترة بشيء من التعقل ، إذ رفض الامبراطور باسيل الثاني مساعدة منجوتكين - الذي أعلن عصيانه على الفاطميين - فلقي منجوتكين هزيمة ساحقة قرب عسقلان في جمادى الأولى سنة ٣٨٧هـ، واضطر إلى طلب الأمان ، ودخل مصر وخليع عليه ^(٤٥) .

وبعد فترة من الاضطرابات بين المشارقة والمغاربة تولى برجوان الخادم الوساطة ، وعهد إلى كاتبه فهد بن إبراهيم النصراوي بتصريف أهور الدولة والنيابة عنه ، فأصبح المنفذ الحقيقي لسياسة الدولة ^(٤٦) .

^(٤٣) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٧٩

^(٤٤) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٧٩ .

- المريزى : اعتقاد الخطأ ، ج ١ ، ص ٢٩٠ .

^(٤٥) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٨١-١٨٠ .

^(٤٦) انظر الباب الأول ، ص

وخلال تلك الفترة من الاضطرابات في مصر ، حدث أيضاً أن نار أهل دمشق على أبي تميم سليمان بن فلاح والي دمشق وطربوه منها ، بينما قام أهالي مدينة صور سنة ٣٨٧ - ٩٩٧ هـ - ٩٩٨ م بثورة على الإدارة الفاطمية ، وقتلوا جماعة من المغاربة ، والتفوا حول رجل ملاوح يعرف بعلاقة ، أعلن الثورة وتبرد على الفاطميين ، كما أعلن استقلال صور ، وضرب النقود باسمه ، ونقش عليها غبارة (عز بعد فاقه للأمير علاقة) (٤٧) ، وأرسل إلى الامبراطور بيسيل الثاني يطلب مساعدته ، وبيلى استعداده لتسليم صور إلى الروم ، ورأى الامبراطور بيسيل أن يتغير هذه الفرصة للفضاء على نفوذ الفاطميين بالشام ، فاستجواب طلب علاقة وأرسل أسطولاً حربياً بيزنطياً إلى صور لتدعم ثورة أهلها ضد الفاطميين ولا استغلال أمن الثورة أرسل بريشان أسطولاً حربياً وجيشاً كبيراً لأخذ المورة في كل من دمشق وصور ، وتدعم النفوذ الفاطمي بها (٤٨) . وأستطاع الأسطول الفاطمي أن يلحق بالاستول البيزنطي هزيمة ساحقة ، وأن يأسر عدداً من سنه ، كما استطاعت القوات الفاطمية أن تدخل صور ، وتحاصر علاقة في أبراجها ، وتشد الحصار عليه ، وتضطره إلى التسلیم وطلب الأمان (٤٩) .

وتمكن سقطت مدينة صور في يد القوات الفاطمية ، وأخذت علاقة أسيراً إلى القاهرة في جمادى الآخر سنة ٣٨٨ هـ ، ومعه

(٤٧) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٨١ .

- ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٥٠ .

(٤٨) _____ : المصدر السابق ، ص ٥٠ .

(٤٩) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٨١ .

مجموعة من الأسرى ، حيث شهر به ، وصلب ، تم قتيل هو وأصحابه (٥٠) .

وإذا كانت القوات البيزنطية قد فشلت في مساندة ثورة علاقة ، فإن الفاطميين قد أحكموا سيطرتهم على صور ، ووصلت جيوشهم زحفها نحو دمشق فدخلتها ، ومنها اتجهت إلى أقامية ، حيث أنزلت بالقوات البيزنطية هزيمة ساحقة في رجب سنة ٣٨٨ هـ ، وتعقبت فلول البيزنطيين حتى أبواب أنطاكية ، وحاصرتها ، ثم ما لبثت القوات الفاطمية أن عادت إلى دمشق (٥١) .

وعلى الرغم من انتصارات قوات الحاكم بأمر الله على القوات البيزنطية بالشام ، إلا أن برجوان رأى أن يهادن الروم لكنه يتفرغ لمراجعة الأحداث والاضطرابات الداخلية في مصر ، وليوفر الظروف لاستقرار الأمور في بلاد الشام . لهذا أرسى برجوان إلى الإمبراطور ياسيل الثاني يعرض عليه عقد صلح واقرار هدنة بين البلدين ، كما أرسل إلى الإمبراطور هدايا سليك فيها سبيل التحالف والملاطفة (٥٢) ، وقد رحب الإمبراطور بهذه الدعوة ، وأنفذ رسولي إلى الحاكم لعقد الهدنة والاتفاق على شروط الصلح (٥٣) .

وبينما كانت المفاوضات على وشك أن تبدأ في القاهرة رأى الإمبراطور أن يرد على هزيمة قواته في أقامية سنة ٣٨٨ هـ / ٩٩٨ م ، فخرج بنفسه على رأس قواته غازياً إلى بلاد الشام في شوال من السنة

(٥٠) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٨٢

(٥١) ابن القلنسى : المصدر السابق ، ص ٥٠

(٥٢) ماجد : الحاكم بأمر الله ، ص ١٣٣

(٥٣) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٨٢

النالية ، لوقف زحف القوات الفاطمية ، ولإحداث ضغط عسكري وسياسي لتحسين موقف وفد بلاده في المفاوضات ، فاستولت قوات الامبراطور على جسر الجديد ، وشizer وحسن أبي قبيس ومصياف (٥٤) ، ثم دخل حمص ، وسار بعدها إلى بعلبك مما دفع جيش ابن الصمامة أمام ضغط القوات البيزنطية إلى أن يستتجد برجوان في القاهرة ويولاة الشام ، فأرسلت إليه قوات ضخمة انضممت إلى قواته بدمشق (٥٥) .

وكادت مفاوضات القاهرة تنهار ويفشل مشروع الصابع لولا الفشل الذي منيت به قوات الامبراطور في هجومها الجديد على الشام وبخاصة أمام طرابلس ، واضطراره للانسحاب في المحرم سنة ٣٩٠ هـ (٥٦) ، فارتدى الامبراطور إلى أنطاكية عن طريق اللاذقية (٥٧) ، ومنها توجه بجيشه نحو أرمينية (٥٨) ، ليواجه

(٥٤) جسر الجديد : قرب دمشق ، شيزير : قلعة قرب المرة بينها وبين حماة حسين أبي قبيس : حصن مقابل لشيزير ، مصياف : حصن مشهور للسامعينية قرب طرابلس . (المناوي ، المصدر السابق ، ص ٢٢١ حاشية ١) .

(٥٥) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٨٣ .

- المناوي : المرجع السابق ، ص ٢٢١ .

(٥٦) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٨٣ .

- سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٢ .

- المناوي : المرجع السابق ، ص ٢٢١ .

(٥٧) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

(٥٨) المريزى : اعتقاد الحنف ، ج ٢ ، ص ٢٢ .

الخطر البلغاري بينما آثر اقامة سلام على حسود بلاده الجنوبيه مع الفاطميين (٥٩) .

وبانسحاب بأسيل الثاني من الشام تهيا الجو مرة أخرى لاستئناف مفاوضات الصلح بين الطرفين ، ففي جماد الآخرة سنة ٣٩١ هـ / مارس ١٠٠٢ م استقبلت القاهرة السفير البيزنطي - المكلف بالتفاوضات مع الفاطميين - أحسن استقبال وسط مراسم احتفال رائعة يصفها المقريزى بقوله : « فتحشت له العساكر من سائر الأعمال ، ووقفوا صفين وإلحاكم واقف ليراهם ، وسار الرسول بين العساكر إلى باب الفتوح ، ونزل ومشى إلى القصر يقبل الأرض في طول المسافة حتى وصل إلى حضرة الحكم ، وقد فرش إيوان القصر وعلق فيه تعاليق غريبة ، وعلقت بمصدر الإيوان المسجدة ، وهي ورقة مطعمة بفخار الجوهر والتفيس من كل أصنافه ، فأضاء بها ما حوله ، ووسمت عليها الشمس فلم تطق الأبصار تأملها كلاما ، وقبل الأرض ، ودفع الكتب وعرض الهدية (٦٠) .

وانصب الحكم بأمر الله أريسيطيس بطريرك بيت المقدس - وهو حال سنت الملك أخت الحكم من أم أخرى مسيحية - ليكون مندويا للحكومة الفاطمية في المفاوضات ، وأعطى البطريرك صلاحيات كاملة كمفاوض مصرى ، وقيل للسفير البيزنطي : « ما يقرره هذا البطريرك فإن مولانا مضمض ومرتضى به » (٦١) .

ثم جمع بينهما وخلع على كل واحد منهما خلعا نفيسة ، وتوجه

(٥٩) عنان : الحكم بأمر الله ، ص ١٧٨ .

(٦٠) المقريزى : اتعاظ الحنف ، ج ٢ ، ص ٣٩ ، ٤٠ .

(٦١) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

السفيران البيزنطي والقاطماني إلى القدسية لاتمام المرحلة الأخيرة من المفاوضات « ولتقرير الهدنة وعقد المسالمة » ، وللتصديق على المعاهدة بعد عرضها على الامبراطور ، وقام أريسطوبيس بهذه المهمة ، وقد تم عقد معااهدة سلم وصداقة بين الدولتين في سنة ٣٩١ هـ / ١٠٠١ م ، وكان من شروط الصلح أن يتمتع الروم في جميع أنحاء الدولة القاطمية بالحرية الدينية ، ويسمح لهم بتجديده كنائسهم^(٦٢) .

وهكذا نجح أريسطوبيس بطريرك بيت المقدس في اقرار الهدنة بين مصر وبيزنطة ، غير أنه توفي بعد أن أمضى أربع سنوات في العاصمة البيزنطية^(٦٣) .

لكن مجموعة المراسيم والسجلات الدينية والاجتماعية التي أصدرها الحاكم بأمر الله - والتي سبق الاشارة إليها - والتي ضيقت الخناق على أهل الذمة ومنهم المسيحيون ، حدث من العروبة الدينية لأهل السنة بوجه عام والزوم المكانية بوجه خاص ، وكذلك سياسته أزاء الكنائس والأديرة وهدم الآلاف منها ، وخاصة كنيسة القيامة بالقدس ، أدت إلى توثر العلاقات الدبلوماسية بين الدولتين ، والقطع الامبراطوري بأسيل الثاني لعلاقته بالدولة القاطمية حينما وصلته أنباء هذه السياسة التي انتهجها الحاكم أزاء النصارى . وعلى الرغم من ذلك فقد ظل الحاكم متمسكاً بالهدنة مع الامبراطور .

^(٦٢) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

- ماجد : الحاكم بأمر الله ، ص ١٢٣ .

- الخروطلي : مصر العربية ، ص ٢٠٤ .

^(٦٣) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

وأرسل إليه في سنة ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م هدية قيمتها سبعة آلاف دينار (٦٤) . ثم ما لبث أن أرسل الحاكم بأمر الله سفارته إلى القسطنطينية في أوائل العام التالي برئاسة عبد الغنى بن سعيد ، ومعه هدية فخمة إلى الامبراطور . وبعد نحو من عام وفي جماد الآخرة سنة ٤٠٥ هـ / أكتوبر سنة ١٠١٤ م عاد السفير الفاطمى ومعه سفير بيزنطى بهدية من الامبراطور كدليل على تدعيم علاقه حسن الجوار والصداقة بين الدولتين وقد استقبل السفير البيزنطى فى القاهرة استقبلا رائعاً وسط مظاهر الفخامة والتكريم (٦٥) .

على أن الهداية بين الدولتين ما لبثت أن تعرضت مرة أخرى لخطر نقضها من جانب البيزنطيين ، حينما بلغ الامبراطور بأسبيل الثاني أن ملك الأنجلوزى - (لعل أصلهم من المغارب أو البلغار أو الروس) - أرسل إلى الحاكم بأمر الله يعرض عليه التحالف معه لشن حرب مزدوجة ضد الدولة البيزنطية وساعات العلاقات بين الدولتين ، للدرجة أن الامبراطور قطع العلاقة التجارية مع مصر والشام ، واستعد لهاجمة الفاطميين ، لو لا اختفاء المحاكم بأمر الله في أواخر شوال سنة ٤١١ هـ / فبراير سنة ١٠٢١ م ، واعتلاء ابنه الظاهر لاغزار دين الله عرش الخلافة ، واسراع ست الملك إلى ارسال سفارته إلى الامبراطور ، اختارت لرئاستها بطريق نقوفور - وهو من الملکائين - بطريق بيت المقدس ، للعمل على تخفيف حدة التوتر بين الدولتين ، وقطعيد أواصر الصداقة بين مصر وبيزنطة (٦٦) ،

(٦٤) المقريزى : اقطاع الحنف ، ج ٢ ، ص ٩٩ .

(٦٥) المقريزى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٧ ، ١٠٨ .

(٦٦) ماجد : الحاكم بأمر الله ، ص ١٢٣ ، ١٣٤ .

- ——— : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر ، ص ١٤٢ .

- سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٣ .

ولاطلاق الامبراطور على العديد من الاجراءات التي اتخذتها الدولة الفاطمية لرفع الحيف عن النصارى ، واطلاق الحرية الدينية لأهل الذمة ، والسماح للنصارى باعادة بناء وتتجديده الكنائس وسائر البيع قى مصر والشام ، مع تجديد كنيسة القيامة بالقدس ، ورد ما أخذ من أموال المسيحيين وأوقاف الكنائس ، كما كلفت ست الملك البطريوك بأن يطلب من الامبراطور عودة العلاقات بين الدولتين ، واستئناف العلاقات التجارية بينهما ، وبلغه أن المسيحيين من رعايا الدولة الفاطمية قد شملتهم الدولة برعايتها ويتمنون بمحابيتها ، وأن مصر لديها الرغبة فى اقامة علاقات حسن جوار وصداقة مع بيزنطة (٦٧) .

وقابل البطريوك نقورس الامبراطور بالقدسية ، وكادت هذه السفارة تؤت ثمارها بسبب التفاهم الذى تم بين نقورس وأسطايوس بطريق القدسية الذى أشاد بزميله سفير الفاطميين . وبينما كان نقورس يجرى المفاوضات مع الحكومة البيزنطية فى القدسية توفيت ست الملك ، وأخظر البطريوك نقورس بذلك . فتوقفت المفاوضات ، لأن الأهمية الفاطمية كانت « أولى من يهمها الأمر ، وأنها كانت التى تنتظر الجواب » (٦٨) ، وأنها قبل أى شىء كانت أول من شجع على القيام بهذه السفارة بحكم مسئولييتها عن ادارة الدولة فى تلك الفترة . وعاد نقورس الى مصر دون أن يبرم عقداً أو يوقع على اتفاق (٦٩) .

(٦٧) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٤٣ .

(٦٨) الانطاكي : نفس المصدر ونفس الصفحة .

(٦٩) ————— : نفس المصدر ونفس الصفحة .

وعندما تولى أبو القاسم البرجرانى الوزارة فى مصر سنة ٤١٨ هـ / ١٠٢٧ م ، واصل سياسة مهادنة الروم وتحسين العلاقات معهم حتى يتمكن من اعادة النظام والقضاء على الاضطرابات فى الشام (٧٠) ، ويدرك المقرىزى أنه قىد تم عقد هدنة بين الخليفة الظاهر والإمبراطور قسطنطين الثامن فى هذا العام وبموجبها تم ما يلى :

١ - تفردت الخطبة للخليفة الظاهر ببلاد الروم ، وفتحت جامع القسطنطينية للمسلمين هناك ، وزود الجامع بالحصر والقناديل ، كما عين مؤذن مقيم به .

٢ - أذن الخليفة الظاهر فى فتح كنيسة القيامة ببيت المقدس ، وسمح للملوك النصارى بارسال الأموال وما يلزم من آلات وأثاث لاغادة كنيسة القيامة الى ما كانت عليه من فخامة وأبهة (٧١) .

وكان لهذه الهدنة أثرها الطيب على أهل الذمة فى مصر وجنبيع أقاليم الدولة الفاطمية ، إذ أن كثيراً من النصارى الذين كانوا قد تظاهروا باعتناق الإسلام أيام الخليفة الحاكم بأمر الله قد ارتدوا إلى دين النصرانية (٧٢) ، انطلاقاً من مبدأ حرية العقائد الدينية لأهل الذمة وفي ظل علاقة طيبة بين الروم والقواطم .

لكن مدينة حلب ظلت دائماً مصدر الصراع بين الدولتين . فقد حاول البيزنطيون الاستيلاء عليها سنة ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م ، وفشلوا

(٧٠) المتأوى : المرجع السابق ، ص ٢٢٢ .

(٧١) المقرىزى : اتعاظ الحقائق ، ج ٢ ، ص ١٧٦ .

(٧٢) ——— : نفس المصدر ، ونفس الصفحة .

مجاولتهم هذه لتمرد بعض قادة الجيش البيزنطي (٧٢) وفي سنة ٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م استطاع جيش بيزنطى الاستيلاء على أقامية من أملاك الفاطميين (٧٤)، غير أن أنوشتكين الترمي الذى اشتهر باللبيزبرى قائد الجنيد الفاطمى استطاع استرجاع معظم البلاد الشامية الا مدينة حلب التي طلب حاكمها نصر بن صالح بن مرداش فى جمادى الأولى سنة ٤٢٢ هـ، حماية الامبراطور البيزنطى رومانوس الثالث ، على أن يدفع اليه خمسمائة ألف درهم سنوياً (٧٥) .

وعلى الرغم من استمرار حالة الحرب بين الدولتين وتوسيع العلاقات بينهما ، فقد جرت مراسلات بين قائد الجيش الفاطمى فى دمشق ، وبين حاكم أنطاكية لعقد هدنة بين مصر وبيزنطة . وتأدت المفاوضات التمهيدية توقف بينهما ، بسبب استيلاء وإلى انطاكية على حصن ينكسراليل فى شهر رجب سنة ٤٢٣ هـ . وتعقد الموقف ، الا أن المفاوضات استمرت بين الطرفين واشترط الامبراطور البيزنطى - كما يذكر الانطاكي - ثلاثة شروط تكون أساساً لآية هدنة تعدد بين الدولتين وهى :

أولاً : «أن يعم الملك (الامبراطور رومانوس الثالث) كنيسة القيامة ببيت المقدس ، ويحيطها من ماله ، ويصير بطريركًا على بيت المقدس وأن تعم النصارى جميع الكنائس الخراب في بلاد الظاهر» .

ثانياً : «أن لا يتعرض الظاهر لحلب ، ولا يروم هو ولا أحد من ذوى

(٧٣) المناوى : المرجع السابق ، من ٢٢٢ .

(٧٤) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، من ٢٤٥ .

(٧٥) المقريزى : اعتقاد الصنفا ، ج ٢ ، من ١٨٠ .

طاعته لقتالها ولا التعرض لها بمكرهه ، اذ هي بلد قد تقرر عليه اتاوه ويحمل اليه في كل سنة مال الهدنة » .

ثالثاً : « أن لا يساعد صاحب صقلية على محاربته للروم ، ولا لغيره من جميع من يرور الفساد في شيء من أعمالهم ، ولا ينجله ، ولا يقويه ، وهو أيضاً يلزم له مثل ذلك الشرط » (٧٦) .

وبهذا تكون هناك أساس قوية لقيام واستمرار علاقة صداقة وحسن جوار بين مصر وبيزنطية ، ولا تتعرض مستقبلاً لما يفتش عنها (٧٧) .

وبجانب هذه الشروط السابقة تناولت المفاوضات عدة نقاط على جانب كبير من الأهمية ومنها :

١ - عرض الامبراطور رومانوس الثالث على الخليفة الظاهر ، أن يطلق الامبراطور سراح الأسرى من بلاد الإسلام الذين في قبضة الروم ، في مقابل أن يسمح له باعاصدة بناء كنيسة القيامة بالقدس .

٢ - التمس الامبراطور أن يصدر الخليفة الظاهر عفواً شاملًا عن حسان بن الجراح - الذي كان قد خرج على طاعة الفاطميين ولجأ إلى الروم - ، وأن يسمح له بالعودة إلى بلده ورد اقطاعاته إليه ، شريطة أن يتزلم بحسن الطاعة والسياسة مع الفاطميين والا تعرض ابن الجراح لما يكره .

(٧٦) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٧٠

(٧٧) ————— : نفس المصدر ، ص ٢٧١

٣ - كما عرض رومانوس الثالث ايضا على الظاهر لاعزاز دين الله
ان يدفع اليه حصن شيزر اذ هو من بين عمل المسلمين ، ويعطيه
الظاهر لاعزاز دين الله حصن اقامية عوضا عنه . اذ هو فريب
من بلاد الروم ومجاور لمحصونهم ، ان رغب في ذلك (٧٨) .

فقبل الخليفة الظاهر ما شرطه رومانوس الثالث من بناء
كنيسة القيامة على نفقته ، ومن تعين بطريرك بمعرفة الامبراطور
لبيت المقدس ، ومن تجديد النصارى بقية الكثائس سوى ما كان
منها قد عمل مسجدا ، ويكون اطلاق الأسرى المسلمين في بلاد الروم
عوضا عن ذلك . كما قبل الظاهر ما اشترطه الامبراطور بعدم تقديم
المساعدة والاعانة لاي عدو من أعداء الدولة البيزنطية وبخاصة
চقليلية ، مع المعاملة بالمثل ، لكنه رفض الشرط الخاص بحلب .
واحتاج عليه بأنها تغير جليل من ثغور المسلمين . لا ينبغي أن يكون
في حوز الروم ، والتمس أن يحمل ذكرها بالجملة فيما تعقد عليه
الهدنة (٧٩) .

ولم ير قبول حسان بن الجراح والعفو عنه ، ولا رغب فيأخذ
شيزر والتعويض عنها بأقامية (٨٠) .

وكانت حلب هي الصخرة التي تحطمته عليها المفاوضات التي
جرت بين الدولتين اذ « لم يذعن رومانوس الملك الى الرجوع عما
اشترطه في معنى حلب ، وجزم أنه لا يعقد الهدنة الا عليه ، وترددت

(٧٨) الانطاكي : المصدر السابق ، من ٢٧١ .

(٧٩) ——— : المصدر السابق ، من ٢٧١ .

(٨٠) ——— : نفس المصدر ونفس الصفحة .

المكاسب بين الجهتين في هذا المعنى في أيامه « (٨١) ». وتمسك كل طرف بموقفه من حلب . مما أدى إلى أن ينصح رومانوس الثالث عقد معاهدة سلام مع الخليفة الظاهر (٨٢) ، إذ يذكر الانطاكي ان أمر هذه المفاوضات لم يستقر الا بعد تلات سنين ونصف وفي عهد الامبراطور ميخائيل الرابع (٨٣) .

ففي سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥ عقدت الهدنة بين الخليفة الظاهر وبين الامبراطور ميخائيل الرابع لمدة عشر سنين متالية (٨٤) . ويظهر أن الهدف من هذه الهدنة هو الا يتدخل البيزنطيون في سبيل استيلاء الفاطميين على حلب ، وألا يثير الروم القلاقل ضد الحكم الفاطمي في بلاد الشام ، أو يحرضوا أمراء الشام على الفاطميين هناك . وقد تحقق هذا الهدف ، عندما رفض الامبراطور البيزنطي مساعدة نصر بن صالح بن مرداس في سنة ٤٢٨ هـ / ١٠٣٦ م في نزاعه مع الفاطميين ، وطلب منه الدخول في طاعة المستنصر ، فاضطر تصر إلى استرضاء الفاطميين وكسب ودهم (٨٥) ، ولما وقع النزاع بين المديري في دمشق وبين نصر بن صالح بن مرداس مرة أخرى

(٨١) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٧١ .

(٨٢) ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر ، ص ١٤٧ .

(٨٣) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٧١ .

(٨٤) المقريزي : أتعاظ الحنفاء ، ج ٢ ، ص ١٨٢ ، وفي هذا يتلقى المقريزي مع الانطاكي بالنسبة للمفاوضات التي سبق الاشارة إليها ، والتي لم يستقر الإمبراطور إلا في عهد الامبراطور ميخائيل الرابع (انظر الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٧١) .

(٨٥) المقريзи : أتعاظ الحنفاء ، ج ٢ ، ص ١٨٦ .

فى سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م وحمل الأول رأس الثاني إلى دمشق ، ودخل حلب ، لم يتدخل الروم (٨٦) . ولهذا فإن الجرجائى وزير المستنصر بالله قابل ذلك بمحاولة استرضاء الروم ، وتحسين العلاقات معهم ، وعقد هدنة أفى تلك السنة بين الخليفة المستنصر والأمبراطور ميخائيل الرابع انعكس أثرها على أهل الهمة فى أنحاء الدولة الفاطمية اذ اتفق على أن يسمح للأمبراطور البيزنطى باتمام اصلاح وتعمير كنيسة القيامة بالقدس مقابل أن يطلق الأمبراطور سراح خمسة آلاف من أسرى المسلمين ، فاخلى الأمبراطور سراح الأسرى ، وأرسل إلى بيت المقدس من عمر كنيسة القيامة ، وأغدق كثيراً من الأموال في إعادة تجديدها وتعميرها (٨٧) ، وهكذا شهدت الفترة في أوائل عهد المستنصر بالله تحسيناً في العلاقات الفاطمية البيزنطية (٨٨) .

لكن البيزنطيون تقضوا الهدنة في سنة ٤٣٢ هـ / ١٠٤٠ م وشنّت قواتهم الغارات على حلب وأقامية . وأوقعوا هزيمة بالقوات الفاطمية (٨٩) . غير أن المزيرى ما لبث أن الحق بالبيزنطيين الهزيمة فيما بين حماة وأقامية وأسر كثيراً من قواتهم ، وبينهم ابن عم الأمبراطور ، فاضطر الروم إلى الالتحاق في طلب الهدنة ، وافتداء ابن عم الأمبراطور مقابل مبلغ كبير من المال وعدد لا يأس به من أسرى

(٨٦) المقريزى : انتظار الحنف ، ج ٢ ، ص ١٨٧ .

(٨٧) العينى : المصدر السابق ، ج ١٩ ، ورقة ٤٤٨ .

(٨٨) سرور : مصر في عصر الدولة الفاطمية ، من ١٦٩ .

— : سياسة الفاطميين الخارجية ، من ٢٤٥ .

(٨٩) المقريزى : انتظار الحنف ، ج ٢ ، من ١٨٨ .

المساندين وبعدها آثر الروم الهبوء مع الفاطميين (٩٠) . وبذل الامبراطور قسطنطين التاسع جهده في الحفاظ على استمرار العلاقات الودية بينه وبين القاهرة ، فأرسل في سنة ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م هدية ثمينة لل الخليفة المستنصر ، قيمتها ثلاثون قنطارا من الذهب (٩١) ، قيمة كل قنطار منها عشرة آلاف دينار عربية (٩٢) ، وكان من جملتها بغل وحصان من أحسن المسواب وأعلاها قيمة ، كل منها عليه ثوب دبياج رومي منقوش ثقيل ، وخمسون بغالا عليها مائة صندوق مصفحة بالفضة ، فيها آنية الذهب والفضة ، منها مائة قطعة بمائة - أي موهنة باليمناء - ، وفيها من السبياج والستنس والبرسيم والعمايم المعلمة ما يقدر على مثله ، فعرض عنها بمثلها ، واشتملت هدية مصر إلى الامبراطور من الجوهر والمسك والعود والمطراز - عمل تنيس ودمياط - ما هو أكثر قيمة مما بعثه (٩٣) .

وتدعيمها لاستمرار العلاقات الودية بين الدولتين ، تجددت الهدنة بين مصر وبيزنطة سنة ٤٣٩ هـ / ١٠٤٧ م ، وتبادل الخليفة الفاطمي الهدايا مع الامبراطور البيزنطي حسبما جرت به العادة (٩٤) ، والتزم الامبراطور بشروط ما عقد بين الدولتين من معاهدات سابقة ، ولتحيلولة دون تعكير صفو العلاقات السياسية بين الدولتين ،

(٩٠) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٢٩ .

- المنارى : المرجع السابق ، ص ٢٢٢ .

(٩١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ١٩٤ .

(٩٢) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٥ .

(٩٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ١٩٤ .

(٩٤) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٤٦ .

وتعينا مزيداً من العلاقات الودية بينهما ، فان الامبراطور البيزنطي سلم الى المستنصر بالله رسول المعز بن باديس - الذي خلع طاعة الفاطميين سنة ٤٤٣ هـ / ١٠٥١ مـ ، وكان في طريق عودته من بغداد مارا ببلاد الروم ، بينما أرسل المستنصر بالله هداياً عظيمة الى الامبراطور قسطنطين الناتس ، ورد الامبراطور بدوره على الخليفة المستنصر في عهده وزارة اليازوري سنة ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ مـ مع رسول ورد من البحر ٩٥ .

وقد انعكست طبيعة العلاقات الطيبة بين الفاطميين والروم على المسيحيين في أنحاء الدولة الفاطمية ، فيه ذكر القاضي الرشيد بن الزبير في « كتاب النخائر والتاحف » أن المستنصر بالله الفاطمي سير مع السفير البيزنطي سفناً من أسطول الشام لراقبة وحراسة السفير من تبليس إلى يافا ، حتى يستطيع أن يصل إلى كنيسة بيت المقدس ، ويوصل هدية أتمنها معه الامبراطور إلى كنيسة القيامة ، « وكان في جملتها بدنة من الذهب مرصعة بأنواع الجواهر النفيس الفاخر ، وصليبان من الذهب طول كل واحدة منها ثلاثة أذرع ونصف في عرض مثلها ، وزنهما قنطرة مكللان بأنواع الياقوت والجواهر ، وصوانى كثيرة من الذهب مكللة أيضاً بغرائب الجوهر ، وكأسان من الذهب ، على كل منها بعشرين رطلاً خمراً بالبغدادي . وثيريات عدة من الذهب بسلامتها من الذهب ، في أوساطها فراغ من البلور ، مكللة بالجواهر ، وستور طوال من الدبياج الطيم المغرق بالذهب ، المكلل بالجواهر ، وأشباه ذلك من الآلات في الكنائس » ٩٦ .

(٩٥) المقريزى : اتعاظ الحنف ، ج ٢ ، من ٢١٤ .

(٩٦) الرشيد بن الزبير : المصدر السابق ، من ٧٧ .

وانتهز المستنصر بالله الفاطمي قرصه صفاء العلاقات بين الدولتين للعمل على انعاش الوضع الاقتصادي في مصر ، فأرسل على أثر الماجاعة التي حلّت بالبلاد ابتداء من عام ٢٤٥ هـ / ١٠٥٣ م إلى أمير اطّور قسطنطين التاسع بطلب منه إمداد مصر بالفلال (٩٧) ، ولم يتردد الامير اطّور قسطنطين التاسع في الموافقة على ارسال ما طلبه المستنصر بالله من القمح ، غير أنه توفي فجأة في سنة ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م ، واحتضرت الاميراطورية تيودورا التي تولّت العرش من بعده عقدت معااهدة دفاع مشتركة ، تنتهي فيها مصر بمساعدة القسطنطينية ضد أي اعتداء مقابل حصول مصر على الفلال من بيزنطة . ورفض اليازوري الوزير الفاطمي حينئذ مطلب الاميراطورة ، فاضطررت بدورها إلى إلغاء صفقة القمح مع مصر ، ومنعت القضايعى رسول الفاطميين بالقسطنطينية من الخطبة باسم الخليفة الفاطمي في جامع القسطنطينية . بينما صرحت لرسول العباسيين الذي كان موجوداً بالعاصمة البيزنطية بالخطبة للقائم الخليفة العباسي . ورد المستنصر بالله على ذلك بأن أرسيل إلى كنيسة القيامة بالقدس من أخذ ما فيها من تحف وذخائر وأثاث ، وأخرج البطريرك منها إلى دار مفردة ، وأغلق أبواب الكنائس في مصر والشام ، وطالب الرهبان بالجزية لأربع سنين ، كما زاد على النصارى في الجزية (٩٨) ، ومنع دخول الحجاج المسيحيين إلى بيت المقدس (٩٩) ، وأدت كل هذه

(٩٧) العيني : المصدر السابق ، ج ٢٠ ، ورقة ٩٧ ، ٩٨ .

(٩٨) ابن ميس : المصدر السابق ، ج ٢ ، من ٦ - ٧ .

- المقريزى : اتعاظ الجنفا ، ج ٢ ، من ٢٣٠ - ٢٣١ .

- ——— : الخطط ، ج ١ ، من ٢٣٤ - ٢٣٥ .

(٩٩) أسد رستم : المرجع السابق ، ج ٢ ، من ٧٨ - ٧٩ .

الإجراءات إلى تقييد الحرية الدينية للمسيحيين في مصر والشام وإلى توثر العلاقات بين الدولتين .

وهكذا نقضت الهدنة ، وناتم الموقف بين مصر وبيزنطة ، وبخاصة عندما علم المستنصر بالله باستعداد البيزنطيين لقتاله ، فأمر قائده مكين العولة المحسن بن علي بن ملهم الكتامي بالسير إلى اللاذقية فحاصرها . وجرت محاولات من جانب البيزنطيين لتفادي الحرب ، لكنها باءت بالفشل أمام قوة حصار الفاطميين للاذقية التي ما لبثت أن وقعت في أيديهم ، كما عانت القوات الفاطمية في أعمال أنطاكية ، وواصلت تعزيزها في بلاد الروم . وبينما كانت الحرب مستمرة بين البيزنطيين ، كانت الرسل والمكاتب تتردد بين الطرفين حتى تم الاتفاق على وقف القتال بينهما ، على أن يدفع مبلغ نيف وأثلاثين ألف دينار إلى مصر كجزية . ولكن عندما علم الروم بمقتل اليازوري سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م ردوا العجزة إلى القسطنطينية قبل وصولها إلى مصر ، بل زينت بلاد الروم ابتهاجاً بموته ، كما تمكّن الروم من هزيمة ابن ملهم وأسره مع بعض قواته (١٠٠) .

وبموت اليازوري أخذت علاقة مصر بالشام ومن ثم علاقتها بالروم تتضاعف نتيجة لزحف السلاجقة على معظم البلاد الشامية ، وحلوا لهم محل الفاطميين (١٠١) . وكان السلاجقة في ذلك الوقت أشد خطاً على البيزنطيين من الفاطميين الذين أصبحوا يواجهون في مصر العديد من المشاكل الداخلية والخارجية (١٠٢) .

(١٠١) المقريزى : اعتقاد الحنفى ، ج ٢ ، من ٢٢٩ .

(١٠٢) سور : سياسة الفاطميين الخارجية ، من ٢٤٦ .

الفاطميون وببلاد النوبة

من الأمور الجديرة بالبحث موقف الفاطميين منذ عهد الخليفة العز من بلاد النوبة ، فعندما غزا جوهر الصقلي مصر سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م كانت بلاد النوبة تتمتع بالاستقلال التام في عهد ملوكها المسيحي « جورج الثاني » ، وكانت المسيحية منتشرة في تلك البلاد انتشاراً كبيراً (١٠٣) .

وبعد مجيء الفاطميين إلى مصر واستقرارهم بها لم يكن ملك النوبة قد اعترف بسلطان الفاطميين ، لذا رأى جوهر الصقلي أن يمد فتوحاته صوب الجنوب لبسط النفوذ الفاطمي في النوبة ، ولنشر الإسلام بها على المذهب الشيعي (١٠٤) .

وقد بادر جوهر الصقلي بارسال وفد برئاسة عبد الله ابن أحمد ابن سليم الأسواني – وهو من أهالي أسوان – إلى جورج الثاني (جرجس) ملك النوبة ، محملاً برسالة رقيقة العبارة ، يدعوه

(١٠٣) حسن إبراهيم وطه شرف : العز لدين الله ، ص ١٦٢ .

(١٠٤) مصطفى مسعد : الإسلام والنوبة في العصور الوسطى ، ص ١٣٦ .

فيها الى اعتناق الاسلام ودفع الجزية السنوية المعروفة
بالبقط (١٠٥) .

وفي هذه الرسالة الى ملك النوبة اوضح جوهر قوة الجيوش
الفاطمية المرابطة في جنوب مصر ، وأنه يستطيع أن يعيش في سلام
وحسن جوار مع الفاطميين اذا قام بتنفيذ معاهدة البقط (١٠٦) .
وقد احتفى ملك النوبة بالوفد الفاطمي ، كما قبل الوفد بالترحاب
في كل مكان زاره بملكة النوبة (١٠٧) وقبل ملكتها دفع الجزية الى
الفاطميين ، ولكنه اعتذر عن الدخول في الاسلام وقد قبل جوهر
منه ذلك (١٠٨) .

وكانت علاقة النوبة بمصر في عهد جوهر علاقة ودية ، فلم
يقم ملك النوبة بثأرة أية اضطرابات أو قلاقل ضد الحكم الفاطمي
في جنوب مصر ، كما اتسعم عصر الفاطميين في مصر (٣٥٨) -
٥٦٧ هـ / ١١٧١ م) بقيام علاقات حسن الجوار والمسالمة
مع النوبة . وانعكس اثر هذه العلاقة على المسيحيين في مصر والنوبة
على حد سواء ، ففي عهد الخليفة العزيز بالله ، قبل الأنبا فيلتوauss
البطرييرك الثالث والستين للكنيسة القبطية وساطة جورج الثاني
ملك النوبة ل إعادة العلاقات الدينية بين الكنيستان القبطية والجبيشية
بعد انقطاعها مدة (١٠٩) ، كما أنه رسم للجبيشة مطرانا بعد أن

(١٠٥) المداوى : المرجع السابق ، ص ٢٢٥ .

- يتشر : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢ .

(١٠٦) مصطفى سعد : المرجع السابق ، ص ٩٨ ، ٩٩ ، ١٣٢ .

Lane-Poole : Op. Cit. , p. 105.

(١٠٧)

(١٠٨) مصطفى سعد : المرجع السابق ، ص ٩٩ .

(١٠٩) ساويروس : تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية ، ج ٢ ، ص ١١٢ .

ص ١١٤ .

امتنع خمسة بطاركة من أسلافه عن ترسيم مطران للجبشة لأسباب
سوف نذكرها عند الكلام عن الجبشة (١١٠) .

واستمراراً لهذه العلاقات الطيبة بين النوبة والفاطميين ،
حرص النويبيون على تنفيذ معاهدة البقط ففي سنة ٣٨٣ هـ / ٩٩٣ م
وصل البقط إلى مصر من النبوية كالعادة مع فيل وزرافة (١١١) ،
كما وصل البقط أيضاً إلى مصر بعد ذلك بستين (١١٢) .

وعندما ثار أبو ركوة على الخليفة الحاكم بأمر الله تصدى
الخليفة لثورته ودارت بينهما عدة معارك ، كان آخرها عند الموضع
المعروف « بالسبحة » أو « رئيس البركة » على مقربة من مدينة
الفيوم ، حيث لحقت الهزيمة بأبي ركوة الذي فر إلى بلاد النوبة
طليباً للنجاة بنفسه (١١٣) .

ويذكر البعض نقلاً عن ابن الأثير أنه كان هناك اتفاق بين
أبي ركوة وجورج الثاني ملك الجبشة على أن يمدده بقوات لمساعدته
في القتال ضد أعدائه ، وكان ملك النوبة قد أرسل بعض قوات له
انضمت لقوات أبي ركوة واشتركت في المعركة قبل الأخيرة التي
دارت عند العجيبة ، غير أن ملك النوبة لم يرسل له قوات أخرى بعد
هذه المعركة ، ولما حللت الهزيمة بأبي ركوة وانقض عنه أتباعه ، هرب

(١١٠) سميك : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٤٢ .

(١١١) المقريزي : اتحاظ الحنفاء ، ج ١ ، ص ٢٧٩ .

(١١٢) ——— : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٢٨٥ .

(١١٣) القوصر : بنو الكنز - دراسة تاريخية - رسالة ماجستير من جامعة
القاهرة سنة ١٩٧٠ ، ص ٥٠ .

إلى بلاد النوبة (١١٤) ، فأرسل الفضل ابن عبد الله قائد الجيش الغاطسي رسالة إلى ملكها في طلبه ، لكن ملك النوبة قد توفي (٣٩٢ هـ / ١٠٠٢ م) (١١٥) ، واستطاع ابنه المسمى روفائيل أن يتدارك الأمر بسرعة ، فقبض على أبي ركوة وسلمه إلى القاهرة لاعدامه (١١٦) ، وذلك حتى لا تكشف علاقة أبيه بأبي ركوة ، وحتى لا تسوء العلاقة بينه وبين الحاكم بأمر الله (١١٧) . فضلاً عن أن موقف روفائيل هذا ، هو تنفيذ لمعاهدة البقط التي نصت على تسليم الهاربين إلى النوبة (١١٨) .

ولقد كانت المراسيم التي أصدرها الحاكم بأمر الله ضد أهل الذمة في مصر سبباً في هجرة الكثرين منهم إلى النوبة ، وبخاصة بعد أن سمع لهم بذلك ، فاتجه الكثير منهم إلى أقصى الصعيد ، وواصل بعضهم السير جنوباً حتى وصلوا إلى النوبة واستقروا بها (١١٩) .

ومن الجدير بالذكر أن مستقبل الكنيسة النوبية قد تحدد بطبيعة العلاقات بين الكنيستين المصرية والنوبية ، غير أن هذه

(١١٤) ————— : الرجع السابق ، من ٥٠-٥١ .

(١١٥) أبو صالح الأرمني : المصدر السابق ، ص ١٢٠ ، ١٢١ .

(١١٦) ماجد : الحاكم بأمر الله ، ص ١٦١ .

(١١٧) القوصي : الرجع السابق ، ص ٥١ .

(١١٨) ماجد : الحاكم بأمر الله . ص ١٦١ .

(١١٩) ذاهر رياضن : تاريخ النوبة ، ص ٦٤ .

العلاقات لم تثبت أن خضعت لعوامل سياسية ، فتأثر مركز الكنيسة النوبية تبعاً لسياسة الخلفاء الفاطميين في مصر آراء أهل الذمة ، فقد اشتملت القوانين الصارمة التي أصدرها الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م ضد أهل الذمة على أوامره بمنع سفر الأساقفة المصريين إلى التوبة والجبشة – كما منع إرسال خطابات بطريرك الكنيسة المرقسية السنوية إلى كنائس التوبة والجبشة لمدة أعوام ، وقد ترتب على ذلك أن أغلقت تلك الكنائس أبوابها (١٢٠) ، بل إننا نجد ملك التوبة يترااسل مع ملك الجبشة بشأن قبط مصر (١٢١) .

وعلى الرغم من مبالغة بعض المصادر في عدد ما هدمه الحاكم بأمر الله من أديرة وكنائس في مصر وبخاصة كنائس وأديرة الروم الملκانية إلا أن الكثير من الكنائس والأديرة في مصر لم تهدم خوفاً على مساجد المسلمين في البلاد المسيحية لاسيما في التوبة والجبشة اللذين كان بهما عدد كبير من يعتنقون الإسلام (١٢٢) . وإذا كان الفاطميون قد أرسلوا بعض الحملات التأديبية إلى بلاد النوبة عندما كان ملوكها ينقضون الهدنة ان يسيئون للمسلمين هناك أو يهاجمون أسوان ، فإن الفاطميين حرصوا على صفاء علاقتهم بالنوبة حرصاً على حياة المسلمين بها ، وقد تبودلت الهدايا بين البلدين وبخاصة في عهد الخليفة الظاهر لاعتزاز دين الله . ففي ربيع الأول سنة

(١٢٠) أبو صالح الأرمني : المصدر السابق ، ص ١٣٤ .

- مصطفى سعد : المرجع السابق ، ص ١٠٠ .

(١٢١) ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر ، ص ٢٣٤ .

(١٢٢) ————— : الحاكم بأمر الله ، ص ١٠٠ .

٤١٥ هـ ، وصلت إلى مصر هدايا من بلاد النوبة فيها عبيد وأماء
وختبأ بابوس وزرافات (١٢٣) .

وفي خلافة المستنصر بالله أرسيل ملك النوبة إلى الأنبا
خريستودولس - البطريرك السادس والستين للكنيسة القبطية -
يرجو منه رسامنة أسقف للكنيسة النوبية - التي توفى أسقفها - ،
وحرصاً على الصلات الطيبة بين الكنيسة المصرية وأهل النوبة بادر
البطريرك باختيار راهب ممتاز ورسمه أساقفاً وأرسله إلى النوبة على
وجه السرعة (١٢٤) ، كما أرسل البطريرك في سنة ٤٤٢ هـ / م ١٠٥٠
اثنين من أساقفة الكنيسة المصرية إلى ملك النوبة المسمى سلمون
لتدشين كنيسة شيدتها الملك في بلاده . وقد أحسن ملك النوبة
استقبال المبعوثين ، وبعد انتهاء مهمتهم أرسل معهما مالاً أوصله إلى
البطريرك (١٢٥) .

وعندما تولى اليازوري الوزارة - في عهد المستنصر بالله -
أرسل في سنة ٤٤٣ هـ / م ١٠٥١ م حملة إلى بلاد النوبة ، وفرض
عليهم مضاعفة البقط وهو ما استقر عليه الأمر (١٢٦) ، على الرغم
من أن المقريزى لم يذكر الأسباب التي أدت إلى إرسال هذه
الحملة (١٢٧) ، وقد يكون في حدث الاعتداء على البطريرك

(١٢٣) المقريزى : انتظام الحنف ، ج ٢ ، ص ١٤٢ .

(١٢٤) أريس حبيب : قصة الكنيسة القبطية - الجزء الثالث . ص ٨٩ .

(١٢٥) سميكة : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٤٢ .

- البرارى : المرجع السابق ، ص ٢٢٥ .

(١٢٦) المقريزى : انتظام الحنف ، ج ٢ ، ص ٢٢٢ .

(١٢٧) المنارى : المرجع السابق ، ص ٢٢٥ .

خرستودولس ما يشير الى أسباب هذه الحملة ، ذلك أن بعض المصادر تذكر أن اليازوري قبض على البطريرك المذكور وسجنه وصادر أمواله واضطهد النصارى بسبب ما تراومنيه من أن البطريرك يحرض ملك النوبة على عدم دفع التزاماته لل الخليفة ، ويشجمه على قطع العلاقات التجارية مع المسلمين ، وعدم ارسال الجزية السنوية كل عام (١٢٨) . وان كانت بعض المصادر تذكر أن البطريرك أرسل إلى ملك النوبة – الذى امتنع عن ارسال الجزية إلى مصر – يوصيه بتنفيذ معااهدة البقط ، حرصا على العلاقات الطيبة بين البلدين ، وتدعيمها لمركز البطريرك والأقباط في مصر ، وحفاظا على الصلات القوية بين الكنيستين المصرية والنوبية (١٢٩) .

وفي وزارة بدر الجمالى كانت العلاقات طيبة بين مصر والنوبة ، فعندما ثار الزعيم العربى كنـز الدولة محمد فى أسوان ولجأ إلى بلاد النوبة ، بادر بدر الجمالى بارسال الشـريف سيف الدولة ومعه الأسقف « مرقوره » Mercure الذى يعرف بالوعاء ، والذى كان يحمل رسالة توصية من البطريرك القبطى إلى ملك النوبة ، يطلبان منه باسم الخليفة تسليم كنـز الدولة إلى السلطات المصرية فما كان من ملك النوبة الا أن استجاب – لاعتبارات سياسية ودينية – لهذا الطلب وسلمهما كنـز الدولة سنة ٤٧٤ هـ تقريبا ، حيث اعدم بالقاهرة ، بل ان اثنين من أخوه كنـز الدولة محمد ، طلبا من ملك

(١٢٨) بتشر : المرجع السابق ، ج ٣ ، من ٤٧ .

- مصطفى مسعد : المرجع السابق ، من ٩٩ .

(١٢٩) ا里斯 حبيب : المرجع السابق ، ج ٣ ، من ٨٩ .

النوبة سالمون أن يتوسط لهما عند بدر الجمالى فى الصفج عنهم ، وتقديرًا لوقف ملك النوبة الطيب مع بدر الجمالى قبل بدر الجمالى وساطته وعفا عن بنى كنوز (١٣٠) .

وفي وزارة بدر الجمالى حدث أيضًا أن وشى أحد الوشاة إلى بدر الجمالى أن ملك النوبة — بايعاز من البطريرك خristodulus — قد هدم جميع مساجد المسلمين هناك ، فما كان من بدر الجمالى إلا أن أرسل مبعوثاً ليتحقق من صحة النباء ، وبعد حين عاد الرسول وقد اتضح أن الأمر أكذوبة (١٣١) ، فحكم على صاحبها بالاعدام وبرئه البطريرك . وأغلبظن أن ملك النوبة قد استخدم نفوذه في قصر الخلافة فجاء التحقيق في صالح البطريرك (١٣٢) .

وكثيراً ما كان النوبيون يلجأون إلى السلطات المصرية كلما حدث خلاف بينهم وبين بطاركة الكنيسة المرقسية بمصر ، كما حدث عندما أرسل الملك باسييل (١٠٨٩ م) وفداً يضم ابنه إلى بدر الجمالى ، يلتمس منه وساطته ومساعدة لتعيين الكنيسة المصرية هذا الابن رئيساً دينياً للنوبة (١٣٣) .

كما حرص بدر الجمالى على استمرار علاقته الطيبة ببلاد النوبة . فعندما علم أن والي قوص قبض على ملك النوبة — أثناء

(١٣٠) عطية القوصي : المرجع السابق ، من ٥٨ ، ٥٩ .

(١٣١) البراوى : المرجع السابق ، من ٢٣٦ .

(١٣٢) مصطفى مسعد : المرجع السابق ، من ٩٩ .

(١٣٣) البرنوى المرجع السابق ، من ٢٣٦ .

— الملاوى : المرجع السابق ، من ٢٣٦ .

زيارته للكنيسة أسوان - أمر بارساله إلى القاهرة معززاً مكرماً حيث أُنْعِمَ عليه بالهدايا القيمة ، وقد أدركَت الوفاة ملك التوبة وهو في مصر قبل أن يعود إلى بلاده (١٣٤) .

وكان للكنيسة المصرية الهيمنة على الكنيسة التوبية ، إذ تقلد رجال مصر من مبعوثي الكنيسة المصرية قمة وظائف الجهاز الكنسي في مملكة التوبة وكانت الكنيسة التوبية من أهم مصادر تمويل الكنيسة المصرية وبطاركتها ، وبخاصة إبان الأزمات المالية التي كانوا يتعرضون لها لسبب أو آخر (١٣٥) .

وهكذا يتضح لنا أن العلاقة بين كنيسة الإسكندرية وكنيسة التوبة كانت تخضع لعوامل سياسية ، وأن مركز الكنيسة التوبية كان يتأثر تبعاً للتدخل من جانب السلطان الحاكم في مصر (١٣٦) . كما استغلت السلطات المصرية مركز ونفوذ بطريرك الكنيسة المصرية في بلاد التوبة في الوصية لدى ملوك التوبة المسلمين في بلادهم (١٣٧) .

(١٣٤) الملاوي : المرجع السابق ، جن ٢٣٦ .

(١٣٥) مصطفى مسعد : المرجع السابق ، من ١٠٠ .

(١٣٦) ——— : نفس المصدر ونفس الصفحة .

(١٣٧) أبو صالح الارمني : المصدر السابق ، من ١٣٤ .

الفاطميون والجيشة

أما عن علاقة الدولة الفاطمية بالجيشة فهي من الأهمية بمكان ، ذلك أن الجيشة كانت لها علاقات وروابط قوية مع مصر وبخاصة تلك الصلات الدينية الوثيقة بين الكنيسة المصرية وأهالي الجيشة ، الذين كانوا يدينون بالنصرانية ، ويعتقدون مذهب اليعقوبية (١٣٨) ، كما كان على رأس الكنيسة الجيشية أسقف مصرى يعينه البطريرك القبطى بناء على طلب ملك الجيشة وكان الأسقف يقوم بدوره برسام القسس والشمامسة من أهل البلاد (١٣٩) .

وعندما جاء الفاطميون إلى مصر كانت العلاقات الدينية بين الكنيسة القبطية والجيشة مقطوعة منذ مدة طويلة ، فلم يجد البطاركة والأقباط يرسلون الأساقفة إليها ، ذلك أن الملكة جوديت التي تولت عرش الجيشة لمدة أربعين عاما (٩٤٠ - ٩٨٠ م) ،

(١٣٨) المقرنی : الإمام بأخبار من يارن الجيشة من ملوك الإسلام ، ص ٢ .

- زاهر رياضن : كنيسة الاسكتلندية في البريقية ، من ١٦٨ .

(١٣٩) أبو صالح الارمني : البرجع السابق ، من ١٣٤ ، ١٣٢ .

- زاهر رياضن : كنيسة الاسكتلندية في البريقية ، من ١٦٨ .

والتي تروى الأساطير أنها كانت يهودية الديانة ، كانت قد قطعت علاقتها الدينية بمصر ، رغبة منها في نشر ديانتها في مملكتها ، فخرّبت الكنائس ونهبّتها ، واضطهدت رجال الدين المسيحي وقتلت كثيراً منهم ، واستعانت ببعض القبائل الموالية لها لاراقة مزيد من دماء المسيحيين هناك . كما أمعنت في هدم الأديرة ونهب محتوياتها ، واتلاف الكتب الدينية بها وحرقها ، والقضاء على رجال الدين المسيحي والرهبان (١٤٠) . على أنه بوفاتها عمل خليفتها المسمى تكلاهيمانوت (٩٨٠ - ٩٩٥ م / ٣٧٠ - ٩٨٥ هـ) على إعادة الحال إلى ما كان عليه ، واحياء وحماية الديانة المسيحية في بلاده ، فرد إلى الكنائس والأديرة حرثتها وما أخذ منها (١٤١) ، وأرسل إلى جورج الثاني ملك التوبه – الذي كانت علاقته حسنة بال الخليفة الفاطمي العزيز بالله آنذاك – رسالة يصف له فيها الدمار الذي لحق بالعبشة ، وأن ما أصابهم كان عقاباً لهم على مسلك أسلافهم مع الأنبا بطرس أسقف كنيستهم الذي رسسه لهم الأنبا قزمان الثالث (البطيريك الثامن والخمسون) ، ثم طلب تكلاهيمانوت من ملك التوبه أن يتوسط لدى البطيريك فيلوكاووس (٩٧٠ - ٩٩٥ م / ٣٦٠ - ٣٨٥ هـ) لإعادة العلاقات الدينية بين الكنيسة المصرية والعبشة (١٤٢) ، وقال له في رسالته : « استعنف لنا الأب البطيريك ليرسم لنا أستقفا رأفة بنا ، حتى لا تتلاشى المسيحية من بلادنا ، إذ لنا الآن ما يربو

(١٤٠) ————— : تاريخ الشبيبة ، من ٦٣ .

(١٤١) زاهر رياض : المرجع السابق ، من ٦٤ .

(١٤٢) ————— : نفس المرجع ، نفس الصفحة .

– سعيدة : المرجع السابق ، ج ٢ ، من ١٤٨ .

على سنتين سنة هائمهين بلا راع ، فقد رفض خمسة من الباباوات الاسكندريين المتعاقبين على السدة المرقسية أن يرسموا لنا أستقفا ، وأدى حرماننا هذا إلى تقصٍ متزايد في عدد الكهنة ، لأنه لا يوجد بيننا من يملك سلطان رسامة كهنة جدد عند نياحة أي كاهن فكانت النتيجة وبالا علينا ، وتدھورت حياتنا الروحية » (١٤٣) .

وما أن وصلت رسالة جورج الثاني ، حتى بادر باستخدام نفوذه في قصر الخليفة العزيز بالله ، وعلاقته الطيبة بالكنيسة المصرية ، لاعادة العلاقات الطبيعية بين الكنيسة الأم وكنيسة الحبشة ، فقبل البطريرك وساطة ملك التوبية ، ورسم راهبا من دير أبي مقار اسمه دانيال ، وأرسله أستقفا لكنيسة الحبشة . حيث استقبله أهلها استقبلا حماسيا في سرور بالغ (١٤٤) .

وفي خلافة الحاكم بأمر الله انقطعت العلاقات مرة أخرى بين الكنيسة المصرية والحبشة ، ذلك أن الحاكم بأمر الله في فترة تشدده في سياسته ازاء أهل الذمة ، منع سفر الأساقفة المصريين إلى الحبشة ، كما منع الأنبا زخاريا البطريرك الرابع والستين من مكاتبته ملوك التوبية والحبشة كما جرت به العادة سنويا ، مما أدى إلى أنأغلقت كثير من كنائس الحبشة أبوابها بل أن الخليفة الحاكم بأمر الله عندما سلك مسلكا متشددا مع نصارى مصر وفرض عليهم قيودا اجتماعية ودينية صارمة ، جعل الكثيرين منهم يهاجرون إلى التوبية جنوبا ، وأمعن بعضهم في التبشير قاصدا الحبشة ، وكان يحكمها في ذلك الوقت أحد ملوكها المسماى « لا ليبالا » ، الذي اتخذ لنفسه حين اعتنى العرش اسمـ

(١٤٣) اries حبيب : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٣٦ .

(١٤٤) سازيرس : تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية ، ج ٢ ، ص ١١٤ .

« جبراً ما سقال » (ومعناها : خادم الصليب) ، وعُزِّف عنـه اهتمامـه بـرجال الدين المسيـحـي ، وـتغـيرـ الكـنـائـسـ والأـدـيرـةـ ، فـأـحـبـهـ الأـحـبـاشـ ، وـرـفـعـوهـ بـعـدـ موـتـهـ إـلـىـ مرـتـبةـ الـقـدـيسـينـ . وـفـيـ تـلـكـ الأـحـوـالـ الطـبـيـةـ التـيـ سـادـتـ بـلـادـ الـحـبـشـةـ ، كـانـتـ هـجـرـةـ كـثـيرـ منـ أـقبـاطـ مـصـرـ وـخـاصـةـ عـنـدـمـاـ سـمـعـ لـهـمـ الـحـاـكـمـ يـأـمـرـ اللـهـ بـذـلـكـ . وـكـانـ بـيـنـهـمـ عـدـدـ كـبـيرـ مـنـ الصـنـاعـ ، وـالـعـمـالـ الـمـهـرـةـ ، الـذـينـ اـسـتـعـانـ بـيـهـمـ « لـبـلاـ » فـىـ اـقـامـةـ كـثـيرـ مـنـ الـمـبـانـيـ وـالـمـنـشـاتـ وـبـخـاصـةـ الـكـنـائـسـ التـيـ مـاـ زـالـ بـعـضـهـ يـشـهـدـ بـإـرـاقـةـ الـفـنـانـ وـالـصـبـاحـ الـمـصـرىـ . كـماـ كـانـ مـنـ الـطـبـيـعـيـ أـنـ يـتـصـاهـرـ هـؤـلـاءـ الـقـبـطـ مـعـ الـأـحـبـاشـ فـتـزـوـجـوـ مـنـهـمـ ، وـاـخـتـطـلـوـ بـالـوـطـنـ مـنـ أـهـلـ الـبـلـادـ (١٤٥) ، وـنـقـلـوـ أـلـيـهـمـ كـثـيرـاـ مـنـ العـادـاتـ وـالـقـالـيدـ الـمـصـرـيـةـ (١٤٦) .

على أنه يجدر بـنـاـ أنـ نـشـيرـ إـلـىـ أـنـ الـحـاـكـمـ يـأـمـرـ اللـهـ ، عـنـدـمـاـ خـفـفـ مـنـ غـلـوـاءـ سـيـاسـتـهـ وـسـمـعـ لـأـقـبـاطـ مـصـرـ بـالـهـجـرـةـ إـلـىـ بـلـادـ الرـوـمـ وـالـنـوـبـةـ وـالـحـبـشـةـ ، وـأـبـقـىـ عـلـىـ كـثـيرـ مـنـ الـكـنـائـسـ وـالـأـدـيرـةـ الـقـبـطـيـةـ دـوـنـ هـدـمـ فـاـنـهـ وـلـاـ شـكـ قـدـ اـتـخـذـ هـذـاـ المـوـقـفـ خـوـفاـ عـلـىـ الـمـسـاجـدـ التـيـ فـيـ بـلـادـ النـصـارـىـ لـأـسـيـمـاـ فـيـ الـحـبـشـةـ التـيـ كـانـ بـهـاـ عـدـدـ كـبـيرـ مـنـ الـمـسـلـمـيـنـ (١٤٧) الـذـينـ يـدـفـعـونـ الـجـزـيـةـ لـمـلـكـهـاـ ، وـيـعـيـشـتـونـ تـحـتـ سـلـطـانـهـ (١٤٨) .

(١٤٥) زـاهـرـ رـيـاضـ : تـارـيـخـ أـثـيـوبـياـ ، مـنـ ٦٤ـ .

(١٤٦) عـنـ هـذـهـ الـعـادـاتـ وـالـقـالـيدـ التـيـ نـقـلـهـ أـقـبـاطـ مـصـرـ إـلـىـ الـحـبـشـةـ ، رـاجـعـ

ريـاضـ : تـارـيـخـ أـثـيـوبـياـ ، مـنـ ٢٣٦ـ - ٢٢٧ـ .

(١٤٧) مـاجـدـ : الـحـاـكـمـ يـأـمـرـ إـلـىـ ، مـنـ ١٠٠ـ .

(١٤٨) أـبـوـ صـالـحـ الـأـرـمـيـنـ : الـمـصـدـرـ السـابـقـ ، مـنـ ١٣٤ـ .

بل ان السلطات الحاكمة فى مصر كانت تطلب من البطريرك مكاتبة ملك الجيش بما يتمتع به النصارى فى مصر من حرية فى ممارسة حياتهم وشعائرهم فى ظل سياسة التسامح الدينى التى سار عليها الخلفاء الفاطميين ، كما يطلبون منه أن يوصى الملك الحبشى بأن يشمل بعطفه المسلمين الذين تحت رعايته (١٤٩) .

_____. : المصدر السابق ، من ١٣٦ (١٤٩)

اللاحق

ملحق رقم ١

سجل للحاكم بأمر الله
لرهبان ذير القصیر (١)

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين .

هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور أبي علي ، الامام الحاكم
بأمر الله أمير المؤمنين ، لسليمان بن ابراهيم الراهب ، بما رأه
من انعامه عليه ، واسعافه بما رغب اليه من الاذن له في اعادة
عمارة الدير المعروفة بالقصير بطرا من جبل فسطاط مصر الى ما كان
عليه قبيل هدمه ، وتمكين الرهبان سكناه والمقام فيه على عادتهم ،
والجرى على ما سلف من عبادتهم وصلواتهم واقامة سنة دياتهم ،
والفسح في اجتماع من يطرقه من أهل ملتهم ، وازالة الاعترافات
عنهم ، ومنع الأذى والتسلط عليهم ، وكف التبسيط والهيق لهم ،
ورد الأوقاف والأملاك التي كانت مجسدة عليه ، ومنسوبة إليه ،
من ضبيعة ، ومزرعة ، ومنية ، وأرض ، وحصة ، ودار ،
وقيسارية ، وحمام ، وعرصة ، وحانوت ، وفاخورة ، وتخيل ،

(١) نقل عن الانطاكي : المصدر السابق ، من ٢٢٩

وبستان ، وشجرة مثمرة ، وجنان يمقر وأعمالها من جميع بلاد المملكة أقطارها وأطرافها ، وتسليم ذلك إلى هذا الراهب ، ليتولى جهاده ويحوز نفعه وجناه ، ويصرفه في صالح هذا الدير والقديسين فيه والقاددين إليه ، ويحيط بيده في تدبيره ومن يسببه في حجمه وصيانته حقوق بيت مال المسلمين منه ، ويظهره من درنه ،

والوزر عنه ، والسامحة بما يجب على ذلك من خراج ، وعشر وغرم ، ورسم فيسائر دواوين الحضرة المحلولة والمحبسة ، وإزالة التأول عنه والاضرار بسببه ، والتتبع له في هذا الوقت ، وما يأتي بعده من الأوقاف على استقبال تاريخ هذا السجل ، وفاه بالذمة ، وجاء على مناصحتهم ومضامنتهم الملة ، لا يغيره كرhin ، ولا يحيلة من الأحقاب والسنين ، فمن قرأه أو قرئ عليه من الأولياء والولاة ، ومتولى الدواوين ، والضماء ، والمتصرفين في الأعمال والأحوال ، فليعلم ذلك من أمير المؤمنين ورسمه وليعمل عليه وبسببه ، وكتب في شهر ربیع الآخر سنة احدی عشرة وأربعينات ، وليقراً هذا المنشور في يد متحفته خجلاً له بمضمونه ويثبت بحيث مثله ان شاء الله .

سجل للحاكم بأمر الله

إلى ناقور بطريرك بيت المقدس (٣)

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين .

أمر أمير المؤمنين بكتابته هذا المنشور لتقفور بطريرك بيت المقدس بما رأه من اجابة رغبته واطلاق بغيته من صيانته وحياطته والذب عنه ، وعن أهل الذمة من نحلته ، وتمكينهم من صلواتهم على رسومهم في افتراقهم واجتماعهم وترك الاعتراف لمن يصلى منهم في عرصة الكنيسة المعروفة بالقيامة وخربتها على اختلاف رأيه ومذهبة ومقارنته في دينه وعقيدته واقامة ما يلزم في حدود ديانته وحفظ الموضع الباقية في قبضته داخل البلد وخارجها والديارات وبيت لحم ولد ، وما برسم هذه الموضع من الدور المنصوصية إليها والمنع من نقص المصليات بها والاعتراض لاجباسها المطلقة لها ومن هدم جدرانها وسائر أبنيتها احسانا من أمير المؤمنين إليهم ودفع الأذى عنهم وعن كافتهم وحفظوا لذمة الإسلام فيهم ، فمن قرأه أو قرئ عليه من الأولياء ، والولاة ، ومتولى هذه

(٣) نقل عن الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٣٠ .

النواحي وكافة الحماة ، وسائل المتصرفين في الأعمال ، المستخدمين على سائر منازلهم ، وتفاوت درجاتهم ، واستمرار خدمتهم أو تعاقب نظرهم في هذا الوقت وما يليه ، فليعلم ذلك من أمر أمير المؤمنين ورسمه ، ويعمل عليه وبحسبه ، وليجذر من تعدد حده ومخالفته حكمه ، ويتجنب مبادئه نصه ومجانبة شرحة ، وليقرب هذا المنشور في يده حجة لودعه ، يستعين بها على نيل طلبتـه وادرـاك بـفيـته
ان شاء الله تعالى .

وكتب في جمادى الآخرى سنة احدى عشرة وأربعينـة .

محلق رقم ٢

سجل للحاكم بأمر الله لنصارى مصر (٣)

« بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين .

هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور أبي علي ، الامام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ، ابن الامام العزيز بالله أمير المؤمنين ، لجماعة النصارى بمصر ، عندما أنهوا اليه الخوف الذى لحقهم ، والجزع الذى هالهم فاقبلتهم ، واستذراهم بظل الدولة ، وتحرهم بحضور الحضرة ، بما رأوه وأمر به من تكميل النعمة عليه بتوكيه لهم ذمة الاسلام وشرعيه ، من تصريحهم تحت كتفه ، بحيث تصيفو لهم موارد الطمأنينة ، وتصيفوا عليهم ملابس السكون والدعة ، واجابتهم الى ما سألوا فيه من كتب أمان لهم يخلد حكمه على الأعقاب ، ويتوارثه الأخلف منهم والأعقاب ، فأنت جميعاً آمنون بأمان الله عز وجسل ، وأمان نبيه محمد خاتم النبيين ، وسيد المرسلين صلعم وعلى آله الطاهرين ، وأمان أمير المؤمنين على بن أبي طالب سلام الله عليه ، وأمان الأئمة من آباءاء أمير المؤمنين

(٣) نقل عن الانطاكي : المصدر السابق ، من ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

سلام الله عليهم ، هذا على نفوسكم ، ودمائكم ، وأولادكم ، وأموالكم
وأحوالكم ، وأملاككم وما تحويه أيديكم ، أمانا صريحا ثابتا ،
وعقدا صحيحا باقيا ، فتقوا به واسكناه اليه ، وتحققوا أن لكم
جميل رأى أمير المؤمنين عاطفته ، ونصرته تحميكم ، وعصمته
تقيمكم ، لا يقدم عليكم بسوء أحد ، ولا تتطاول اليكم بمضره يسد
الا كانت زواجر أمير المؤمنين مقصرة من باعه ، وعظيم انكاره مضيقا
فيه من ذراعه ، والله عن أمير المؤمنين على ما تعتقدونه من صلاح
وصلاح لسكان أقطار مملكته ، ومد له وسيلة الشواء في كنف
دولته ، واياه يستشهد على ما أهضاه من أمانه لكم ، وعهده الذى
يشرفه طركم ، وكفى بالله شهيدا وليقرر في أيديهم حجة
بما أسبغ من النعم عليهم ، إن شاء الله .

وكتب في شعبان سنة احدى عشرة وأربعينائة .

سجل من الخليفة الظاهر لاعزار دين الله

لرهبان القبط (٤)

« عماراتكم ولا تطالبوا بعشد في حرب ولا بخروج واعزار كل راهب يخرج منكم الى الضياع للتعيش فيها وتقضاء حاجات من وزاه منكم وألا تلزموا عما يحمل النصارى من الميرة وما يجرى مجريها مكسا ولا غرما قل أو جل وأن تحفظوا فيما لكم من ذرع وغلة وعوامل فيسائر التواصي وألا يعرض ما يخلفه من يموت من رهبانكم خارجا عن دياركم في حال ترده الى الريف وغيره للتصرف في ماريكم من كل شيء يملكون ليكون جميعه عائدا على اخوه في رهانبيته دون كل قريب له ونسبة غيرهم وان الامام المعز لدين الله والامام العزيز والامام الحاكم بأمر الله قد حفظ الله أرواحهم تقدموا بكتاب سجلات باسماء ذلك كله لكم وسائلتم كتب سجل بتجديد ما كانت أمضته لكم الأئمة ، وتوكيده ما دعته لكافتك من المرة وحفظ ما لكم من هذه المواث والأذمة فأمر أمير المؤمنين بكتب هذا السجل المشهود ، لحملكم على مقتضى النص المذكور ، ووجب الشرح

المسطور واقرار فى أيديهم حجة بذلك باقية على مر الأيام والدهور، حتى لا يعترضكم معترض بما يزيل هذا الانعام عن حده أو يتاول فيه تاول بما يصرفه عن وجهه وقصده ، والذب عنكم .

فمن قرأه أو قرئ عليه من الأولياء والولاة ، والمتصرفين فى الأموال والجباة ، وسائل عبيد الدولة وخدمها على اختلاف طبقاتهم ، وترابع درجاتهم ، فليعلم من أمر أمير المؤمنين ورسمه وليعمل عليه وبحسبه ان شاء الله ، وكتب فى المحرم سنة خمس عشرة وأربعين مائة .

وصلى الله على بحثنا محمد خاتم النبئين وسسيد المرسلين وأله الطاهرين الأئمة المهدىين وسلم تسليما جسسينا الله ولهم الراى .

ملحق رقم ٥

رسالة ملك العبيضة الى جورج ملك النوبة للتتدخل لاعادة
العلاقات بين كنيسة العبيضة والكنيسة المرقسية (٥)
من حياة البطريرك فيلاتاوس وهو العدد الثالث والستون

٩٧٠ - ٩٩٥ م

وفي أيامه (البطريرك فيلاتاوس) أنفذ ملك العبيضة الى
ملك النوبة كتابا ، واسمه جرجس ، وعرفه ما أديبه الرب به هو
وأهل كورته وهو ، أن امرأة ملكة على بني الهيبة ثارت عليه وعل
كورته وسبت منها خلق كثير وأحرقت مدن كثيرة وأخربت البيع
وطرده من مكان الى مكان وأن الذى لحقه جزى (جزاء) عما كان
الملك الذى قبله فعله مع المطران فى أيام الآب أبا قزما مما شرحتاه
أولا من تزويره وكذبه ، وقال له فى الكتاب الذى أنفذه له :
أحب أن تساعدنى وتشاركنى فى التعب منجل (من أجل) الله
ومن أجل اتفاق الأمانة ، وتنكتب كتاب من جهتك الى الآب البطريرك

(٥) ساويرس : تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية والمعروف بسيد البيعة المقدسة
المجلد الثاني ، الجزء الثانى ، من ١١٤١١٢ .
ـ مصطفى سعد : الاسلام والنوبة فى العصور الوسطى ، من ٣٧ .

بمصر تسله أن يحللنا ويحلل بلادنا ويصل علينا ليزيل الله عنا وعن أرضنا هذا البلاء وينعم لنا بأن يقسم لنا مطران كما جسرت عادة آبائنا ويدعى لنا بأن يزيل الله غضبه عنا . وذكرت لك أنها الآخر ذلك خوفا من أن ينقرض ويبطل دين النصرانية من عندنا لأن هو ذا ستة بطاركة قد جلسوا ولم يلتقطوا إلى بلادنا بل هي ساقية بلا راعي ، وقد ماتوا أساقتنا وكهنتنا ، وقد خربت البيع وعلينا أنه يحكم حق نزل علينا هذا البلاء عوضا مما فعلناه بالمطران . فلما وصلت الكتب إلى جرجس ملك التوبه ووقف عليها أنفذ من جهته كتبنا ورسلا إلى البطريرك فيلاتاوس وشرح له فيها جميع ما ذكره ملك الحبشة وساله أن يتراوّف على شعبه فأجاب سواله ورسم لهم راهبا من دير أبو مقار اسمه دانيال وأنفذه لهم مطرانا فقبلوه بفرح وأزال الله عنهم الغصب وأبطل أمر الامرأة التي قامت عليهم .

قائمة المصادر

(١) المخطوطات :

- ١ - ابن أبيك (توفي بعد ٧٣٥ هـ / ١٣٣٥ م) :
 - « كنز الدرر وجامع الغرر » ، الجزء السادس ، بعنوان « الدرة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية » ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٢٥٧٨ تاريخ .
- ٢ - بيبرس السوادار (ت ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م) :
 - « زيادة الفكرة في تاريخ الهجرة » ، مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة الجزء السادس برقم ٢٤٠٢٧ .
- ٣ - ابن ظافر (ت ٦٢٣ هـ / ١٢٢٦ م) :
 - « أخبار الدول المنقطعة » ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية برقم ٨٩٠ تاريخ .
- ٤ - سبط بن الجوزي (ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٧ م) :
 - « مرآة الزمان في تاريخ الأعيان » ، الجزءان : الحادى عشر والثانى عشر ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٥٥١ تاريخ .

٥ - أبي السرور البكري (ت ١٠٠٥ - ١٠٠٦ هـ / ١٥٩٦ م - ١٦٥٠ م) :

- « عيون الأخبار ونسمة الأ بصار » ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٧٢ تاريخ ، بمكتبة مصطفى كامل باشا .

٦ - رسائل الحكم بأمر الله ، كتبها دعاء الفاطميين ، ولا سيما حمزة بن علي وهي مخطوطة بدار الكتب المصرية ، برقم ٣٨ ، ٣٧ ، ١٣٣ ، ١٤٣ عقائد ونحل .

٧ - العيني (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م) :

- « عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان » ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية ، برقم ١٥٨٤ تاريخ ، الجزء التاسع عشر .

٨ - القضايعي (ت ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م) :

- « عيون المعارف وفنون أخبار الخاليف » ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية برقم ١٧٧٩ تاريخ .

٩ - ميخائيل « الأنبا » (أسقف تنسس - عاش في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري) :

- « سير ال碧عة المقدسة » والمعروف « بذيل سير الآباء البطاركة » الجزء الثالث ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية برقم ٦٤٣٤ تاريخ .

١٠ - التويري (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) :

- « نهاية الأرب في فنون الأدب » ، مخطوط بدار الكتب

المصرية برقم ٥٤٩ معارف عامة ، الجزء السادس والعشرون .

(ب) المصادر العربية المطبوعة

١١ - الأبيسيهي (ت ٨٥٠ ه / ١٤٤٦ م) :

- « المستطرف فى كل فن مستطرف » ، القاهرة ١٣٨٥ هـ ،
جزءان .

١٢ - ابن الأثير (ت ٦٣٠ ه / ١٢٣٨ م) :

- « الكامل فى التاريخ » ، مصر ١٣٥٣ هـ ، الجزءان
الثامن والتاسع .

١٣ - ابن أبي اصيبيعة (ت ٦٦٧ ه / ١٢٧٠ م) :

- « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » ، تحقيق د . نزار
رضى ، بيروت ١٩٦٥ م .

١٤ - ابن أياس (ت ٩٣٠ ه / ١٥٢٣ م) :

- « تاريخ مصر » المعسروف بـ « بدائع الزهور فى وقائع
الدھور » بولاق ١٣١١ هـ ، الجزء الأول .

١٥ - التطيل (بنiamين بن يونة التطيل الأنطيسى) :

- « رحلة بنiamين » (٥٦١ هـ / ٥٦٩ هـ) ، ترجمة
وتعليق عزرا حداد ، بغداد سنة ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥ م .

١٦ - ابن الجوزى (أبو الفرج ، ت ٥٩٧ ه / ١٢٠١ م) :

- « المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم » ، حيسدر أباء سنة
١٣٥٧ - ١٣٥٨ هـ ، الأجزاء من ٥ - ١٠ .

١٧ - ابن جبير (ت ٦١٤ ه / ١٢١٧ م) :

- « رحلة ابن جبير » ، تحقيق د . حسين نصار ، القاهرة ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥ م .
- ١٨ - ابن حجر الغسقلااني (ت ٨٥٣ هـ / ١٤٤٩ م) :
- « رفع الأحد عن قضاة مصر » ، القسم الثاني ، تحقيق د . حامد عبدالمجيد ، القاهرة ١٩٦١ م .
- ١٩ - ابن حوقل (نبغ في سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م) :
- « كتاب صورة الأرض » ، مطبعة دار الحياة بيروت .
- ٢٠ - ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ - ١٤٠٦ م) :
- « العبر وديوان المبتدأ والخبر » ، طبعة بولاق ١٢٨٤ هـ الجزء الرابع .
- ٢١ - ابن خلkan (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨١ م) :
- « وفيات الأعيان وأئمّاء أبناء الزمان » ، سنتة أجزاء ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م .
- ٢٢ - ابن دقماق (ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ - ١٤٠٧ م) :
- « الانضمار لواسطة عقد الأمصار » ، الجزءان الرابع والخامس ، بولاق ١٣٠٩ - ١٣١٠ هـ .
- ٢٣ - ابن الراهب (رسم شهادتها في ذيর المغفلة بسيطرة مصر سنة ٦٦٩ هـ / ١٢٧٢ م) :
- « تاريخ ابن الراهب » ، نشر لويس شسيخو ، بيروت ١٩٠٣ م .

- ٤٤ - رشيد بن الزبير (عاش في القرن الخامس الهجري / العادى عشر الميلادى) :
- « الذخائر والتحف » تحقيق د . محمد حميد الله ، الكويت ١٩٥٩ .
- ٤٥ - ساويرس بن المقفع (أسقف الأشمونيين) :
- « تاریخ بطاركة الكثيسيه المصريه » ، المجلد الثاني ، الجزء الثاني تحقيق عبد المسيح ، وسوریال ، وبرمستمر ، طبعة مصر سنة ١٩٤٨ م .
- ٤٦ - السيوطي (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) :
- « حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة » ، جزءان ، القاهرة ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م .
- ٤٧ - أبو شجاع (ت ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م) :
- « ذيل تجارب الأم » ، صحيحة هـ فـ أمدروز ، طبع بمصر سنة ١٣٣٤ هـ / ١٩١٦ م .
- ٤٨ - الشيزري (ت ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م) :
- « نهاية الرتبة في طلب الحسبة » ، تحقيق السيد الباز العرييني القاهرة ١٣٦٥ هـ / ١٩٤٦ م .
- ٤٩ - أبو صالح الأرمني (٦٠٥ هـ / ١٢٠٨ م) :
- « تاريخ الشیعیأبو صالح الأرمنی » المعروف بـ « کنائس وأدیرة مصر » تحقيق وترجمة Bvetts طبعة آکسفورد سنة ١٨٩٤ م .

- ٣٠ - ابن ظهيره (عاش فى القرن العاشر الهجرى) :
 - « الفضائل الباهرة فى ملوك مصر والقاهرة » ، تحقيق
 مصطفى السقا ، كمامل المهنوس ، القاهرة ١٩٦٩ م .
- ٣١ - العبرى (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م) :
 - « تاريخ مختصر الدول » ، بيروت ١٨٩٠ م
- ٣٢ - أبو عثمان النابلي الصفدى (ت ٦٤١ هـ) :
 - « تاريخ الفيوم وبلاده » ، القاهرة ١٨٩٨ م
- ٣٣ - ابن العماد (ت ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨ م) :
 - « شذرات الذهب فى أخبار من ذهب » ، القاهرة ١٣٥٠ - ١٣٥٣ هـ الجزء الثالث .
- ٣٤ - ابن العميد (ت ٦٧٢ هـ / ١٢٧٣ م) :
 - « تاريخ الملسين » ، ليدن ١٩٢٥ م .
- ٣٥ - غرس الدين خليل (ت ٨٧٣ هـ) :
 - « كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك »
 مصححه بولس راويس ، بارس ١٨٩٣ م .
- ٣٦ - أبو الفدا (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) :
 - « المختصر فى أخبار البشر » ، المطبعة الحسينية بالقاهرة
 سنة ١٣٢٥ هـ .
- ٣٧ - ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٥٩ م) :
 - « مسالك الأピئنار فى أخبار ملوك الأمصار » ، الجزء الأول،
 تحقيق أحمد زكي باشا ، القاهرة ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٤ م .

- ٣٨ - ابن القلاني (ت ٥٥٥ هـ / ١٤٣١ م) :
- « ذيل تاريخ دمشق » ، بيروت ١٩٠٨ م
- ٣٩ - القلقشندي (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) :
- « صبح الأعشى في صناعة الانشأ » ، ١٤ جزءاً ، القاهرة ١٩١٧ - ١٩١٣ م
- ٤٠ - القسطي (ت ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م) :
- « تاريخ الحكماء » أو « أخبار العلماء بأخبار العلماء » ، ليزيج ١٩٠٣ م.
- ٤١ - ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م) :
- « البداية والنهاية في التاريخ » ، القاهرة ١٣٥٨ هـ ، الجزءان : الحادى عشر والثانى عشر .
- ٤٢ - كاتب مراكشي (من كتاب القرن السادس الهجرى / الثاني عشر الميلادى) :
- « كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار » ، تحقيق د. سعد زغلول نصار ، الاسكندرية ١٩٥٨ .
- ٤٣ - أبو المحاسن (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٩٦ م) :
- « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » ، الجزءان الرابع والخامس ، طبعة دار الكتب المصرية ١٣٥١ - ١٣٥٣ هـ / ١٩٣٢ - ١٩٣٥ م.
- ٤٤ - معير الدين الحنبلي (ت ٩٢٨ هـ / ١٥٢١ م) :
- الأننس الجليل بتاريخ القدس والخليل « الجزء الأول » .

- ٤٥ - المقدسي (ت ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م) :
- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ، ليبن ١٩٠٦ م .
- ٤٦ - المقرizi (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م) :
- « انباط الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، الجزء الأول ، تحقيق الشيال ، القاهرة ١٩٦٧ م ، والجزء الثاني تحقيق د . محمد حلمي محمد ، القاهرة ١٩٧١ م .
- ٤٧ - « المواضع والاعتياد في ذكر الخطط والأثار » ، جزءان ، طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ .
- ٤٨ - « الالام بأخبار من بارض العجشة من ملوك الاسلام » ، طبع بمصر سنة ١٨٩٥ م .
- ٤٩ - ابن ميسير (ت ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م) :
- « تاريخ مصر » ، الجزء الثاني ، القاهرة ١٩١٩ م .
- ٥٠ - ناصرى خسرو (زار مصر بين سنتي ٤٣٩ - ٤٤١ هـ) :
- « سفرنامة » ، ترجمة يحيى الخشاب ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٥٤ م .
- ٥١ - ابن الوردي (ت ٧٥٠ هـ / ١٣٥٨ م) :
- « تتمة المختصر في أخبار البشر » ، جزءان ، طبع بالقاهرة ١٢٨٥ م .
- ٥٢ - ياقوت (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م) :
- « معجم البلدان » ، ١٠ أجزاء ، القاهرة ١٣٣٢ هـ / ١٩٠٦ م .

- ٥٣ - يحيى بو سعيد الأنطاكي (ت ٤٥٨ هـ / ١٠٦٦ م) :
- « تاريخ » أو « صلة كتاب أوتيخا » المسمى « التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » ، تحقيق شسيخو ، بيروت ١٩٠٩ م .
- (ج) المراجع الحديثة :
- ٥٤ - ادريس حبيب المصري :
- « قصة الكنيسة القبطية » ، الجزء الثالث ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٥ م .
- ٥٥ - آونولد :
- « الدعوة الى الاسلام » ، ترجمة د . حسن ابراهيم ، وعبد المجيد عابدين ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٧ م .
- ٥٦ - أسعد رستم :
- « الروم في سياستهم وحضارتهم ، ودينهن ، وثقافتهم ، وصلاتهم بالعرب » في جزئين ، بيروت ١٩٥٥ - ١٩٥٦ م .
- ٥٧ - بتشير (السليمة ٤٠ ل٠) :
- « تاريخ الامة القبطية وكنيستها » ، ٤ أجزاء ، طبع بالفجالة بمصر سنة ١٩٠٦ م .
- ٥٨ - بارتسلو :
- « تاريخ الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، نقله من التركية الى العربية حمزة طاهر ، القاهرة ١٩٥٢ م .
- ٥٩ - البراوي (داشد - الدكتور) :

- ٦٠ - « حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين » ، القاهرة ١٩٤٨ م .
- ٦١ - ترنسون (أ. س.) :
- ٦٢ - « أهل الذمة في الإسلام » ترجمة د . حسن حبشي ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٧ م .
- ٦٣ - جاك تاجر :
- ٦٤ - « أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى سنة ١٩٢٢ » ، القاهرة سنة ١٩٥١ م .
- ٦٥ - جروهمان (أدولف) :
- ٦٦ - « أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية » ، ترجمة د . حسن ابراهيم وعبد الحميد حسن ، القاهرة ١٩٣٤ م .
- ٦٧ - حتى (فيليب - الدكتور) :
- ٦٨ - « تاريخ العرب » في جزئين ، ترجمة ادوارد جرجى وجبرائيل جبور بيروت ١٩٦١ م .
- ٦٩ - حسن ابراهيم حسن (الدكتور) :
- ٦١٠ - « تاريخ الإسلام السياسي » الجزء الثالث ، الطبعة السابعة ، القاهرة ١٩٦٥ م ، والجزء الرابع ، الطبعة الثانية ١٩٥٨ م .
- ٦١١ - « الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص » القاهرة ١٩٣٢ م .

- ٦٦ - « تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسوريا وبلاد العرب » الطبعة الثانية ١٩٥٨ م .
- ٦٧ - حسن أبوالاهيم وطه شرف :
- « المعز لدين الله الفاطمي ، امام الشيعة الاسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في مصر » ، القاهرة ١٩٤٨ م .
- ٦٨ - حسن ابراهيم وآخرون :
- « المجمل في التاريخ المصري » الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٤٢ م .
- ٦٩ - خطاب عطية على :
- « التعليم في مصر في العصر الفاطمي الأول » ، القاهرة ١٩٤٧ م .
- ٧٠ - ديماند :
- « الفنون الإسلامية » ، ترجمة أحمد عيسى .
- ٧١ - زاهر رياض (الدكتسون) :
- « تاريخ أثيوبيا » ، القاهرة ١٩٦٤ م .
- ٧٣ - « كنيسة الاسكندرية في افريقيا » الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٦٢ م .
- ٧٣ - رؤوف حبيب :
- « كنائس القاهرة القبطية القديمة » ، القاهرة ١٣٨٦ هـ ١٩٦٦ م .

- ٧٤ - ذكرى محمد حسن (الدكتور) :
- « الفن الاسلامي في مصر » ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٣٥ م.
 - ٧٥ - « كنوز الفاطميين » ، القاهرة ١٩٣٧ م.
 - ٧٦ - « فنون الاسلام » ، القاهرة ١٩٤٨ م.
 - ٧٧ - سرور (محمد جمال الدين - الدكتور) :
 - « النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق في القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة » ، القاهرة ١٩٥٩ م.
 - ٧٨ - « مصر في عصر الدولة الفاطمية » ، مجموعة الآلف كتاب ، القاهرة ١٩٦٠ م.
 - ٧٩ - « الدولة الفاطمية في مصر » ، القاهرة ١٩٦٥ - ١٩٦٦ م.
 - ٨٠ - « سياسة الفاطميين الخارجية » ، القاهرة ١٩٦٧ م.
 - ٨١ - سيد أمير علي :
 - « مختصر تاريخ العرب » ، ترجمة عفيفي البعلبكي ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٦١ م.
 - ٨٢ - سيدة اسماعيل كاشف (الدكتورة) :
 - « مصر في فجر الاسلام » ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٠ م.
 - ٨٣ - « مصر في عصر الاخشيديين » ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٠ م.

- ٨٤ - حسن أحمد محمود (الدكتور) :
- « حضارة مصر الإسلامية ، العصر الطولوني » ، القاهرة ١٩٦٠ م.
- ٨٥ - حسن أحمد محمود وسيدة كاشف :
- « مصر في عصر الطولونيين والاخشيدين » ، مجموعة الألف كتاب ، القاهرة ١٩٦٠ م.
- ٨٦ - الشيبالي (جمال الدين - الدكتور) :
- « تاريخ مصر الإسلامية » الجزء الأول ، القاهرة ١٩٦٧ م.
- ٨٧ - عاشور (سعید عبد الفتاح - الدكتور) :
- « المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك » ، القاهرة ١٩٦٢ م.
- ٨٨ - عبد اللطيف ابراهيم (الدكتور) :
- « في مكتبة دير سانت كاترين » ، مستخرج من « مجلة أم درمان الإسلامية » - العدد الأول ، سنة ١٩٦٨ م.
- ٨٩ - عبد الرحمن فهمي :
- « موسوعة النقد العربية وعلم النبات » ، الجزء الأول بعنوان « فجر السكة العربية » ، القاهرة ١٩٦٥ م.
- ٩٠ - عبد الرحمن ذكي (الدكتور) :
- « القاهرة . تاريخها وأثارها ، من جوهر القائد إلى الجبرتي المؤرخ » ، القاهرة ١٣٨٦ھ / ١٩٦٦ م.

٩١ - على ابراهيم حسن (الدكتور) :

- « تاريخ جوهر الصقل » ، الطبعة الأولى ، القاهرة سنة ١٣٥١ هـ / ١٩٣٣ م

٩٢ - على حسني الغربوطى (الدكتور) :

- « مصر العربية الإسلامية . السياسة والحضارة في مصر في العصر العربي الإسلامي ، منذ الفتح العربي إلى الفتح العثماني » . القاهرة ١٩٦٣ م

٩٣ - « العرب واليهود في العصر الإسلامي » ، القاهرة ١٩٦٣ م .

٩٤ - عمر كمال توفيق (الدكتور) :

- « الامبراطور نقوفر فوكاس ، واسترجاع الأراضي المقدسة » الاسكندرية ١٩٥٩ م

٩٥ - عنان (محمد عبد الله) :

- « الحاكم بأمر الله ، وأسرار الدعوة الفاطمية » ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٣٧٩ هـ / ١٩٥٩ م

٩٦ -) تاريخ الجامع الأزهر « ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٨ م .

٩٧ - « مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية » ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٣١ م .

٩٨ - عطية محمود القوصى (الدكتور) :

- « بنو الكنز - دراسة تاريخية » ، رسالة ماجستير غير مطبوعة تحت اشراف الدكتور أحمد دراج ، جامعة القاهرة ١٩٧٠ .

٩٩ - « تجارة مصر في البحر الأحمر ، منذ فجر الاسلام حتى سقوط الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ ، رسالة دكتوراه غير مطبوعة تحت اشراف د . أحمد دراج ، جامعة القاهرة ١٩٧٣ م .

١٠٠ - كارل بروكلمان :

- « تاريخ الشعوب الاسلامية » ، الجزء الثاني ، بعنوان « الامبراطورية الاسلامية وانحلالها » ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٥٤ م .

١٠١ - لين بول (ستانلي) :

- (سيرة القاهرة) ، ترجمة د . حسن ابراهيم وآخرون ، القاهرة ١٩٥٠ م .

١٠٢ - ماجد (عبد المنعم - الدكتور) :

- « نظم الفاطميين ورسومهم في مصر » ، القاهرة .

١٠٣ - « العاكم بأمر الله ، الخليفة المفترى عليه » ، القاهرة ١٩٥٩ م .

١٠٤ - « ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر » ، الاسكندرية ١٩٦٨ م .

١٠٥ - متز (آدم) :

- « الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري » ، في جزئين ، القاهرة ١٩٤١ م .

١٠٦ - المناوى (محمد حمدى - الدكتور) :

١٠٦ - «الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي» ، القاهرة
١٩٧٠ م.

١٠٧ - مرقض سميكه (باشا) :

- «دليل المتحف القبطي ، وأهم الكنائس والأديرة الأنطورية»
فى جزئين ، طبع ببصـر ١٩٣٠ م. ١٩٣٢ م.

١٠٨ - مرقوق (محمد عبد العزيز - الدكتور) :

- «الزخرفة المنسوجة فى الأقبية الفاطمية» ، القاهرة
١٩٤٢ م.

١٠٩ - مشرفـة (عطية مصطفى - الدكتور) :

- «نظم الحكم فى عصر الفاطميين» ، الطبعة الأولى ،
القاهرة ١٩٤٨ م.

١١٠ - مصطفى مسعد (الدكتور) :

- «الاسلام والتوبـة فى النصـور الوسطـى» ، القاهرة
١٩٣٠ م.

(د) امراجع الأجنبية :

- 1) Goitein (S. D.) :
— « Jews and Arabs ».
New York, 1955. W
- 2) « A Mediterranean Society, the Jewish Communities of the
Arabs World as Portrayed in Documents of the Cairo
Geniza ». Volume I, California, 1967.
- 3) Lean-Pool (S.) :
— History of Egypt in the Middle Ages. London, 1901.
- 4) Mann (J.) :
— « The Jews in Egypt and Palestine under the Fatimid
Caliph ». Volume I, Oxford, 1920.
- 5) Stern (S.M.) :
— « Fatimid Decrees, Original Documents from the
Fatimid Chancery ». London, 1964.

فهرس

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة البحث
١٥	عرض لأهم مصادر البحث
الباب الأول	
٢٥	«أهل الذمة والوظائف العامة»
٢٧	سياسة الخلفاء الفاطميين لازاء الموظفين من أهل الذمة
٤٣	الوزراء والوسطاء من أهل الذمة
٧٣	أهل الذمة والذوالين الحكومية
٨١	الأطباء من أهل الذمة
٨٧	موقف المسلمين من سياسة الموظفين الذميين
الباب الثاني	
٩٣	«أهل الذمة والحياة الاقتصادية»
٩٥	النشاط الزراعي لأهل الذمة
١٠٩	النشاط الصناعي لأقل الذمة
١٤٤	النشاط التجارى لأهل الذمة
١٥٠	دور أهل الذمة في التجارة الخارجية
الباب الثالث	
١٥٧	«الحياة الاجتماعية والدينية لأهل الذمة»
١٥٩	(١) الحياة الاجتماعية لأهل الذمة

—	القبط واليهود في مصر في العصر الفاطمي الأول	١٥٩
—	المكانة الاجتماعية لكتاب أهل الذمة	١٦٨
—	القيود الاجتماعية التي فرضت على أهل الذمة	١٧٥
(ب)	أعياد أهل الذمة	١٨٦
—	أعياد النصارى	١٨٧
—	أعياد اليهود	٢٠٥
(ج)	سياسة الفاطميين الدينية ازاء أهل الذمة	٢١٣
—	موقف الخلفاء الفاطميين ازاء رجال الكنيسة	
القبطية	٢١٣
—	القيود التي فرضت على دور العبادة لأهل الذمة	
(الكنائس المسيحية - الأديرة - الكنائس اليهودية)		٢٢١

الباب الرابع

« علاقة الدولة الفاطمية بالدول المسيحية » وأثر		
ذلك على أهل الذمة	٢٤٧	
الفاطميون والبيزنطيون	٢٤٩	
الفاطميون وببلاد النوبة	٢٧٨	
الفاطميون والحبشة	٢٨٧	
الملحق	٢٩٣	
قائمة المصادر	٣٠٣	

● صدر من هذه السلسلة :

- ١ - مصطفى كامل في محكمة التاريخ
د° عبد العظيم رمضان
- ٢ - على ماهر
إعداد : رشوان محمود جابر الله
- ٣ - ثورة يوليو والطبقة العاملة
إعداد : عبد السلام عبد الحليم عامر
- ٤ - التيارات الفكرية في مصر المعاصرة
د° محمد نعسان جلال
- ٥ - غارات أوروبا على الشواطئ المصرية في العصور الوسطى
عليه عبد السميم
- ٦ - هؤلاء الرجال من مصر ج ١
معي المطيري
- ٧ - صلاح الدين الأيوبي
د° عبد المنعم ماجد
- ٨ - رؤية الجبرتي لأزمة الحياة الفكرية
د° علي بركات
- ٩ - صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل
د° محمد أنيس
- ١٠ - توفيق دباب ملحمة الصحافة الحزبية
محمود فوزى
- ١١ - مائة شخصية مصرية وشخصية
شكري القاضى

- ١٢ - هدى شعراوى وعصر التنوير
د. فبيل راغب
- ١٣ - أكذوبة الاستعمار المصرى للسودان
د. عبد العظيم رمضان
- ١٤ - مصر فى عصر الولاية
د. سيدة اسماعيل كاشف
- ١٥ - المستشرقون والتاريخ الاسلامي
د. عل حسنى الغربوطى
- ١٦ - فصول من تاريخ حركة الاصلاح الاجتماعى فى مصر
د. حلمى احمد شبلى
- ١٧ - القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى
د. محمد نور هرخان
- ١٨ - الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية
د. على السيد محمود
- ١٩ - مصر القديمة وقصة توحيد القطرين
د. أحمد محمود صابون
- ٢٠ - المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهوى
د. محمد انيس
- ٢١ - التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ج ١
توفيق الطويل
- ٢٢ - نظرات فى تاريخ مصر
جمال بدوى
- ٢٣ - التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ج ٢
توفيق الطويل

- ٢٤ - الصحافة الوفدية
د. نجوى كامل
- ٢٥ - المجتمع الاسلامى
ترجمة : د. عبد الرحيم مصطفى
- ٢٦ - تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة
د. سعيد اسماعيل على
- ٢٧ - فتح العرب لمصر ج ١
ترجمة : محمد فريد أبو حديد
- ٢٨ - فتح العرب لمصر ج ٢
ترجمة : محمد فريد أبو حديد
- ٢٩ - مصر فى عهد الاش끄بيين
د. سيدة اسماعيل كاشف
- ٣٠ - الموظفون فى مصر
د. حلمى احمد شلبي
- ٣١ - خمسون شخصية وشخصية
شكري القاھى
- ٣٢ - هؤلاء الرجال من مصر ج ٢
معنی المطیعى
- ٣٣ - مصر وقضايا الجنوب الافريقى
د. خالد الكومى
- ٣٤ - تاريخ العلاقات المصرية المغربية
د. يوثان لبيب رزق
- ٣٥ - اعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة
عبد الحميد توفيق زكي

- ٣٦ - المجتمع الاسلامي والغرب ج ٢
ترجمة : د. احمد عبد الرحيم مصطفى
- ٣٧ - الشيخ على يوسف
تأليف : د. سليمان صالح
- ٣٨ - فضول من تاريخ مصر الاقتصادي
والاجتماعي في العصر العثماني
د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم
- ٣٩ - قصة احتلال محمد على لليونان
د. جميل عبيد
- ٤٠ - الأسلحة الفاسدة ودورها في حرب ١٩٤٨
د. عبد المنعم الدسوقي الجميسي
- ٤١ - محمد فريد الموقف والأسأة
رفعت السعيد
- ٤٢ - تكوين مصر عبر العصور
محمد شفيق غربال
- ٤٣ - رحلة في عقول مصرية
ابراهيم عبد العزيز
- ٤٤ - الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر في العصر
العثماني
د. محمد عفيفي
- ٤٥ - الحرثوب الصليبية
تأليف : وليم الصورى
ترجمة : د. حسن جبلى

- ٤٦ - تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية ١٩٣٩ : ١٩٥٧
 تأليف : د . عبد الرؤوف أحمد عمرو
- ٤٧ - تاريخ القضاء المصرى الحديث
 تأليف : أ.د . لطيفة محمد سالم
- ٤٨ - الفلاح المصرى
 تأليف : د . ذبيدة عطا
- ٤٩ - العلاقات المصرية الاسرائيلية
 تأليف : أ. د عبد العظيم رمضان
- ٥٠ - الصحافة المصرية والقضايا الوطنية
 تأليف : د . سهير اسكندر
- ٥١ - تاريخ المدارس فى مصر الاسلامية
 اعداد : د . عبد العظيم رمضان
- ٥٢ - مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين فى القرن
 الثامن عشر
 تأليف : د . الهام محمد على ذهنى
- ٥٣ - أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المالك
 د . محمد كمال الدين عز الدين على
- ٥٤ - الأقباط فى مصر فى العصر العثماني
 تأليف : الدكتور محمد عفيفي
- ٥٥ - المجموع الصليبي ج ٢
 ترجمة وتحقيق : د . حسن حبشي
- ٥٦ - المجتمع الريفي فى عصر محمد على
 د . حلمى احمد شلبي

- ٥٧ - مصر الاسلامية وأهل الذمة
د. سيدة اسماعيل كاشف
- ٥٨ - أحمد حلمي سجين الحرية والصحافة
د. ابراهيم عبد الله المسلمي
- ٥٩ - الرأسمالية الصناعية في مصر
د. عبد السلام عبد الحليم عامر
- ٦٠ - المعاصرون من رواد الموسيقى العربية
عبد الحميد توفيق زكي
- ٦١ - تاريخ الاسكندرية
د. عبد العظيم رمضان
- ٦٢ - هؤلاء الرجال من مصر ج ٣
لعي المطبيعي
- ٦٣ - موسوعة تاريخ مصر عبر العصور
د. سيد اسماعيل الكاشف
- ٦٤ - مصر وحقوق الانسان
د. محمد نعman جلال
- ٦٥ - موقف الصحافة المصرية من الصهيونية
د. سهام نصار
- ٦٦ - المرأة في مصر في العصر الفاطمي
د. نريمان عبد الكريم أحمد
- ٦٧ - الأصول التاريخية لمساعي السلام العربية الاسرائيلية
ظ. د. عبد العظيم رمضان

٦٨ - الحروب الصليبية ج ٣
ترجمة وتحقيق : د. حسن حبشي

٦٩ - نبوية موسى ودورها في الحياة
د. محمد أبو الأسعاد

٧٠ - أهل الذمة
أ. د. حسن حبشي

٧١ - مذكرات اللورد كليرين
ترجمة : د. عبد الرزق واحمد عمر

٧٢ - رؤية الرحلة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية
لمصر في العصر الفاطمي (٣٥٨ - ٥٦٧ هـ / ٩٦٩ - ١٧١ م)

د. أمينة أحمد امام الشوربجي

٧٣ - تاريخ جامعة القاهرة
د. رؤوف عباس حامد

٧٤ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية
د. سمير يحيى الجمال

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيصال بدار الكتب ٩٦٣٦/١٩٩٤

ISBN — ٩٧٧ — ٥١ — ٤١٦٦ — ٦

وها هو هذا الكتاب بين يدي القارئ الكريم كتاب جديد عن أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول ألهه أستاذ جامعي متخصص هو الدكتور سلام شافعى محمود، يتناول تاريخ النصارى واليهود في مصر في عصر لعبوا فيه دورا هاما في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وهو العصر الفاطمي الأول الذي امتد نحو قرن من الزمان (٣٥٨-٤٤٧ هـ / ٩٦٩-١٠٥٥ م) وقد تتبع هذا الكتاب الهام دور هذه الطبقة من أهل الذمة في الوظائف العامة والحياة العامة، فتناول أدائهم الوظيفي، واحتفالاتهم، وكنائسهم وأدبياتهم ومعابدهم ودورهم في النشاط الزراعي والصناعي، وحياتهم في القرى والمدن المصرية، ولغتهم القبطية ولهجاتها، وأسطورة تنصر المعز لدين الله الفاطمي. كما تناول علاقات الدولة الفاطمية بالدولة المسيحية وأثرها على أهل الذمة، والسفارات التي يتولى رئاستها كبار رجال الدولة من أهل الذمة. وأفرد فصلاً لعلاقات الدولة الفاطمية ببلاد النوبة، والعصلة بين الكنيسة القبطية في مصر والكنيسة النوبية، وأختتم الكتاب بفصل عن العلاقة بين مصر وبلاط الحبشة، وبين الكنيسة القبطية وكنيسة الحبشة. ومدى تأثيرها بموقف الخلفاء الفاطميين من الأقباط إيجاباً وسلباً.